آنا فرويد

الأنا وآليات الدفاع




مكتبة
الفكر الجديد

تقديم

آنا فرويد (١٨٩٥ ـ ١٩٨٢) هي سادس أولاد سيغموند فرويد وزوجته مارتا وآخرهم. وقد كان الوالدان يتمنيان لو أنها كانت ذكراً لتساعد في إقامة أود الأسرة في زمن ما كان فيه الأب قد أصاب شهرة بعد ولا تحسناً بالتالي في وضعه المالي. وقد كان عليها أن تناضل كيما تحظى بالاعتراف بها. وعانت منذ حداثتها من الخَلْفة، أي فقدان الشهية إلى الطعام. وبحكم كونها أنثى ما كان يتأتى لها أن تدخل الجامعة، فاكتفت بأن تكون معلمة. ولكنها ما عتمت أن أصيبت بالسل، فتقاعدت. وقد تولى فرويد بنفسه تحليلها لمرتين على التوالي بين ١٩١٨ و١٩٢٢، ثم بين ١٩٢٤ و١٩٢٩، وهذا ما جعل جاك فان ريلاير، أستاذ علم النفس في جامعة لوفان الكاثوليكية، يصف ذلك التحليل بأنه يحمل وصمة الزنى بالمحارم، علماً بأن خضوعها للتحليل، مثلها مثل غيرها من المحللين، كان شرطاً مسبقاً لممارستها التحليل هي نفسها ابتداء من عام ١٩٢٣ ولقبول عضويتها في العام التالي في **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**. ولقد كانت سباقة إلى التخصص في تحليل الأطفال، ثم إلى تأسيس مدرسة للأطفال تعتمد في نهجها على التحليل النفسي وعلى مبادئ التربية الجديدة. وأتبعتها في عام ١٩٣٨ بتأسيس عيادة للمعالجة النفسية للأطفال في فيينا، ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية أجبرتها على الانتقال إلى إنكلترا حيث أسست عيادة بديلة.

وقد لعبت آنا فرويد دوراً تاريخياً في إغناء المكتبة التحليلية النفسية بدراساتها عن النفسية الطفلية، ومنها **السويّ والمرضيّ لدى الطفل**، **التحليل النفسي للأطفال**، **الطفل في التحليل النفسي**، **المعالجة التحليلية النفسية للأطفال**. ولكن يبقى الكتاب الذي رسّخ شهرتها وأبرز مساهمتها النوعية في إغناء النظرية التحليلية النفسية هو الأنا وآليات الدفاع الذي نُشر في فيينا عام ١٩٣٦. فإلى



يومها كان مدار عمل المحللين النفسيين من متابعي فرويد على استكشاف قارة اللاشعور، وما كان الأنا، بطل قارة الشعور، يحظى بكبير اهتمام منهم. وهذا ما جعل بعضهم يرمي منحاها بأنه ضرب من «الهرطقة». ولكن هل من سبيل إلى التطوير وإلى التجديد بدون حدٍّ أدنى من الهرطقة؟ ثم هل نحن أمام هرطقة فعلاً أم أمام استمرارية لهرطقة كان شرع بها فرويد نفسه عندما أدخل تعديلاً جذرياً على طبوغرافيته في كتبه الثلاثة التي أصدرها في عامي ١٩٢٠ و١٩٢٣ و١٩٢٦ على التوالي: **ما وراء مبدأ اللذة والأنا والهذا والكفّ، العرَض، الحصر**، والتي أوكل فيها إلى الأنا دوراً لن تفعل ابنته آنا غير أن توسّع نطاقه بحيث يمكن اعتبار كتابها ملحقاً لها؟

وقد كنا ترجمنا **الأنا وآليات الدفاع** عن الترجمة التي قامت بها عام ١٩٤٩ آن برمان، مترجمة فرويد الأولى إلى الفرنسية. وما احتجنا في هذه الطبعة الجديدة إلى غير إدخال تعديلات طفيفة للغاية وشروح بخصوص أسماء الأعلام.

ج. ط



القسم الأول

نظرية آليات الدفاع




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الأول

الأنا كموضوع للملاحظة

تعريف التحليل النفسي

في فترات معينة من تطور العلم التحليلي النفسي ضُرب نطاق من اللاشعبية حول الدراسة النظرية لأنا الفرد. فقد آل الأمر بالكثيرين من المحللين النفسيين إلى الاعتقاد بأن القيمة العلمية والعلاجية للمحلّل النفسي تقاس بمدى عمق الطبقات النفسية التي يسبر غورها. فمن تحوَّل باهتمامه عن الطبقات النفسية العميقة إلى الطبقات السطحية، ومن انتقل من دراسة الهذا إلى دراسة الأنا، كان يعرّض نفسه لأن يرمى بتهمة الارتداد عن التحليل النفسي. وكان الرأي السائد أن اسم التحليل النفسي ينبغي أن يوقف على ذلك القسم من الكشوف الجديدة الذي يتصل بالحياة النفسية اللاشعورية، أي على دراسة الحفزات الغريزية المكبوتة والانفعالات والأخاييل. أما المشكلات من قبيل تكيُّف الطفل أو الراشد مع العالم الخارجي، وأما المفاهيم القيمية مثل مفهوم الصحة والمرض، ومفهوم الفضيلة والرذيلة، فما كان يجوز بحال من الأحوال أن تستأثر باهتمام التحليل النفسي. بل كان يتحتم على هذا الأخير ألا يشغل نفسه إلا بالأخاييل الطفلية المستمرة إلى سن الرشد، وإلا بالملذات الخيالية والعقوبات المرهوبة التي تجازى بها هذه الملذات.

ربما كان هذا التصور للتحليل النفسي، الدارج على نطاق لا يستهان به في الأدبيات التحليلية النفسية، يستند إلى الاستخدام اللغوي الشائع الذي اعتمد من البداية بغير ما تمييز مصطلح التحليل النفسي أو مصطلح علم نفس الأعماق في تسمية علمنا. وليس في ذلك ما يدعو إلى العجب، وذلك ما دامت النظرية



الأولى المستندة إلى كشوف التحليل النفسي كانت في المقام الأول نظرية في علم نفس اللاشعور، أو الهذا كما بتنا نقول اليوم. غير أننا عندما نطبّق هذا التصور على أصول العلاج التحليلي النفسي يتكشف لنا للحال طابعه المغلوط. فقد كان موضوع المعالجة التحليلية من البداية الأنا واضطراباته، على اعتبار أن دراسة الهذا وطرائقه في العمل لا تعدو أن تكون وسيلة لبلوغ الهدف العلاجي. وهذا الهدف هو على الدوام حذف الاضطرابات وتمكين الأنا من استرداد سلامته.

ومنذ أن صدر كتابا فرويد: **علم نفس الجماهير وتحليل الأنا وما وراء مبدأ اللذة**، اللذان كانا بمثابة علامة على تغيُّر في الاتجاه، لم تعد وصمة «الخروج على السنّة التحليلية» تثقل بوطأتها على دراسة الأنا، فصارت الأبحاث المتعلقة بهيئات الأنا أو أركانه تحظى باهتمام كبير. وهاكم كيف نستطيع تحديد المنهاج الراهن للتحليل النفسي الذي لم يعد قاصراً بكل تأكيد على علم نفس الأعماق وحده. فنحن نقول بصفة عامة إن هدف التحليل تحصيل أعمق معرفة ممكنة بالهيئات الثلاث[1] التي من مجموعها تتألف، في اعتقادنا، الشخصية النفسية، ودراسة علائقها المتبادلة، وكذلك صلاتها بالعالم الخارجي. وهذا يوجب علينا أن نستقصي وظائف الأنا ومضامينه وامتداداته، وكذلك تبعيته إزاء العالم الخارجي والهذا والأنا الأعلى. وأما فيما يتصل بالهذا، فسيكون لزاماً علينا أن نصف مضامينه، أي الدوافع الغريزية، وأن نتتبع تحولاتها.

الهذا والأنا والأنا الأعلى في إدراك الذات

ما من أحد يجهل أن هذه الهيئات لا تنفتح للملاحظة بدرجة متماثلة. فلدراسة الهذا، الذي كان يُسمى فيما مضى بالنسق اللاشعوري (**لشع**)، لا يسعنا أن نعتمد إلا على ما يدلف من فسائله أو مشتقاته إلى النسقين القبشعوري (**قشع**) والشعوري (**شع**)[2]. وأما ما دامت تسود في الهذا حالة من الهدوء

١ ـ أي الأنا والهذا والأنا الأعلى. «م».

٢ ـ تلك هي الاصطلاحات المختصرة التي كان اعتمدها فرويد عام ١٩١٥ في كتابه **ما بعد علم النفس**. «م».



والإشباع، فلا تحاول من ثم أي حفزة غريزية ساعية وراء اللذة أن تبزغ في الأنا مستحدثةً فيه مشاعر توتر وكدر، فلن تتاح لنا أي إمكانية لمعرفة ما يجري في الهذا. فالهذا ليس منفتحاً، من الناحية النظرية على الأقل، للملاحظة في كل آن وحين.

ومن نافل القول أن الأمر يختلف كل الاختلاف بالنسبة إلى الهيئة المسماة بالأنا الأعلى. فمضامين الأنا الأعلى هي في معظمها شعورية، ويمكن بالتالي أن تقع مباشرة تحت الإدراك النفسي الداخلي. غير أنه يعصى علينا أن نتصور الأنا الأعلى إذا ما ساد الوفاق والوئام في العلاقات بين الأنا الأعلى والأنا. وعندئذ نقول إن الأنا والأنا الأعلى متطابقان، أي أن الأنا الأعلى لا يكون قابلاً في مثل تلك الأوقات للإدراك على حدة، لا من قبل الشخص نفسه ولا من قبل المراقب الخارجي. فالأنا الأعلى لا يغدو قابلاً للوقوع تحت الإدراك إلا متى ما أبدى عداوة تجاه الأنا أو اتخذ منه موقفاً نقدياً، وعلى سبيل المثال حينما يبزغ في الأنا شعور بالذنب من جراء هذا النقد.

الأنا بوصفه هو الملاحظ

هذا كله يتأدى بنا إلى الاستنتاج بأن الأنا هو حقاً المضمار الذي ينبغي أن ينصبّ عليه اهتمامنا وأنه يؤلف، إذا جاز القول، الوسط الذي من خلاله نحاول أن نكوّن تصوراً عن الهيئتين الأخريين.

حينما يقيم الأنا مع الهذا علاقات حسن جوار، فإنه يضطلع إزاءه، بشكل يدعو إلى الإعجاب، بدور الملاحظ. فالحفزات الغريزية، التي لا ينقطع سيلها عن التدفق من الهذا، تجاهد لتدلف إلى الأنا؛ وهناك تجد منفذاً لها إلى الجهاز الحركي، فيمكنها من البلوغ إلى الإشباع. وفي الحالات المؤاتية، لا يضيق الأنا ذرعاً بالدخيل، بل يأذن له بأن يتصرف بقواه وطاقاته على هواه، ويقنع بمحض دور إدراكي؛ فهو يستشعر ضغط الحفزة الغريزية، وتصاعد التوتر المترافق بالإحساس المكدِّر، وأخيراً نهاية التوتر وانفراجه لحظة الإشباع. وحينما نلاحظ هذه السيرورة بكاملها تتكون لدينا صورة واضحة ودقيقة عن الحفزة الغريزية



المعنية، وكذلك عن شحنتها من الليبيدو، وعن هدفها. أما إذا انسجم الأنا مع الحفزة الغريزية فلن يكون أمامه من سبيل للاندراج في هذه اللوحة.

من سوء الحظ أن انتقال الحفزات الغريزية من هيئة إلى أخرى يستتبع احتمال نشوب ضروب شتى من الصراع، ويعيق من جراء ذلك بالتحديد ملاحظة الهذا. فلزام على حفزات الهذا، كيما تشقّ طريقها إلى الإشباع، أن تجتاز مناطق الأنا حيث تجد نفسها في جو غريب. وبالفعل، إن الهيمنة في الهذا هي لما يسمى بـ«السيرورة الأولية»؛ فليس فيه من تركيب يربط بين التمثلات؛ وتكون فيه الانفعالات متنقلة ودائمة الحراك؛ والمتناقضات، بدلاً من أن يربك بعضها بعضاً، تتطابق فيه أحياناً، فتحدث تكثيفات. والمبدأ الذي يحكم بلا منازع هنا السيرورات قاطبة هو مبدأ اللذة المطلوب تحصيلها. أما في الأنا فإن تداعيات الأفكار تخضع جميعها على العكس للقواعد الصارمة لما نسميه بـ «السيرورة الثانوية». وحتى الحفزات الغريزية لا يعود في مستطاعها فيه أن تنهد، بلا قيد أو شرط، إلى الفوز باللذة؛ فهي تُكره على أن تحسب حساباً لمتطلبات الواقع، وأكثر من ذلك، أن تتقيد بقوانين الأعراف والأخلاق. وإنما عن الأنا الأعلى تصدر هذه القوانين التي تنزع إلى ضبط سلوك الأنا. وعلى هذا النحو تجازف الحفزات الغريزية بأن تُقابل بالإعراض من قبل الهيئتين الأخريين اللتين هما في جوهرهما غريبتان عنها، وتعرّض نفسها للانتقاد والنبذ، وقد يتعيَّن عليها أيضاً أن تكابد من ضروب شتى من التعديل والتحوير. وعلى هذا النحو تؤذن علاقات حسن الجوار بالزوال. فالدوافع الغريزية، بما عرف عنها من عناد وحيوية، تستمر في نشدان أهدافها، وتشرع، بأمل مباغتة الأنا والسيطرة عليه، بشن غارات عدائية في داخل أرضه، بينما يجنح الأنا بدوره إلى الارتياب والحذر، وقد يشنّ هجوماً مضاداً ويتوغل في أرض الهذا. فهو يتطلع إلى أن يشلّ الدوافع الغريزية بصورة نهائية، متوسلاً إلى ذلك إجراءات دفاعية من شأنها تأمين حمايته.

إن لوحة جميع هذه الظاهرات التي ينقلها إلينا الأنا بفضل قدراته على الملاحظة هي أكثر غموضاً من ذلك بكثير، ولكنها في الوقت أعظم بكثير في فائدتها. فهي تتيح لنا أن نرى هيئتين نفسيتين وهما قيد العمل في آن معاً. وما



نشاهده عندئذ ليس مجرد دافع غريزي غير محوَّر وغير محرَّف من دوافع الهذا الغريزية، وإنما دافع غريزي أصابه ما أصابه من التعديل والتحوير من جراء التدابير الدفاعية التي اتخذها الأنا. وعندئذ يضطر المحلِل النفسي المراقب إلى تفكيك الصورة التي تعرض له ـ والتي تمثل في الواقع ضرباً من تسوية بين هيئات منفصلة ـ إلى عناصرها التكوينية: الهذا، والأنا، وربما الأنا الأعلى.

اندفاعات الهذا واندفاعات الأنا

على أن ما يستلفت الانتباه في ذلك كله أن الاندفاعات من كلا الاتجاهين مختلفة في قيمتها من منظور الملاحِظ. فجميع أفعال الأنا الدفاعية ضد الهذا تتم بلا ضجة، وبصورة غير منظورة. وسيكون لزاماً علينا أن نقنع بإعادة بنائها استرجاعياً، ولن يقيَّض لنا أبداً أن نلاحظها ساعة حدوثها. ذلك ما يحدث، مثلاً، في حالة الكبت الناجح. فالأنا يجهل جهلاً مطبقاً بهذا الكبت ولا يفطن إليه إلا في وقت لاحق، حينما يتضح له أنه يفتقد شيئاً ما. ولنوضح ما نقول: فنحن عندما نحاول أن نصدر حكماً موضوعياً على أحد المحلَّلين نلاحظ أن بعض دوافع الهذا الغريزية التي كنا نتوقع ظهورها في الأنا، في سياق سعيها إلى الإشباع، غائبة. فإذا لم تعاود انبجاسها لم يكن أمامنا مناص من الافتراض بأن المنفذ إلى الأنا قد سُدَّ عليها بصورة دائمة، بمعنى أنها كبتت. على أنه لا شيء من هذا كله ينيرنا حقاً بصدد سيرورة الكبت بحدّ ذاتها.

نستطيع أن نقول الشيء ذاته عن التشكيل الارتجاعي الناجح، الذي هو واحد من أهم التدابير الدفاعية التي يلجأ إليها الأنا بصورة دائمة في مواجهة الهذا. وأغلب ما يكون ظهور هذه التشكيلات الارتجاعية في أثناء نمو الطفل، وبصورة لا تخلو من فجاجة. وليس من المحقق على الدوام أن يكون كل انتباه الأنا قد اتجه قبلئذ صوب الحفزة الغريزية المضادة التي سدّ مسدَّها ذلك التشكيل الارتجاعي. فالأنا يبقى بصفة عامة جاهلاً بانتباذ هذه الحفزة، وكذلك بمجمل الصراع الذي تأدى إلى قيام وضعية جديدة. ولقد كان من الممكن أن ينساق الملاحظون من المحللين النفسيين بسهولة إلى اعتبار هذه الوضعية الجديدة تطوراً عفوياً للأنا لولا



أن بعض التظاهرات التي تحمل مسحة وسواسية سافرة تكشف عن طبيعتها الارتجاعية وتميط اللثام عن الصراع القديم الذي تخفيه وراءها. ومهما يكن من أمر، فما من شيء، في ملاحظة الإجراءات الدفاعية، يبيح للمحلِّل بعد أن يتكهن بطبيعة الصراع الذي تأدى إلى اعتمادها.

وهنا نلاحظ أن جميع المعارف التي تحصلت لنا إنما أمدتنا بها دراسة الاندفاعات الآتية من اتجاه معاكس، أي اندفاعات الهذا باتجاه الأنا. ولئن بدا لنا الكبت الناجح يلفّه الغموض إلى هذا الحدّ، فإن الحركة بالاتجاه المضاد، أي عودة المكبوت على نحو ما يمكن لنا أن نلاحظه في الأعصبة، تبدو لنا بالمقابل واضحة كل الوضوح.

فهنا نستطيع أن نقتصّ أثر الصراع الذي نشب بين الحفزة الغريزية وبين دفاع الأنا. كذلك إن تفكُّك التشكيلات الارتجاعية هو ما يتيح لنا خير سبيل إلى دراسة الكيفية التي تولدت بها هذه التشكيلات. فمن جراء اندفاعة الهذا يتعزز التوظيف الليبيدوي الذي كان حجبه التشكيل الارتجاعي. وهذا ما يتيح للحفزة الغريزية أن تشقّ طريقاً لها إلى الشعور. ولفترة من الزمن يغدو كل من الدافع الغريزي والتشكيل الارتجاعي في آن معاً قابلاً للوقوع تحت الإدراك في الأنا. بيد أن وظيفة أخرى من وظائف الأنا ـ ونعني ميله إلى التركيب ـ تجعل هذا الوضع، المؤاتي جداً للملاحظة التحليلية، لا يدوم إلا هنيهة من الزمن. فسرعان ما ينشب صراع جديد بين فسائل الهذا ونشاط الأنا، وهو نزاع من المحتم أن يتمخض إما عن انتصار أحد الطرفين المعنيين وإما عن التوصل إلى تسوية بينهما. فإن كان الأنا هو المنتصر بفضل تعزيز توظيفه، توقف هجوم الهذا وقامت من جديد حالة من السلام النفسي غير مؤاتية على الإطلاق للوقوع تحت الملاحظة.



الفصل الثاني

تطبيق تقنية التحليل النفسي

في دراسة الهيئات النفسية

درسنا في الفصل السابق ما الشروط التي يمكن بموجبها للتحليل النفسي أن يُخضع لملاحظته الظاهرات النفسية. وفي الصفحات التي ستلي نزمع أن نوضح كيف تسنى لتقنية التحليل النفسي أن تتلاءم، في مسار تطورها، مع هذه الشروط.

التقنية التنويمية في مرحلة ما قبل التحليل النفسي

بقي دور الأنا مغفلاً إغفالاً تاماً في التقنية التنويمية التي كانت تُستخدم في الطور القبتحليلي. فقد كان هدف الطبيب أن يتعرف إلى مضامين اللاشعور وحده، وما كان يرى في الأنا إلا حجر عثرة. وكان من المعروف منذ ذلك الوقت أن التنويم يسمح بإلغاء أنا المريض أو على أية حال بالسيطرة عليه؛ لكن التقنية التي قدَّم كتاب **دراسات في الهستيريا**[1] وصفاً بها كانت تتضمن تجديداً، وهو أن الطبيب يستفيد من إقصاء أنا المريض ليتمكن من دراسة لاشعوره ـ أي ما يعرف اليوم بالهذا. والهدف المطلوب بلوغه هو كشف هذا اللاشعور. وبما أن الأنا يمثِّل عائقاً، فمن الواجب تنحيته مؤقتاً عن طريق التنويم. ويتولى الطبيب فتح الطريق إلى الأنا أمام تلك الشذرة من اللاشعور التي يتم التقاطها في أثناء النوام. ويفترض بهذه التوعية أن تتأدى إلى إزالة العرَض. ولكن الأنا نفسه لا يضطلع بأي دور في هذه السيرورة العلاجية. فهو

١ ـ هو الكتاب الذي وضعه فرويد مع يوجين بلولر سنة ١٨٩٥، وكان بمثابة تدشين لتقنية التحليل النفسي. «م».



لا يتسامح مع الدخيل إلا بقدر ما يبقى واقعاً تحت تأثير الطبيب الذي تولى تنويمه. ثم لا يلبث بعد ذلك أن يتمرد ويشنّ، ضد شذرة الهذا التي يراد فرضها عليه، كفاحاً جديداً، فتكون النتيجة أن يتبدد هباء النجاح العلاجي الذي ما أمكن الفوز به إلا بلأي ومشقة. وعلى هذا النحو كان أعظم انتصار أحرزته التقنية التنويمية ـ وأعني تنحية الأنا في أثناء عملية البحث والتقصي ـ يضر بالنجاح النهائي ولا يتمخض إلا عن خيبة.

التداعي الحرّ

حتى في التداعي الحرّ، الذي لم يلبث أن حلَّ محلّ التنويم كوسيلة للتنقيب والتقصي، بقي دور الأنا في أول الأمر سالباً. صحيح أنه ما عاد ينحّى بالقوة، وأنه صار يُكتفى بحثّه على استبعاد نفسه بنفسه وعلى الامتناع عن توجيه أي نقد للتداعيات وعلى التغاضي عن الحاجة المعتادة إلى الروابط المنطقية. وكان هذا معناه في الواقع أن الأنا يدعى إلى لزوم الصمت، وأن الهذا هو وحده الذي يؤذن له بالكلام والذي يجزل له الوعد بأن فسائله ومشتقاته متى ما وصلت إلى الشعور فلن تصطدم فيه بالعوائق المعتادة. ولكن هذه الفسائل والمشتقات ما كانت توعَد بالمقابل بإيصالها، متى ما بزغت في الشعور، إلى أي هدف غريزي. فرخصة المرور لا تضمن لها سوى الترجمة إلى تمثلات لفظية، وليس السيطرة على الجهاز الحركي، التي هي الهدف الحقيقي لاندفاعها نحو الشعور. فالجهاز الحركي يكون مشلولاً سلفاً بفعل القواعد الصارمة للتقنية التحليلية. وهذه اللعبة المزدوجة التي يلعبها المحلّل مع الحفزات الغريزية، إذ يدعوها إلى الإفصاح عن نفسها وإلى حجب الإشباع عنها في آن معاً، كانت تستتبع ثانوياً انتصاب واحدة من العقبات العديدة المباطنة للتقنية التحليلية النفسية.

إن كثرة من المحللين النفسيين المبتدئين لا يزالون يعتقدون أن في مستطاعهم أن ينجحوا في حمل مرضاهم على التعبير دوماً، بلا حرج وبلا عائق، عن أفكارهم وخواطرهم كلها، أي أن يخضَعوا خضوعاً تاماً مبرماً للقاعدة



الأساسية للتحليل[٢]. ولكن حتى على فرض أن هذا المثل الأعلى تحقق فلن يمثل مع ذلك تقدماً فعلياً ولن يزيد على أن يكرر، في واقع الأمر، الموقف البائد الذي كان يتمّ اصطناعه بالتنويم، وذلك بقسر انتباه الطبيب على التركيز على الهذا وحده. ومن حسن حظ التحليل أن مثل هذه الطاعة من جانب المريض مستحيلة عملياً، والقاعدة الأساسية للتحليل لا يمكن التقيّد بها إلا جزئياً. فالأنا يلزم الصمت لفترة من الوقت، فتستخدم فسائل الهذا هذه الوقفة لتتسلل إلى الشعور، فيسارع المحلِّل النفسي عندئذ إلى التعرف إلى تظاهراتها. وبعدئذ يعود الأنا إلى التحرك، فيعزف عن موقف الانقياد السلبي الذي يراد فرضه عليه ويستخدم واحداً من إجراءاته الدفاعية المعتادة ليزجّ بنفسه في مجرى التداعيات بقصد الإعاقة. وتلك هي اللحظة التي ينتهك فيها المريض القاعدة التحليلية الأساسية، فنقول نحن إنه يبدي «مقاومات»، مما يعني أن اندفاعة الهذا نحو الأنا تصطدم بهجوم مضاد بالاتجاه المعاكس؛ لكن انتباه الملاحظ يتحول في الوقت نفسه عن التداعيات إلى المقاومة، أي يشيح عن مضامين الهذا لينتقل إلى نشاط الأنا. وتتاح للمحلِّل الفرصة ليعاين مباشرة الإجراءات الدفاعية التي يلجأ إليها الأنا ضد الهذا وهي قيد العمل، علماً بأن هذه الإجراءات عصية بالإجمال على الملاحظة في غير هذه الحال؛ ومن ثم يتخذها المحلِّل موضوعاً لعمله وتقصيه. وعندئذ يلاحظ أن الموقف التحليلي تغيِّر بصورة مباغتة في وقت واحد مع تغيُّر الموضوع هذا. فمشتقات الهذا تنزع تلقائياً إلى الصعود إلى السطح، مما يسهِّل عمل الطبيب الذي تتلاقى جهوده وجهود المادة المطلوب تحليلها في اتجاه واحد. وليس له أن يتوقع أن يلاقي مثل هذا التوافق في الأهداف حينما يدرس أنشطة الأنا الدفاعية. وبالفعل، إن الشذرات اللاشعورية من الأنا لا تنزع أبداً إلى أن تصير شعورية، ولا فائدة لها في ذلك أصلاً. ولهذا، إن أي جزء من تحليل الأنا لا يمكن أن يكون باعثاً على الرضى بقدر تحليل الهذا. فالتحليل يدور ويلفّ، ولا يتوصل أبداً إلى وضع اليد على نشاط

٢ ـ هي القاعدة التي تملي على المريض قيد التحليل أن يصارح المحلِّل بكل ما يساوره من أفكار دونما مقاومة أو تقييد أو تحريف. «م».



الأنا مباشرة، ولا يجد مناصاً من الاكتفاء بإعادة بناء هذا النشاط بدءاً من تأثيره في تداعيات المريض. وإنما من هذا التأثير، أي من ضروب الحذف والقلب وتحوير المعنى، إلخ، التي تظهر في التداعيات، يستخلص المحلِّل طبيعة الدفاع الذي اعتمده الأنا في المواجهة. والمهمة الأولى التي تقع على عاتق الطبيب عندئذ أن يعرف ما نوع آلية الدفاع التي يواجهها. فإذا توصل إلى ذلك، كان لنا أن نقول إنه أنجز جزءاً من تحليل الأنا. ثم يتعيَّن عليه بعد ذلك أن يستنتج ما تمّ لهذا النسق الدفاعي إنجازه، أي أن يعثر على ما أخفاه الكبت وحجبه، فيجدد دمجه، ويعيد ما بدَّل موضعه إلى مكانه، ويربط من جديد ما كان عُزل وأُفرد. فإذا ما انتهى المحلِّل من إعادة ربط ما انفصم، تحوَّل بانتباهه من تحليل الأنا إلى تحليل الهذا مرة أخرى.

هكذا نرى أن من المهم ليس تقيُّد المريض المطلق بالقاعدة التحليلية الأساسية بقدر ما تعود الأهمية إلى المنازعات التي تنشأ عن الالتزام بتلك القاعدة. وهذا التأرجح للملاحظة بين الهذا والأنا، أي التوجه المزدوج لاهتمام المحلِّل نحو كلا وجهي الشخص قيد التحليل، هو على وجه التحديد ما نطلق عليه اسم التحليل النفسي من حيث هو تقنية متميِّزة عن تقنية التنويم الأحادية الجانب.

أما سائر طرائق التقنية التحليلية فيمكن تنظيمها بعد ذلك بلا قسر بصفتها طرائق تكميلية تبعاً لتركيز الملاحظة في هذا الاتجاه أو في ذاك.

تأويل الأحلام

يبقى الموقف هو هو سواء أعندما ندرس التداعيات الحرة أم عندما نتصدى لتأويل الأحلام. فالوضع النفسي للحالم لا يختلف إلا اختلافاً يسيراً للغاية عن وضع المريض في أثناء جلسات التحليل النفسي. فالمريض، عندما ينصاع للقاعدة الأساسية، يقلِّص عن طواعية نشاطات أناه؛ والحال أن هذا التقليص يحدث لدى النائم بصورة آلية تحت تأثير النوم. ووضعية المريض في أثناء جلسات التحليل، حيث يتمدد على أريكة، لا تترك له أية فرصة ليترجم رغائبه الغريزية إلى أفعال؛



وفي أثناء النوم أيضاً يكون نصف نشاط النائم معطّلاً. وأفاعيل الرقابة، أي تحويل الحلم الكامن إلى مضمون حلمي ظاهر، مع ما يستتبع ذلك من ضروب شتى محتومة من التحريف والتكثيف والنقل والقلب والحذف، تناظر التحريفات التي تطرأ على التداعيات من جراء تأثير المقاومة عليها. وعلى هذا يسهم تأويل الأحلام في دراسة الهذا بقدر ما يفلح في أن يخرِج إلى الضوء أفكار الحلم الكامنة (مضمون الهذا). وهو يعيننا أيضاً في دراسة هيئات الأنا وأنشطته الدفاعية من حيث أنه يتيح لنا أن نعيد بناء التدابير المتخذة من قبل الرقابة بدءاً من آثارها في أفكار الحلم.

تأويل الرموز

في دراستنا للهذا يمكن أن يقدم لنا معونة لا يُستهان بها فهمُنا لنتاج جانبي لتأويل الأحلام: أعني به الرموز الحلمية. فهذه الرموز حاضرة دوماً، وقيمها ثابتة، وهي بمثابة علاقات بين مضامين معيَّنة من الهذا وبين بعض التمثلات اللفظية أو الشيئية. وتتيح لنا معرفة هذه العلاقات أن نهتدي، بدءاً من التظاهرات الشعورية، إلى المادة اللاشعورية التي تحتجب وراءها، وهذا بدون أن نكون ملزمين ببذل مجهود أولي كبير لاستنتاج إجراءات الأنا الدفاعية. وعلى هذا النحو تمكّننا تقنية ترجمة الرموز من اختصار الطريق إلى فهم تلك السيرورات، أو فلنقل إنها تقفز بنا من طبقة الشعور العليا إلى أعمق طبقات اللاشعور، بدون أن نمرّ بجميع الطبقات الوسيطة لأنشطة الأنا القديمة التي يمكن أن تكون تأدت في وقت مضى إلى تحويل مضمون بعينه من الهذا إلى شكل بعينه خاص بالأنا. وإن لمعرفة اللغة الرمزية، متى ما كان بيت القصيد فهم الهذا، قيمة تعادل في الأهمية قيمة الصيغ الرياضية عندما يكون المطلوب حلّ بعض المعادلات النمطية. فالمرء يستخدم هذه الصيغ بصورة مفيدة بدون أن يشغل باله بالطرق التي تأدت إلى اكتشافها؛ وتتيح لنا هذه الصيغ أن نحل المعادلات بدون أن تتحصل لنا من جراء ذلك معرفة أعمق بالرياضيات. وعلى هذا المنوال عينه نستطيع، بفضل ترجمة الرموز، أن نميط اللثام عن مضامين



الهذا بدون أن يتوفر لنا بحكم ذلك فهم أفضل لنفسية الشخص الذي نقوم على تحليله.

الهفوات

إن الهفوات، وهي من طفحات الهذا الأخرى، تتيح لنا هي أيضاً في بعض الأحيان أن نلقي نظرة على اللاشعور. ونحن نعلم أن طفحات الهذا تلك ليست وقفاً على الموقف التحليلي. فمن الممكن أن تحدث في كل مرة يطرأ فيها وهن أو عطل على يقظة الأنا من جراء حادث من الحوادث، فتتعزز على نحو مباغت واحدة من الحفزات اللاشعورية (في ظروف معيَّنة أيضاً). هذه الهفوات، وعلى الأخص زلات اللسان والنسايات، يمكن أن تطرأ أيضاً بطبيعة الحال في أثناء المعالجة التحليلية، فتنير على هذا النحو، كما لو ببرق خاطف، ركناً من اللاشعور بقي لأمد طويل من الزمن مستعصياً ـ وهذا يحدث أحياناً ـ على التحليل. وكان المحللون، في بدايات التقنية التحليلية النفسية، ينتهزون مثل هذه السانحة ليثبتوا على نحو قاطع يكاد لا يقبل الدحض وجود اللاشعور لأولئك الذين ما كانوا يبدون ميلاً من مرضاهم للأخذ بوجهات نظر التحليل النفسي. وكان المحللون يغتبطون أيضاً لما تتيحه لهم تلك الأمثلة السهلة الفهم من فرص للتدليل على اشتغال بعض الآليات مثل النقل والتكثيف والحذف. لكن أهمية هذه العوارض الاتفاقية تتضاءل بصورة عامة عند مقارنتها بأهمية طفحات الهذا التي تُستحدث عن قصد لإعانة التحليل.

التحويل

يخلق بنا أن نقيم التمييز النظري عينه بين ملاحظة الهذا من جهة وملاحظة الأنا من الجهة الأخرى عندما نتكلم عن أثمن أداة ـ ربما ـ من أدوات التحليل، أقصد تأويل التحويل[٣]. فنحن نطلق اسم التحويل على جميع الحفزات التي

٣ ـ التحويل: إسقاط المريض قيد التحليل لمشاعره الإيجابية أو السلبية الموروثة من تاريخه الطفولي على شخص الطبيب الذي يحلّله. «م».



تعتمل في المريض من جراء علاقته بالمحلِّل. وهذه الحفزات لا تتخلق في أثناء التحليل، بل تنبثق عن علاقات موضوعانية[٤] قديمة، بل أثرية تماماً، وتنبعث تحت تأثير آلية التكرار في أثناء التحليل. وأن تكون هذه الحفزات مجرد تكرارات وليست منتجات جديدة، فهذا بالتحديد ما يخلع عليها قيمة لا تضاهى كمصدر للمعلومات بما تتيحه لنا من فرصة للتعرُّف إلى تجارب المريض وخبراته الوجدانية الماضية. ويلوح أنه في مقدورنا أن نميِّز أنماطاً مختلفة من تظاهرات التحويل تبعاً لدرجة تعقيدها:

أ ـ **تحويل الحفزات الليبيدوية** ـ هذا النمط الأول غاية في البساطة. فعلاقات المريض بمحلله تعكرها وتشوش عليها مشاعر حادة وعنيفة مثل الحب والكره والغيرة والقلق، وكلها مشاعر لا يبدو أن هناك ما يبررها من الأحداث الحاضرة، ولا يتوانى حتى المريض عن الثورة عليها. فحيال التظاهرات اللاإرادية لهذه العواطف يستشعر المريض خزياً ومذلة، وما إلى ذلك. بل قد يتفق أحياناً ألا نتوصل إلى انتزاع الإقرار الشعوري منه بها إلا تحت إكراه القاعدة التحليلية الأساسية. ويدل التقصي التحليلي أن هذه المشاعر هي عبارة عن طفحات للهذا وأنها تصدر عن تشكيلات وجدانية قديمة مثل عقدتي أوديب والخصاء. وظهورها يقبل التفسير وحتى التبرير متى ما فصلناها عن الموقف التحليلي وأرجعناها إلى تلك المواقف الطفلية المشحونة بالانفعالات التي عنها انبثقت. وهذه العودة إلى الوراء تعيننا على سدّ ثغرة ذاكرية في ماضي المريض وتزوِّدنا بعنصر معرفي جديد يتصل بحياته الغريزية والعاطفية في طور الطفولة. وفي غالب من الأحيان يقدِّم لنا المريض نفسه، في محاولتنا التأويلية هذه، مؤازرة متلهفة لأن الحفزة العاطفية المحوَّلة تفعل فيه فعل الجسم الغريب. والإرجاع إلى الماضي يحرر المريض من حفزة في الوقت الحاضر غريبة عن أناه ويمكنه على هذا

---

٤ ـ الموضوعاني OBJECTAL: نسبة إلى الموضوع. ولم نقل «موضوعي» خوف اللبس مع كلمة OBJECTIF. والعلاقة الموضوعانية هي العلاقة بالموضوع، أي بغير الذات، بشرط أن يكون مفهوماً أن «الموضوع» هو دائماً، أو في الكثرة الغالبة من الأحوال، إنسان وليس شيئاً. وهو بالإجمال موضوع الرغبة الجنسية. «م».



النحو من المضيّ في عملية التحليل النفسي. وتجدر بنا الإشارة إلى أن هذا النمط الأول من التحويل لا يفيد إلا في ملاحظة الهذا حصراً.

ب ـ **التحويل الدفاعي** ـ هذا النمط الثاني مختلف جداً. فآلية التكرار، التي يخضع لها المريض في أثناء تحليله، لا تعود تطال حفزات الهذا القديمة وحدها، بل كذلك، وبالكيفية ذاتها، التدابير الدفاعية القديمة ضد هذه الحفزات. وعلى هذا، لا يعود المريض يقنع بتحويل حفزات الهذا الطفلية وحدها في صورتها البدائية، تلك الحفزات التي تخضع لاحقاً، متى ما اجتازت عتبة الشعور، لرقابة الأنا الراشد. كلا، بل يقوم المريض أيضاً بتحويل حفزات الهذا بكل ما قد يكون لابسها من تحريفات منذ عهد الطفولة. وقد يتفق، في بعض الحالات القصوى، ألا تكون الحفزة الغريزية بذاتها هي ما يظهر في التحويل، وإنما فقط دفاع معيَّن ضد بعض التوجهات الموجبة أو السالبة لليبيدو. هذا ما يحدث، مثلاً، في حال اللواذ بالهرب إزاء خطر تثبيت حبِّي إيجابي في الجنسية المثلية الأنثوية الكامنة، أو كذلك، وكما بيَّن فلهلم رايخ[٥]، عندما ينتهي الأمر بمريض، كان فيما مضى عدوانياً تجاه أبيه، إلى تبني موقف خضوع ومازوخية موسوم بالسمة المؤنثة حياله. وأعتقد أنه من الظلم البالغ أن نتهم المريض بأنه يريد «تضليلنا» أو «السخرية» منا،

٥ ـ فلهلم رايخ: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٩٧ ـ ١٩٥٧). رباه والداه بعيداً عن كل التقاليد الدينية. عانى من صدمة نفسية قوية إذ حمّل نفسه مسؤولية انتحار أمه بعد أن كشف لأبيه علاقتها الغرامية مع أحد أساتذته. التقى فرويد في فيينا وانضوى تحت لواء حركة التحليل النفسي وصار بسرعة نائباً لمدير **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**. وأنشأ معهداً للتحليل النفسي المجاني للفقراء. وهاجر إلى برلين عام ١٩٣٠ وانتمى إلى الحزب الشيوعي الألماني، وجمع حوله محللين نفسيين من ذوي الميول اليسارية لتأسيس ما يشتهر باسم الماركسية الفرويدية. واختلف مع فرويد بصدد تأويله للعلاقة بين إيروس وثاناتوس، أي بين غريزة الحب وغريزة الموت، ورأى في هذه الأخيرة تبريراً تحليلياً نفسياً للمازوخية ولآلية التكرار. وبسبب أصوله اليهودية وعقيدته الماركسية اضطر إلى الفرار من ألمانيا النازية ، فأمر الغستابو بحرق جميع كتبه. وتنقَّل بين النمسا والدانمرك والسويد وإنكلترا ليستقرّ به المطاف عام ١٩٣٩ في الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن اعتماده على الطرائق الكهربائية والإلكترونية في المعالجة ألّبت عليه المحلّلين النفسيين، واتهموه بالهذيان البارانوئي والفصامي. وانتهى إلى الترويج لطريقة علاجية جديدة تتمثل بالمعالجة عن طريق الرعشة الجنسية. قضى آخر سنتين من حياته بالسجن بسبب إهانته المحكمة. من مؤلفاته: **الثورة الجنسية، وظيفة الرعشة الجنسية، المادية الجدلية والوعي الطبقي، ما الوعي الطبقي؟ علم النفس الجماهيري للفاشية**. «م».



أو يسعى إرادياً، بأية طريقة أخرى ممكنة، إلى خداعنا. ولن تكون النتيجة أكثر مدعاة للرضى إذا أصررنا على تذكير مريضنا بأنه مكره على التقيُّد بالقاعدة التحليلية الأساسية، أي إذا تشبثنا بفرض التزام الصدق عليه لنجبره على الكشف عن حفزات الهذا الخبيئة لديه خلف الدفاع المعلن عنه في التحويل. فالمريض يكون صادقاً في الأصل حينما يترجم عن حفزته وعاطفته بالطريقة الوحيدة التي لا تزال متاحة له، أعني بوساطة التدابير الدفاعية المحرَّفة. وأعتقد أنه لا يجوز للمحلِّل في مثل هذه الحال أن يسعى، بقفزه فوق جميع الأطوار الوسيطة التي تمرّ بها الانفعالات العاطفية في تحولها وتحورها، إلى محزرة الحفزة الغريزية البدائية المنتبذة بصورة مباشرة وبأي ثمن. وبالمثل، لا يجوز له أن يحاول إدخال تلك الحفزة، التي ضدها نصب الأنا دفاعاته، إلى شعور المريض غصباً. فأفضل طريقة هي أن يغيِّر بؤرة الانتباه في التحليل، فينتقل إلى دراسة الآلية الدفاعية النوعية بدلاً من دراسة الدافع الغريزي نفسه، أي، بعبارة أخرى، دراسة الأنا بدلاً من دراسة الهذا. فإذا نجحنا في اقتفاء الطريق الذي سلكته الدوافع الغريزية في تحولها وتحورها، كان ما يصيبه التحليل من كسب مضاعفاً. فالظاهرة التحويلية التي نتناولها تنقسم إلى قسمين يعودان كلاهما في أصولهما إلى الماضي: عنصر ليبيدوي أو عدواني تابع للهذا، وآلية دفاعية يمكن عزوها إلى الأنا. وفي الحالات الأغنى بالفائدة والأكثر تنويراً، تعود هذه الآلية إلى أنا المرحلة الطفلية التي رأت فيها النور أيضاً حفزة الهذا الغريزية. وفي مثل هذه الحال نحن لا نتوصل، على نحو ما يتسنى لنا أن نفعله في تأويل التحويل البسيط، إلى سدّ الثغرات الذاكرية لدى المريض فحسب، بل نتمكن أيضاً من الحصول على المعلومات القمينة بتكملة تاريخ تحول دوافعه الغريزية وسدّ ما في هذا التاريخ من ثغرات.

إن هذه المحاولات لتأويل النمط الثاني من تظاهرات التحويل، مهما تكن مثمرة، تبقى هي المسؤولة عن الصعوبات التقنية التي تقوم بين المحلِّل والمريض. وبالفعل لا يساور المريض شعور، في هذا الطراز من التحويل، بأن فيه جسماً غريباً. وليس في هذه الواقعة ما يدعو إلى الدهشة إذا أخذنا في اعتبارنا الدور الجسيم الذي يضطلع به الأنا في إنتاج هذه الاستجابات التحويلية، وربما أيضاً أنا



السنوات الأولى من الحياة. ولا يقتنع المريض إلا بصعوبة بالطابع التكراري لهذه الظاهرات. فالصورة التي تبزغ بها في شعوره تكون مؤتلفة ومتناغمة مع أناه. والتحريفات التي تقتضيها الرقابة تكون قد تمت في الماضي، ولا يرى الأنا الراشد من سبب يوجب عليه أن يعترض سبيل ظهورها في التداعيات الحرة. فالمريض، بلجوئه إلى التخريجات العقلانية، يغمض عينيه في كثرة من الأحيان عن بعض التفارقات بين العلة والمعلول، على الرغم من أن مثل هذه التفارقات ليس لها أن تغيب عن بصر أي ملاحظ، بل ليس لها إلا أن تظهِر للعيان أن التحويل لا يرتكز إلى أساس موضوعي. ولهذا السبب لا نستطيع، في هذا الطراز من الاستجابة التحويلية، أن نعتمد، كما في الحالة السابقة، على استعداد المريض للتعاون الطوعي. فما إن يمسّ التأويل العناصر المجهولة من الأنا وأنشطته القديمة، حتى ينتصب الأنا بكليته معارضاً للعمل التحليلي. وفي هذه الحال يواجهنا الموقف الذي يوصف في العادة، وإن بغير دقة، بأنه تحليل «الطبع».

إننا نقسم، من الناحية النظرية، المعلومات التي تمدنا بها تأويلات التحويل تلك إلى طائفتين: مجموعة مضامين الهذا، ومجموعة أنشطة الأنا، وكلتاهما يكون قد تمّ استياقهما إلى الشعور. ويمكن بالمثل تصنيف نتائج التأويل في أثناء التداعيات الحرة التي يمدّنا بها المريض إلى فئتين مماثلتين: فالتداعيات المفصح عنها بحرية تلقي لنا ضوءاً على الآليات الدفاعية المستخدمة من قبل الأنا. والفارق الوحيد أن تأويلات التحويل لا تطال سوى الماضي وقد تميط اللثام في بعض الأحيان وفي لحظة واحدة عن مراحلِ بكاملها من حياة المريض السالفة، في حين أن مضامين الهذا، التي يخرجها التداعي الحر إلى النور، لا ترتبط بأي فكرة محددة، كما أن عمليات الأنا الدفاعية، التي تتجلى في أثناء الجلسات في صورة مقاومات للتداعي، قد تكون تابعة لحياة المريض الراهنة.

ج ـ **التفعيل في التحويل** ـ ثمة شكل ثالث من التحويل يسهم بقسط فعال، وإن بكيفية مغايرة، في تعرفنا إلى المريض. ففي أثناء تأويل الأحلام، والتداعيات الحرة، وتأويلات المقاومات، والشكلين اللذين تقدم وصفهما من التحويل، لا يتاح لنا أن نلاحظ مرضانا إلا من خلال الموقف التحليلي، أي في حالة نفسية



داخلية مصطنعة. وفي هذه الحالة تكون القوة النسبية لكل هيئة قد تعدلت لصالح الهذا إما تحت تأثير النوم، وإما من جراء مراعاة القاعدة التحليلية الأساسية. ومن ثم تتبدى لنا عناصر الأنا مخفَّفة وموهنة القوة، سواء أعندما تضطلع بدور الرقيب في الأحلام، أم عندما تتخذ صورةَ مقاومةٍ للتداعي الحر. ويعسر علينا جداً في كثير من الأحيان أن نتصورها في حجمها وقوتها الفعليين. أفليس مما يؤخذ عموماً على المحللين النفسيين أنهم خبراء جيدون بلاشعور المريض، بينما قدرتهم على الحكم على أناه ضعيفة؟ وثمة حقيقة واقعة تبرر جزئياً هذا المأخذ: فنادراً ما تتاح للمحلل الفرص لملاحظة كلية أنا المريض وهو قيد العمل.

لكن قد يتفق أحياناً أن تتزايد شدة التحويل، فتدفع بالمريض إلى الخروج بين الفينة والأخرى على القواعد الصارمة للعلاج التحليلي، فيطفق يترجم العناصر الغريزية والعناصر الدفاعية على حدّ سواء من انفعالاته العاطفية المحولة إلى أفعال يومية. وذلك هو ما يسمى بـ «التفعيل»[٦] في التحويل، وهو ظاهرة تتخطى، إذا شئنا الدقة في القول، إطار التحليل، ومن شأنها أن تنوِّرنا إذ تجعل البنية النفسية الباطنة للمريض تتكشف لنا بصورة آلية وفي أبعادها الطبيعية. ومتى ما أفلحنا في تأويل هذا «التفعيل»، نبادر إلى تفكيك الأفعال التحويلية إلى عناصرها، وعندئذ نكتشف الكمية الفعلية للطاقة التي تقدِّمها، في لحظة بعينها، كل هيئة من الهيئات الثلاث. وخلافاً لما نلحظه بصدد التداعيات الحرة، يتيح لنا هذا الموقف أن نقيِّم الكمية النسبية والمطلقة للطاقة التي تسهم بها كل هيئة.

إن تأويل «التفعيل»، وإن كان يزوِّدنا على هذا النحو بكشوف ثمينة، لا يتمخض مع ذلك في العادة عن نتيجة علاجية ذات شأن. فاستياق ما كان لاشعورياً إلى مجال الشعور، وتأثير المعالجة على العلاقات المتبادلة بين الهذا والأنا والأنا الأعلى، يتوقفان كلاهما على نحو واضح للعيان على الموقف التحليلي

٦ ـ التفعيل: بالألمانية AGIEREN وبالإنكليزية ACTING OUT، هو أن يبادر المريض خارج نطاق التحليل إلى العمل بدل التذكر، بمعنى أن يعبِّر عن رغباته وانفعالاته المكبوتة تعبيراً عملياً، فعلياً، وليس لفظياً فحسب. «م».



الذي يُستحدث بطريقة مصطنعة والذي يشابه الموقف التنويمي من حيث أن نشاط هيئات الأنا يكون أيضاً مقلَّصاً. فما دام الأنا يواصل اشتغاله بملء الحرية، وما دام ينضوي مع الهذا تحت لواء واحد فيثابر ببساطة على تنفيذ أوامر هذا الأخير، فلن تتاح إلا فرصة ضئيلة لعمليات الإزاحة والنقل النفسية الداخلية لكي تتمّ، ولن يستطيع الخارج أن يمارس تأثيراً إلا بصعوبة بالغة. ولهذا السبب يتجشم المحلِّل في مداورة هذا الشكل الثالث من التحويل، الذي أطلقنا عليه اسم «التفعيل»، مشقة أكبر من تلك التي يتجشمها في مداورة أساليب الدفاع المختلفة الأخرى. ومن المفهوم في مثل هذه الحال أن يسعى إلى تضييق الخناق ما أمكن على «التفعيل» بالاستعانة بالتـأويلات التحليلية وبالتحظيرات المجاوزة لإطار التحليل.

العلاقة بين تحليل الهذا وتحليل الأنا

لئن وصفت في تفصيل وتدقيق هذا التقسيم الثلاثي لتظاهرات التحويل، وأعني: تحويل النوازع الليبيدوية، وتحويل المسالك الدفاعية، و«التفعيل» في التحويل، فذلك لأبيِّن أن صعوبات التحليل التقنية تكون أوهى شأناً من منظور نسبي حيثما كان بيت القصيد استياق مشتقّات الهذا إلى مجال الشعور. وبالمقابل، تصل هذه الصعوبات إلى أوجها متى ما اضطر المحلِّل إلى التصدي لعناصر الأنا اللاشعورية. بعبارة أخرى، إن التقنية التحليلية لا يمكن أن تحمَّل مسؤولية هذا الأمر. فهي قادرة على أن تستاق إلى مجال الشعور العنصر اللاشعوري من الأنا كما من الهذا والأنا الأعلى. بيد أننا، نحن المحللين، ما زلنا أقلَّ ألفة بصعوبات تحليل الأنا منا بصعوبات تحليل الهذا. وقد تعدلت آراؤنا النظرية بصدد الأنا الذي ما عاد مفهومه يتداخل في نظرنا مع مفهوم النسق الإدراكي ـ الشعوري. وبالفعل، اتضح لنا أن شذرات ذات شأن من الأنا يمكن لها أن تبقى هي أيضاً لاشعورية، وعلى التقنية التحليلية النفسية يكون اعتمادنا في إماطة اللثام عنها واستياقها إلى مجال الشعور. وينجم عن ذلك أن تحليل الأنا اكتسب في أنظارنا قيمة أكبر بكثير. فكل ما يستاقه الأنا إلى التحليل يمثِّل مادة



تضاهي في الأهمية أي فسيلة من فسائل الهذا. على أنه لا بدّ لنا مع ذلك من الإقرار بأن ما يأتي من الأنا يمثّل أيضاً المقاومة بحصر المعنى، أي تلك القوة التي تعارض تظاهر مضامين الهذا وتكشفها للعيان وتعاكس على هذا النحو العملية التحليلية النفسية. لكن مهما تكن المقاومة التي يواجهنا بها الأنا، فإننا نظل متمسكين بحبل الأمل في التوصل إلى تحليله بمثل الثقة التي نحلل بها الهذا.

محاذير التقنية الأحادية الجانب

من كل ما تقدم قوله يتبيَّن لنا أننا عندما نركِّز اهتمامنا على التداعيات الحرة، وأفكار الحلم الكامنة، وترجمة الرموز، ومضامين التحويل، سواء أكان استيهامياً أم تفعيلياً، فإنما نتقدم في دراسة الهذا، ولكن على نحو أحادي الجانب. وعلى هذا النحو الأحادي الجانب أيضاً تعيننا دراسة المقاومات، وعمل رقابة الأحلام، ومختلف الأساليب الدفاعية ضد الحفزات الغريزية والأخاييل، على معرفة أنشطة الأنا والأنا الأعلى المجهولة. وإذا صحّ أن مزيجاً بمقادير متساوية من كلا النوعين من البحث هو وحده الذي يتيح لنا أن نكوِّن فكرة متكاملة عن الحالة الداخلية للمريض المحلَّل، فلا بدّ لنا من التسليم أيضاً بأن إيثارنا إذا ما ذهب إلى طريقة بعينها من طرائق التحليل، على حساب كل ما عداها، فلن تتحصل لنا إلا صورة محرَّفة مشوَّهة، أو على أية حال ناقصة، عن الشخصية النفسية.

فالتقنية التي لا تعتمد، مثلاً، إلا على ترجمة الرموز حصراً قد لا تتأدى أيضاً إلا إلى الكشف عن مشتقات الهذا حصراً. ومن يلجأ إلى هذه التقنية قد يستسلم في سهولة لإغراء إهمال عناصر الأنا اللاشعورية، أو على أية حال الاستهانة بشأنها، وهي العناصر التي لا يمكن استياقها إلى مجال الشعور إلا بالاعتماد على طرائق تحليلية أخرى. وقد يحتجّ بعضهم، في محاولة لتبرير مثل هذه التقنية، بأن من مزاياها أنها تغنينا على وجه التحديد عن الحاجة إلى الالتفاف من حول الأنا إذ تتيح لنا أن نبلغ مباشرة إلى الحياة الغريزية المكبوتة. ولكن النتائج لن تأتي في هذه الحال إلا ناقصة. فوحده تحليل عمليات الأنا الدفاعية اللاشعورية يتيح لنا أن نعيد بناء التحولات والتحورات التي طرأت على الدوافع الغريزية. وصحيح أننا



إذا ما ضربنا صفحاً عن هذا النوع من التحليل نتوصل إلى تحصيل معلومات جمة عن مضمون الرغبات الغريزية والأخاييل المكبوتة، ولكننا سنبقى في هذه الحال على معرفة واهنة، بله على جهل مطبق بالتحورات والتقلبات التي طرأت على هذه الرغبات والتخييلات، وبالكيفية التي يتم إدماجها بها في بنية الشخصية.

كذلك، إن التقنية التي تأخذ باتجاه معاكس تماماً للتقنية السابقة، ولا توسع مكان الصدارة إلا لتحليل المقاومات، ستبقى موسومة هي الأخرى بميسم النقص، وإن بصورة مغايرة تماماً. فلسوف تتحصل لنا في هذه الحال صورة كاملة عن بنية أنا المحلَّلين، ولكن تحليل الهذا عندهم سيبقى سطحياً وبعيداً عن الكمال.

والأمر بالمثل بالنسبة إلى تقنية لا تستخدم في إسراف سوى التحويل. فصحيح أن المرضى، الذين يكون التحويل عندهم بالغ القوة ولا تزيده هذه التقنية إلا شدة، يقدِّمون للتحليل مادة وفيرة نابعة من أعمق طبقات الهذا عندهم. ولكنهم، إذ يفعلون ذلك، يتخطون حدود الموقف التحليلي. فأناهم لا يحافظ على مسلكِ ملاحظٍ ومراقبٍ معتدل، موضوعي، ومتجرد. بل يؤخذ في الدوامة ويُغمر ويُجرّ إلى الفعل. وحتى لو سلك، تحت تأثير آلية التكرار، مسلك أنا طفلي، فإن ذلك لا يغيِّر شيئاً في واقع كونه «يفعِّل» بدل أن يحلِّل. فماذا يحدث عندئذ؟ الحق أن مثل هذه التقنية، التي كنا عقدنا عليها الآمال الكبار، قد تنتهي بنا في خاتمة المطاف إلى جميع تلك الخيبات التي كانت تصوراتنا النظرية عن «التفعيل» قد أباحت لنا توقعها. وهكذا لا نكون قد ازددنا معرفة بمرضانا، ويكون مآل طرقنا في العلاج إلى فشل.

إن الطريقة التي اعتمدناها في تحليل الأطفال تقدِّم لنا أيضاً مثالاً جيداً على أخطار التقنية الأحادية الجانب. فحينما نضطر إلى العزوف عن التداعي الحرّ، وحينما لا نلجأ إلا ضمن أضيق الحدود إلى تأويل الرموز ولا نشرع بتأويل التحويل إلا في مرحلة متقدمة من المعالجة، فإن ثلاثة سبل هامة إلى معرفة أنشطة الأنا ومضامين الهذا تكون قد انسدّت أمامنا. فكيف السبيل إلى سدِّ هذه الثغرات؟ وكيف لنا أن نتخطى، رغماً عنها، الطبقات السطحية للحياة النفسية؟ ذلك هو السؤال الذي سأحاول الإجابة عنه في الفصل التالي.



الفصل الثالث

الدراسة التحليلية لأساليب الأنا في الدفاع

علاقة الأنا بطريقة التحليل

إن التـأملات النظرية المطوَّلة والمضنية التي بسطتها في الفصل السابق يمكن عملياً تلخيصها في بضع عبارات بسيطة. فمهمة المحلِّل أن يستاق إلى مجال الشعور ما هو لاشعوري أياً ما كانت الهيئة التي ينتمي إليها هذا الأخير، ومن واجبه أيضاً أن يولي العناصر اللاشعورية من الهيئات الثلاث اهتماماً موضوعياً متساوياً. بعبارة أخرى، عندما يبدأ المحلِّل عمله الاستكناهي، فإنه يتخذ موقعه على مسافة متساوية من كل من الهذا والأنا والأنا الأعلى.

إن ظروفاً شتى قد تشوِّه لسوء الحظ الموضوعية الواضحة لهذا الموقف. فعدم تحيُّز المحلِّل لا يجد ما يناظره. فالهيئات المختلفة لا تستجيب لمجهوده بكيفية واحدة. ونحن نعلم أن الدوافع الغريزية في الهذا ليس لديها استعداد لتبقى لاشعورية. بل لديها نزوع طبيعي ودائم إلى الدلوف إلى الشعور لتفوز فيه بإشباع، أو هي تحاول على أية حال أن تبعث إلى سطح الشعور ببعض من مشتقاتها. وكما أوضحت آنفاً، فإن العمل التحليلي يمضي في الاتجاه نفسه ويعزز هذا النزوع. فالمحلِّل هو مساعد ومعين ومحرر بالنسبة إلى عناصر الهذا المكبوتة.

لكن الأمور تختلف من منظور الأنا والأنا الأعلى. فبقدر ما تجاهد هيئات الأنا، بالاعتماد على طرائقها الخاصة، لكبح جماح دوافع الهذا الغريزية، يتبدى المحلِّل وكأنه معكِّر للصفو والوئام. فعمله التحليلي يلغي الكبوتات التي ما تمّ إنجازها إلا بجهد جهيد، ويهدم التسويات التي كان شكلها ينسجم تماماً مع الأنا، وإن يكن مفعولها باتولوجياً. فجهود المحلِّل في سبيل استياق ما هو



لاشعوري إلى الشعور تعاكس جهود الهيئات الأنوية للسيطرة على الحياة الغريزية. وإلى أن تتخذ الأمور مجرى مغايراً حال استبصار المريض بمرضه، فإن الهيئات الأنوية ترى في مقاصد المحلِّل خطراً عليها.

لهذا ينطوي موقف الأنا من الجهود التحليلية على ثلاثة جوانب، كما أسلفنا الإشارة في الفصل السابق. فحينما يمارس الأنا وظيفة الملاحظة الذاتية، التي تكلمت عنها آنفاً، يتحدث مع المحلِّل، ويضع تحت تصرفه قدراته، ويزوِّده، بفضل فسائل الهيئتين الأخريين التي تكون تسللت إلى أرضه، بصورة عن هاتين الهيئتين. ولكن الأنا يقف بالمقابل موقفاً معادياً من المحلِّل عندما يُظهِر، في أثناء ملاحظته لذاته، تحيّزه وسوء نيته، إذ إنه في الوقت الذي يسجِّل فيه بعض المعلومات وينقلها بأمانة يزيِّف معلومات غيرها وينتبذها ويحول بينها وبين الخروج إلى الضوء. وعلى هذا النحو يمضي في اتجاه معاكس للعمل التحليلي الذي يقتضي رؤية كل ما يمكن أن يبزغ بدون استثناء شيء منه. وأخيراً، يكون الأنا نفسه موضوعاً للتحليل بقدر ما يتواصل لاشعورياً النشاط الدفاعي الذي يمارسه بلا انقطاع ولا يغدو شعورياً إلا بجهد جهيد، مثله في ذلك، إلى حد كبير، مثل النشاط اللاشعوري لأية حفزة غريزية محظورة.

الدفاع ضد الدافع الغريزي والمقاومة

حاولت في الفصل السابق، تسهيلاً للدراسة التحليلية النفسية، أن أقيم تمييزاً نظرياً بين تحليل الهذا وتحليل الأنا، هذين التحليلين اللذين يبقيان مترابطين بوثيق العرى في الممارسة العملية. وما زادت هذه المحاولة على أن أيَّدت واقعة مقررة من قبل، وهي أن كل المواد النافعة لمعرفة الأنا في التحليل النفسي تنبجس، في أثناء المعالجة، في صورة مقاومة لتحليل الهذا. وهذه الواقعة هي من الوضوح إلى حدٍّ يكاد يغني عن كل شرح. ففي أثناء التحليل يغدو الأنا فعالاً حيثما سعى، عن طريق عمل مضاد، إلى كبح اندفاعة الهذا. ولكن بما أن هدف التحليل النفسي هو تأمين منفذ إلى اللاشعور للتمثلات الممثلة للدافع الغريزي المكبوت، أي على



وجه التعيين استثارة مثل تلك الاندفاعات، يترتب على ذلك أن الإجراءات الدفاعية المتخذة من قبل الأنا ضد بزوغ تلك التمثلات تتلبس بصورة آلية طابع مقاومة فعالة ضد التحليل. وما دام المحلِّل، علاوة على ذلك، يستخدم نفوذه الشخصي ليتدخل ويفرض احترام القاعدة التحليلية الأساسية التي تتيح لتلك التمثلات أن تنبجس في مجرى التداعيات الطليقة، فإن دفاع الأنا ضد الدافع الغريزي ينقلب إلى معارضة مباشرة للطبيب المحلِّل. والعدائية تجاه المحلِّل وتعزيز الإجراءات الدفاعية ضد انبجاس حفزات الهذا يتطابقان لا محالة. وعندما تُلغى، في لحظات بعينها من التحليل، التدابير الدفاعية وتتمكن التمثلات الممثِّلة للدافع الغريزي من الانبجاس بدون معوقات في صورة تداعيات حرة، لا تعود علاقات الأنا بالمحلِّل تعاني من التعكير من هذه الناحية.

من الجلي للعيان أن هذا النوع من المقاومة ليس هو وحده الممكن في التحليل النفسي. فإلى جانب المقاومات المسمّاة بمقاومات الأنا نعلم أنه توجد مقاومات تحويلية ذات بنيان مختلف، وكذلك بعض القوى المناوئة التي ترجع بأصلها إلى آلية التكرار والتي يعسر للغاية الظهور عليها. وعلى هذا، لا تنبع كل مقاومة بالضرورة من فعل دفاعي من جانب الأنا. ولكن لا يمكن لأي فعل دفاعي من جانب الأنا ضد الهذا أن يفصح عن نفسه، في أثناء التحليل، إلا في صورة مقاومة لجهود المحلِّل. ويوفِّر لنا تحليل مقاومات الأنا هذه فرصة طيبة لملاحظة نشاط الأنا الدفاعي اللاشعوري في كل شدته، ولاستياقه بالتالي إلى مجال الشعور.

الدفاع ضد الانفعالات الوجدانية

ليس فقط عندما تنشب خلافات بين الأنا والدافع الغريزي تسنح لنا الفرصة لنلاحظ بمزيد من التدقيق نشاط الأنا. فالأنا ليس في صراع فقط مع فسائل الهذا التي تحاول غزوه لتشق طريقاً لها إلى الشعور وإلى الإشباع. فهو يدافع عن نفسه بحيوية مماثلة ضد الانفعالات الوجدانية المرتبطة بتلك الدوافع الغريزية. فعندما ينتبذ المتطلبات الغريزية، فإنما على عاتقه تقع المهمة الأساسية، أي تدبر أمر نفسه



والخروج من المعمعة وسط الانفعالات الوجدانية: فالحب والصبابة والغيرة والإذلالات والأحزان والحداد، كلها تظاهرات تصاحب الرغبات الجنسية، بينما يصاحب الكره والغضب والحنق الحفزات العدوانية. وجميع هذه الانفعالات الوجدانية تخضع، حالما تتم تنحية المطلب الغريزي الذي ترتبط به، لضروب شتى من الإجراءات التي يتخذها الأنا للسيطرة عليها، أي يتحتم عليها أن تكابد من تحولات وتغيّرات معيَّنة. وفي كل مرة يتغير فيها انفعال وجداني بعينه، سواء أفي أثناء التحليل أم خارج نطاقه، فإن الأنا يكون هو الذي بادر إلى العمل، ومن ثم تسنح لنا الفرصة لدراسة عملياته. ونحن نعرف أن مصير كل انفعال وجداني مرتبط بمطلب غريزي لا يكون ببساطة مطابقاً لمصير الممثل الفكروي لهذا المطلب. لكن غنيٌّ عن البيان أن إمكانيات الدفاع المتاحة لأنا واحد بعينه تكون محدودة. ففي مراحل متباينة من العمر، وتبعاً للبنية النوعية للأنا الفردي، يقوم هذا الأخير باختيار هذه الوسيلة الدفاعية أو تلك: من كبت، أو نقل ، أو قلب، إلخ. وهذه الوسائل يكون في مستطاعه أن يستخدمها سواء أفي صراعه ضد الدوافع الغريزية أم في دفاعه ضد تحرر الانفعالات الوجدانية. ومتى ما تسنى لنا أن نعرف ما الطريقة التي يعتمدها المريض في الدفاع عن نفسه ضد انبجاس حفزاته الغريزية، أي ما نوع المقاومة الأنوية التي يلجأ إليها في العادة، صار في مقدورنا أن نتوقع الكيفية التي سيستجيب بها حيال انفعالاته الوجدانية غير المرغوب فيها. فعندما نلاحظ على سبيل المثال لدى مريض بعينه بعض الأشكال الخاصة والبارزة من التحولات لديه، من قبيل الغياب التام للانفعالات، والإنكار، إلخ، فلن يفجأنا أن نراه يعتمد هذه الطرائق عينها للدفاع عن نفسه ضد حفزاته الغريزية وتداعياته الحرة. فأناه هو دوماً أناه، وهو في كل صراع من صراعاته يثابر، بقدر أو بآخر من الثبات، على استخدام جميع الوسائل التي في متاحه في اتجاه واحد.

الظاهرات الدفاعية الدائمة

ثمة مجال آخر يتجلى في نشاط الأنا الدفاعي هو مجال الظاهرات التي



درسها فلهلم رايخ في كتابه **التحليل المتساوق للمقاومات**[1]. فبعض أوضاع الجسم، من قبيل التصلب والجمود، وبعض السمات الخاصة من قبيل الابتسامة المبتسرة، وبعض المسالك الهازئة أو المزدرية أو المتعجرفة، جميعها هي بمثابة مخلفات من ظاهرات دفاعية كانت عظيمة الفعالية في الماضي، لكنها انفكت في الزمن الحاضر عن مواقفها الابتدائية، أي عن صراعها ضد الدوافع الغريزية أو الانفعالات الوجدانية. ثم ما لبثت جميع هذه التظاهرات أن تحولت إلى سمات طبعية نهائية، أو صارت، بحسب تعبير رايخ، «دروعاً طبعية»[2]. وفي حال إفلاح التحليل في الاهتداء إلى أصلها التاريخي، نراها تستعيد حركيتها ولا تعود تسدّ علينا بثباتها وجمودها المنفذ إلى العمليات الدفاعية التي يكون الأنا منخرطاً فيها في تلك اللحظة انخراطاً فعالاً. وبما أن طرائق الدفاع هذه قد تلبست طابع الديمومة، فإننا لا نفلح في ربط ظهورها أو اختفائها بظهور المطالب الغريزية والانفعالات الوجدانية الداخلية واختفائها، ولا بطروء غوايات وانفعالات وجدانية قادمة من الخارج وزوالها. ولهذا يعسر تحليلها كل العسر. ولا يجوز لنا أن نتخذها موضوعاً رئيسياً للتحليل إلا عندما يتعذر علينا اكتشاف صراع ذي صفة راهنة بين الأنا والدافع الغريزي والانفعال الوجداني. ومن المحقق أيضاً أنه ليس ثمة ما يبرر قصْر تعبير «تحليل المقاومة» على دراسة هذه الظاهرات الخاصة وحدها: فهو يصدق أيضاً، وبالدرجة نفسها، على تحليل جميع المقاومات.

تكوين الأعراض

إن تحليل مقاومات الأنا وتدابيره الدفاعية ضد الدوافع الغريزية، ودراسة التحولات التي تطرأ على الانفعالات الوجدانية، يكشفان ويستاقان إلى الشعور،

١ - فلهلم رايخ KONSEQUENTE WIDERSTANDSANALYSE (**تحليل الطبع: التقنية والأسس برسم الطلبة والأطباء التحليليين النفسيين**)، فيينا، ١٩٣٥.

٢ - الدرع الطبعي (أو بالتأنيث الدرع الطبعية): مصطلح صاغه فلهلم رايخ، وهو يشير إلى جملة المواقف والمسالك الطبعية التي يتدرع بها الفرد في مواجهة الإثارات الانفعالية. وهو بمثابة رد فعل عصبي عضلي لتكيُّف الشخص المعني مع صلابة محيطه العاطفي، ووظيفته أن يحافظ على سلامة الشخص المعني في مواجهة دوافعه الغريزية الجنسية وما يعترضها من نواهٍ. «م».



في تدفق حي، أساليب دفاعية مشابهة لتلك التي نلاحظها في حال من الابتسار والقولبة في حالات « الدروع الطبعية الدائمة». ونحن نلتقي أيضاً، على مقاس أكبر، تلك الطرائق الدفاعية عينها في حال من الجمود والتحجر عندما نتصدى لدراسة الأعراض العصابية. فما الدور الذي يضطلع به الأنا إذاً في تكوين تلك التسويات التي نسميها بالأعراض؟ الحق أن الأنا يستخدم أسلوباً محدداً، لا يحول ولا يتبدل، في مدافعة هذا المطلب الغريزي الخاص أو ذاك. وهذا الأسلوب يتكرر استخدامه دوماً، وبالكيفية ذاتها، في كل مرة يعاود فيها الانبجاس مطلب من المطالب الغريزية في صورته المقولبة. ونحن نعرف[٣] أن بعض الأعصبة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بكيفيات محددة في الدفاع؛ ومن قبيل ذلك أن الهستيريا ترتبط بالكبت، والعصاب الوسواسي بالعزل والإلغاء ذي المفعول الرجعي. هذه الروابط الوثيقة بين العصاب وآلية الدفاع نلتقيها عينها في مضمار الأساليب الدفاعية ضد الانفعالات الوجدانية وفي أشكال المقاومة التي يتخذها الأنا. والكيفية التي يتصرف بها المريض في أثناء جلسة التحليل حيال تداعياته الحرة، والكيفية التي يتحكم بها بمطالبه الغريزية متى ما خُلّي بينه وبين نفسه، والكيفية التي يدافع بها عن نفسه ضد الانفعالات الوجدانية غير المرغوب فيها، تتيح لنا قبلياً أن نتكهن بطبيعة أعراضه. ومن جهة أخرى، إن دراسة تكوين الأعراض لدى مريض من المرضى تأذن لنا بأن نستنتج بَعْدياً بنية مقاوماته ودفاعاته ضد الدوافع الغريزية والانفعالات الوجدانية. وأكثر ما نلتقي هذه الموازاة بين تكوين العرَض وشكل المقاومة في مضمار الهستيريا والعصاب الوسواسي بوجه خاص. فإلى الكبت في المقام الأول يلجأ المريض الهستيري في تكوين أعراضه في مجرى كفاحه ضد الدوافع الغريزية: فهو يستبعد من الشعور التمثلات الممثّلة لحفزاته الجنسية. وشكل مقاومته للتداعي الحر هو من طبيعة مماثلة، إذ إن المريض يُنحّي بكل بساطة التداعيات القمينة بأن تستثير لدى الأنا موقفاً دفاعياً. فلا يعود يشعر من ثم إلا بخواء في شعوره ويلزم الصمت، أي أن سلسلة خواطره طرأ عليها انقطاع

٣ ـ انظر في هذا الصدد **الكفّ، العرَض، الحصر**، وكذلك الصفحة ٣٧١ من هذا الكتاب حيث سيرد الشاهد.



مماثل لذاك الذي حلَّ بسيرورته الغريزية في أثناء تكوين الأعراض. ونحن نعرف، من جهة أخرى، أن الأنا عند العصابي الوسواسي يتبنى، في تشكيل أعراضه، أسلوب الدفاع بطريق العزل. فهو يكتفي بأن يفصل الحفزات الغريزية عن سياقها، مع استبقائه إياها في الشعور. لهذا تتلبس المقاومة لدى العصابي الوسواسي بدورها شكلاً مبايناً. فهو لا يلزم الصمت حتى في حال المقاومة، بل يتكلم، وإنما بعد قطعه كل ترابط بين أفكاره؛ ويعزل، وهو يتكلم، تمثلاته عن انفعالاته الوجدانية، بحيث تتبدى تداعياته، على مقاس مصغَّر، عديمة المعنى تماماً كأعراضه العصابية العديمة المعنى على مقاس مكبَّر.

التقنية التحليلية والدفاع ضد الدوافع الغريزية

مريضة في مقتبل العمر جاءت تطلب التحليل من جراء حالة من قلق حاد تعكر عليها صفو حياتها ودراستها. وعلى الرغم من أنها ما ارتضت العلاج إلا صدوعاً منها بأمر أمها، فقد قصّت عليّ بطيبة خاطر ظروف حياتها الماضية والحاضرة. وقد بقي مسلكها تجاهي ودياً وصريحاً وهي تروي لي قصتها؛ لكنني لاحظت مع ذلك أنها شديدة الحرص على أن تتحاشى، في سردها، أية إشارة إلى عرَضها، ولم تأتِ بذكر نوبات القلق التي تنتابها في الفترات الفاصلة بين الجلسات. فإذا ما اتفق لي أن أظهرتُ إلحاحاً لإدخال عرَضها في التحليل أو أوَّلتُ قلقها الذي تشي به بعض معطيات تداعياتها، كان مسلك المريضة الودي يتبدل للحال. فكانت تنهال عليّ في كل مرة بوابل من الملاحظات الساخرة والتهكمات. وقد أخفقت إخفاقاً ذريعاً في محاولتي ربط مسلك المريضة هذا بموقفها من أمها. فعلاقاتها الشعورية واللاشعورية معاً بأمها كانت تعرض لناظريّ صورة مغايرة تماماً. وما كان لسخريتها ولتهكمها ولقوارصها المتجددة باستمرار إلا أن تثير حيرة المحلِّلة، بل أوجبت الامتناع عن متابعة العلاج لفترة من الزمن. بيد أن التقصي في التحليل، فيما بعد، أظهر أن الهزء والسخرية لا يمثّلان، بحصر المعنى، استجابة تحويلية، ولا يرتبطان على الإطلاق بالموقف التحليلي. فالمريضة تلجأ إلى هذه المناورة، الموجهة ضد ذاتها هي، في كل مرة توشك أن تبزغ فيها



في الوعي مشاعر حنان أو صبابة أو قلق. وكلما اشتد عليها وقع الانفعال الوجداني، عمدت الفتاة إلى المزيد من الحدة واللذع في هزئها من نفسها. ولم تجتذب المحلِّلة إلى نفسها إلا بصفة ثانوية هذه الاستجابات الدفاعية، وقد كان ذلك لأنها شجعت مشاعر القلق لدى المريضةعلى البزوغ في الشعور. وما كان لمعرفة مضمون القلق، حتى عندما كانت أقوال المريضة واعترافاتها الأخرى تسمح بتأويله تأويلاً صحيحاً، أن تتمخض عن نتيجة تذكر ما دامت كل محاولة للتقرب من انفعالها الوجداني لا تزيد إلا في شدة الدفاع من قبلها. وما أمكن للمحلِّلة أن تجعل مضمون القلق شعورياً إلا بعد أن أفلحت في أن تستاق إلى الشعور، وبالتالي أن تبطل مفعول أسلوب المريضة في المدافعة عن نفسها ضد الانفعالات الوجدانية عن طريق التحقير التهكمي، وهي سيرورة كانت تتمّ إلى ذلك الحين بصورة آلية في جميع صروف حياة المريضة. ومن وجهة النظر التاريخية كان هذا الأسلوب في الدفاع لدى المريضة بالهزء والتهكم يفسِّره تماهيها مع أبيها المتوفى الذي كان رغب في أن يعلِّم ابنته فن السيطرة على الذات والذي كان يسخر منها كلما أسلمت زمام نفسها لتظاهرات عاطفية. وعلى هذا، إن أسلوب الدفاع ضد الانفعال الوجداني يثبِّت هنا ذكرى الأب الذي كانت المريضة تكنّ له محبة غامرة. والتقنية التي تفرض نفسها في هذه الحال هي أن نحلِّل في المقام الأول دفاع المريضة ضد انفعالاتها الوجدانية، ليتسنى لنا من ثم أن ندرس مقاومتها في التحويل. وعندئذ فحسب يغدو ممكناً لنا أن نتصدى حقاً لتحليل قلقها وما قبل تاريخه.

إن هذه الموازاة بين دفاع المريض ضد دوافعه الغريزية وضد انفعالاته الوجدانية وبين تشكيل العرَض والمقاومة تتمخض من الناحية التقنية، وبخاصة في تحليل الأطفال، عن نتائج مهمة للغاية. فأكثر كما تفتقده تقنية التحليل الطفلي هي التداعيات الحرة. وبالفعل، أليست التداعيات الحرة هي التي تزوِّدنا، ما دامت تمثل الدوافع الغريزية، بأثمن المعلومات عن الهذا؟ على أنه توجد مع ذلك سبل أخرى للحصول على هذه المعلومات. فالأحلام، وأحلام اليقظة لدى الطفل، ونشاط مخيِّلته في اللعب، والرسوم، إلخ، تكشف لنا، على نحو أكثر شفافية



وأقرب متناولاً مما لدى الراشد، عن دوافع الهذا الغريزية، وتكاد تعوّض في التحليل عن بزوغ مشتقات الهذا كما يتمّ في التداعي الحر. ولكن بما أن القاعدة التحليلية الأساسية غير قابلة للتطبيق، فإن الصراع الذي يخاض غماره ضماناً للتقيد بهذه القاعدة ينتفي وجوده هو الآخر، علماً بأن هذا الصراع هو ما يميط لنا اللثام، في تحليل الراشدين، عن مقاومات الأنا، وبالتالي عن نشاط الأنا الدفاعي ضد مشتقات الدوافع الغريزية. وهكذا، إن التحليل الطفلي الذي يمدّنا بمعلومات جمة عن الهذا قد لا يكون قادراً على تزويدنا إلا بمعلومات هزيلة عن الأنا الطفلي.

إن الدراسة التحليلية لألعاب صغار الأطفال تعوّض أنجع تعويض، بحسب ما ترى المدرسة الإنكليزية[٤]، عن غياب التداعيات الحرة. فهذه المدرسة تضع علامة مساواة بين الخواطر التي يفصح عنها الراشدون وبين أنشطة الأطفال اللعبية، وتستفيد بكيفية مماثلة من هذه الأخيرة لأغراض التأويل. فتيار التداعيات الحرّ تناظره الألعاب الحرة، والوقفات وضروب الكفّ في هذه الألعاب تكافئ التقييدات والمعوّقات في التعبير الحر عن الخواطر. ويترتّب على ذلك إننا إذا ما حلّلنا اضطرابات في النشاط اللعبي فسنكتشف أنها تمثّل دفاعاً من جانب الأنا مماثلاً للمقاومة في مجرى التداعيات.

لكننا إذا كنا نتردد، لبواعث نظرية معيّنة، في اعتبار التداعي الحر والنشاط اللعبي متكافئين تمام التكافؤ، فنمسك، مثلاً، عن المضيّ في تأويل الرموز إلى آخر مداه، فلن يكون أمامنا محيص والحالة هذه عن اللجوء إلى طرائق جديدة في تحليل الأطفال مؤهلة لأن تزوّدنا بالمعلومات عن الأنا. ويلوح لي أن تحليل تحولات الانفعالات العاطفية لدى الطفل يمكن أن يسدّ هذه الثغرة. فحياة الطفل العاطفية أقل تعقيداً وأكثر شفافية من حياة الراشد العاطفية. ومن ثم يكون في مستطاعنا أن نلاحظ ما يمكن أن يستثير لديه، إما في أثناء التحليل وإما خارج نطاقه، تصريفاً للانفعالات العاطفية. فمن المحتم، مثلاً، أن ينتاب الطفل شعور

٤ ـ المقصود مدرسة ميلاني كلاين. «م».



بالغيرة وبالحزن متى ما فطن إلى أن طفلاً آخر يحاط بالعناية أكثر مما يحاط به هو. وإذا استجبنا لرغبة طالما داعب الأمل في تحقيقها، فلا بدّ أن يستشعر لذلك فرحاً. وإذا كان يتوقع أن يعاقَب، استبدّ به القلق والخوف. أما إذا كان يتأمل في لذة أو إذا وُعد بها، ثم تقرر إرجاؤها أو إلغاؤها، فإن نفسه تمتلئ خيبة ومرارة. ونحن نتوقع فعلاً أن يستجيب الطفل على هذا النحو السويّ لمثل هذه الوقائع والخبرات. على أن الملاحظة تدل على أن الأمور لا تجري على الدوام هذا المجرى. فمثلاً قد يبدي الطفل عدم مبالاة على حين كان يُفترض به أن يشعر بخيبة أمل، وقد يظهِر بهجة مفرطة بدل أن يساوره الحزن، وقد يفصح عن حنان مسرف عوضاً عن الغيرة. وفي جميع هذه الأحوال يكون قد حدث شيء حرَف السيرورة عن مجراها المألوف: فقد تدخَّل الأنا ليفرض تحولاً في الانفعالات العاطفية. والتحليل، إذ يستاق إلى الوعي هذا الشكل النوعي من الدفاع ضد الانفعال العاطفي، سواء أكان هذا الدفاع اتخذ شكل قلب أم نقل أم كبت كامل، يمدّنا بالمعلومات عن الطريقة الخاصة التي اعتمدها الأنا لدى الكائن الصغير. وعلى نفس منوال تحليل المقاومات، يتيح لنا تحليل الحالات المشار إليها أن نستنتج موقف الطفل إزاء دوافعه الغريزية وتكوين أعراضه. ومن الوقائع التي تنطوي على أهمية كبيرة بالنسبة إلينا في التحليل الطفلي ألا نكون مضطرين، عندما نرغب في دراسة السيرورات العاطفية، إلى الاعتماد بأية صورة من الصور على تعاون الطفل الإرادي أو على صراحته أو على تكتُّمه. فانفعال الطفل العاطفي يترجم عن ذاته، ولو على كره منه.

وهاكم فيما يلي بعض أمثلة: صبي صغير كانت تنتابه نوبات من الحماسة الحربية كلما دفع به دافع ما إلى استشعار خوف الخصاء؛ فكان يرتدي زياً عسكرياً، ويتسلح بسيف وبغيره من أسلحة الأطفال. وبعد أن أخضعتُه للملاحظة في عدة مناسبات من هذا القبيل، فطنت إلى أنه يقلب الحصر إلى نقيضه، وعلى وجه التعيين إلى عدوانية. ومذ ذاك فصاعداً لم يعد عسيراً عليّ أن أكتشف في كل مرة خوف الخصاء الذي تحجبه تلك الاستجابات الحربية. وفضلاً عن ذلك، اكتشفت بلا دهشة أن ذلك الطفل عصابي وسواسي يظهِر،



في حياته الغريزية، ميلاً إلى قلب حفزاته الغريزية غير المرغوب فيها إلى أضدادها. وكذلك مثال فتاة صغيرة ما كانت تردّ الفعل إطلاقاً، فيما يبدو، على المواقف الإحباطية، وكانت القرينة الوحيدة على انفعالها ارتعاشة عند ملتقى شفتيها. وقد كشفت على هذا النحو عن قدرة أناها على تنحية السيرورات النفسية المستكرهة وعلى الاستعاضة عنها بسيرورات بدنية. فهل نعجب بعد ذلك إذا علمنا أنها تستطيع أن تستجيب استجابة هستيرية في صراعاتها الغريزية؟ وفتاة صغيرة أخرى نجحت كل النجاح، في مرحلة الكمون من عمرها، في كبت حسدها لقضيب أخيها الصغير، وهو الحسد الذي كان يتحكم بحياتها كلها، بحيث كان من العسير جداً عليّ، حتى في التحليل، أن أكتشف أثراً ما من ذلك الإحساس. وقد أظهر التحليل فقط أنه كلما سنحت فرصة لها لتحسد أخاها ولتغار منه كانت تُسْلِم نفسها للعبة غريبة من ألعاب المخيِّلة: فقد كانت تتصور نفسها ساحراً قادراً، بإيماءاته، أن يؤثر في الكون بأسره ويغيِّره. فهذه البنت كانت تقلب إلى النقيض الحسد الذي كان يتأكّل نفسها، فتغالي في توكيد قدرتها السحرية. وبفضل هذا التخييل كانت تتحاشى الاستبصار الأليم بدونيتها الجسمية المزعومة. وقد استخدم أناها آلية الدفاع المتمثلة في القلب إلى الضد، وهو ضرب من تشكيل ارتجاعي ضد الانفعال العاطفي. وما إن تأكدت هذه الحقيقة حتى بات في مستطاع المحلِّلة أن تستنتج في سهولة الحسد القضيبي في كل مرة يعاود فيها تخييل الساحر ظهوره. وإن ما تفيدنا به التجربة على هذا النحو لا يعدو أن يكون تقنية معيّنة في ترجمة التظاهرات الدفاعية لدى الأنا، وهذه التقنية تكاد تناظر بدقة الطريقة التي تمكّننا، في التداعيات الحرة، من تصفية مقاومات الأنا. والحق أن هدفنا هو عينه هدفنا في تحليل المقاومات. فبقدر ما نتوصل إلى استياق المقاومة والدفاع ضد الانفعالات العاطفية إلى الشعور ـ وهذا ما يبطل فاعليتهما ـ نخطو خطوة أخرى إلى الأمام على طريق تفهم الهذا.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الرابع

آليات الدفاع

النظرية التحليلية النفسية وآليات الدفاع

إن مصطلح «الدفاع»، الذي تواتر استعمالنا له في الفصول الثلاثة السابقة، هو أقدم ممثل لوجهة نظر دينامية في النظرية التحليلية النفسية. فقد ظهر هذا المصطلح لأول مرة سنة ١٨٩٤ في دراسة فرويد عن **أعصبة الدفاع النفسية**، ثم تكرر ظهوره في الدراستين التاليتين: **إتيولوجيا الهستيريا وملاحظات أخرى حول أعصبة الدفاع النفسية**. وهو يفيد في تسمية تمرد الأنا على التمثلات والانفعالات العاطفية الأليمة أو غير المحتملة. ثم كان أن هُجر هذا المصطلح واستعيض عنه في وقت لاحق بمصطلح الكبت. بيد أن العلاقة بين المصطلحين تبقى مبهمة. وإنما في تذييل **الكفّ، العرَض، الحصر** (١٩٢٦) عاد فرويد إلى مفهومه القديم عن الدفاع، وجاهر باعتقاده بفائدة العودة إلى تداول هذا المصطلح «شريطة أن نشير بهذا المفهوم بصفة عامة إلى جميع الأساليب والطرائق التي يلجأ إليها الأنا في منازعاته التي يحتمل أن تتأدى إلى العصاب، بينما نحتفظ باصطلاح الكبت لطريقة بعينها من هذه الطرائق الدفاعية، أتاح لنا اتجاه أبحاثنا في البداية أن نعرفها خيراً من سواها»(١). هكذا يكون قد تحدد معنى كلمة «الكبت». فهو لا يعدو أن يكون ظاهرة تضطلع إلى جانبها سيرورات نفسية أخرى بأدوارها في خدمة الهدف نفسه: «حماية الأنا من مطالب الدوافع الغريزية». ومن ثم لا يعود الكبت يمثّل سوى «طريقة بعينها من الطرائق الدفاعية».

١ ـ راجع أعلاه الترجمة العربية لكتاب فرويد هذا. «م».



إن هذا التصور الجديد لدور الكبت يحثّ المحلّلين النفسيين على أن يدرسوا ويقارنوا ويصنفوا تلك الطرائق الدفاعية الأخرى بقدر ما تمّ حتى الآن اكتشافها ووصفها.

إن ذلك التذييل المشار إليه لكتاب **الكفّ، العرَض، الحصر** يتضمن أيضاً فرَضاً كنت أسلفت إليه الإشارة في الفصل السابق. وهاكم إياه: «إن تعميق دراساتنا ربما يكون من شأنه أن يكشف عن وجود تطابق وثيق بين أشكال دفاعية كهذه وبين إصابات مرَضية كتلك، وعلى سبيل المثال بين الكبت والهستيريا»[٢]. ويذكر فرويد في عداد أساليب الدفاع المستخدمة في العصاب الوسواسي النكوص والتحورات الارتجاعية للأنا (التشكيلات الارتجاعية) والعزل والإلغاء ذا المفعول الرجعي.

بعد هذه الإشارات الأولية يغدو من اليسير علينا أن نستكمل، بالاستعانة بمؤلفات أخرى لفرويد، تعدد أساليب الدفاع. ففي مقاله **حول بعض الآليات العصابية في الغيرة والبارانويا والجنسية المثلية**[٣] يعد الاستدماج أو التماهي أو الإسقاط طرائق دفاعية لها وجهها من الأهمية في ذلك النوع من الأمراض. وفي مبحثه عن نظرية الدوافع الغريزية[٤]، يدرج فرويد الارتداد ضد الذات والقلب إلى النقيض في باب «مصائر الدوافع الغريزية». وإذا أخذنا بوجهة نظر الأنا، تحتَّم علينا أن نعتبر هاتين السيرورتين من جملة الأساليب والطرائق الدفاعية: فكل ما يقع للدوافع الغريزية من هذا القبيل يمكن أن يُردَّ في خاتمة المطاف إلى فاعلية من جانب الأنا. فلو أن مطالب الأنا ومطالب القوى الخارجية التي يمثّلها الأنا ما كانت تمارس ضغطاً، لما عرف الدافع الغريزي سوى مصير واحد: الإشباع. وإلى تلك الأساليب الدفاعية التسعة المعروفة جيداً في الممارسة والموصوفة على نطاق

---

٢ ـ المصدر نفسه.

٣ ـ انظر ترجمتنا لهذا النص في: **العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي** في المجلد ٤ من **المؤلفات شبه الكاملة**. «م».

٤ ـ المقصود: **الدوافع الغريزية ومصائر الدوافع الغريزية**. انظر ترجمتنا لهذا النص في: **ما وراء علم النفس** في المجلد ٥ من **المؤلفات شبه الكاملة**.«م»



واسع في النظرية التحليلية النفسية (الكبت، النكوص، التشكيل الارتجاعي، العزل، الإلغاء ذي المفعول الرجعي، الإسقاط، الاستدماج، الارتداد ضد الذات، القلب إلى الضد) نستطيع أن نضيف أسلوباً عاشراً ينتمي بالأحرى إلى مضمار السواء أكثر منه إلى مضمار العصاب: الإسماء SUBLIMATION أو نقل الهدف الغريزي.

هكذا نستطيع أن نؤكد، طبقاً لمعارفنا الحالية، أن في متناول الأنا، في كفاحه ضد تمثيلات[٥] الدافع الغريزي وضد الانفعالات العاطفية، عشرة أساليب متباينة. وعلى عاتق الطبيب المحلّل تقع مهمة الكشف عن النتائج التي يمكن أن تتمخض عنها هذه الأساليب، في كل حالة فردية، في مجرى سيرورات مقاومة الأنا وتكوين الأعراض.

مقارنة بين الأفاعيل المختلفة لهذه الآليات في الحالة الفردية

لندرس، على سبيل التمثيل، حالة ممرّضة شابة لها عدد كبير من الإخوة والأخوات ممن يكبرونها أو يصغرونها سناً. فطوال طفولتها ما انفكت تعاني بقوة من الحسد القضيبي حيال إخوتها، ومن غيرة يجدِّدها باستمرار حَمَلُ أمها المتكرر. وفي النهاية ائتلف الحسد والغيرة ليضرما فيها نار كراهية متأججة حيال هذه الأم. ولكن بما أن روابط الحب التي تشدّ وثاق البنت الصغيرة إلى هذه الأخيرة كانت متينة للغاية أيضاً، فقد نشب لديها صراع دفاعي ضارٍ ضد الحفزات السلبية، وقد كان ظهوره في أعقاب فترة من العصيان والشيطنة. وكانت تخشى، بحكم ما تكنّه من مشاعر الكره، أن تفقد حب الأم الذي ما كان لها عنه من غناء. وكانت تخاف أيضاً أن تعاقبها أمها، وتؤاخذ نفسها مؤاخذة مُرّة على ما تضمره من شهوة مكبوحة إلى الانتقام. وفي خضم هذا الموقف المسبّب للقلق والحصر وفي غمرة الصراع الأخلاقي الذي كانت تتخبط فيه والذي كان يزداد ضراوة كلما تقدمت أكثر فأكثر في مرحلة الكمون، حاول أناها بسبل شتى أن يسيطر على الموقف. فكيما تصفّي نزاعها الوجداني

٥ ـ أو التمثلات الممثّلة للدافع الغريزي كما يؤثر أن يقول فرويد. «م».



الازدواجي أسقطت على الخارج أحد عنصري ازدواجيتها العاطفية. فقد استمرت أمها موضوعَ حبٍّ عندها، ولكن ستكون هناك في حياتها بالمقابل، منذ ذلك الحين فصاعداً، شخصية ثانية من الجنس المؤنث تضمر لها أشدَّ الكره. وعن هذا السبيل صار الموقف أكثر احتمالاً، وذلك لأن الكراهية التي تستشعرها نحو شخص غريب لا تستثير لديها شعوراً رهيباً بالإثم كمثل ذاك الذي تستثيره كراهيتها لأمها. بيد أن هذه العاطفة المُزاحة بقيت مولِّدة للعذاب بما فيه الكفّاية. وكما أثبت الآتي من الأيام فإن تلك الإزاحة الأولى لم تكن كافية لتصفية الموقف.

على الأثر لجأ أنا البنت الصغيرة إلى آلية ثانية بأن قلب نحو الذات الكراهية التي كانت تنصبّ حتى ذلك الحين على الخارج حصراً. وراحت الطفلة تعذِّب نفسها بنفسها بما تنهال به على ذاتها من تبكيات قاسية وبما ينتابها من مشاعر الدونية. وعلى امتداد طفولتها، ومراهقتها، وحتى في حياتها الراشدة، ما تركت شيئاً إلا وفعلته لتضع نفسها في موضع الخاسر، ولتؤذي نفسها، ولتقدِّم مصالح الغير على الدوام على مصالحها. ويبدو أنها، منذ أن اعتمدت خطة الدفاع هذه، غدت مازوخية.

لكن حتى هذه التدابير ثبت قصورها عن تسوية الأمور. وعندئذ شرعت المريضة تلجأ إلى الإسقاط PROJECTION. فالكراهية، التي كانت تستشعرها ضد المواضيع الأنثوية المحبوبة أو ضد بدائلها، انقلب إلى اقتناع بأنها هي نفسها مكروهة أو مهانة أو مضطهدة من قبل النساء المشار إليهن. هكذا تخفف أناها من عبء الشعور بالذنب. لكن استخدامها لهذه الآلية صبغ شخصيتها بصبغة شبه بارانوئية، فصارت حياتها جحيماً لا يطاق في شتى سنيّ مراهقتها وشبابها على حدٍّ سواء.

لم تلجأ المريضة إلى التحليل إلا بعد دخولها في طور الحياة الراشدة. وعلى الرغم من معاناتها الشديدة، لم يكن محيطها يعتبرها مريضة. وجميع التدابير الدفاعية التي اتخذها أناها لم تنجح إطلاقاً في تحريرها من قلقها ومن شعورها بالذنب. ففي كل ظرف قمين بأن يحرِّك فيها الحسد أو الغيرة أو الكراهية،



كانت تجنِّد آلياتها الدفاعية كافة. لكن صراعاتها العاطفية ما كانت تتأدى بها قط إلى حلٍّ من شأنه تسكين أناها. وناهيك عن ذلك، كانت المحصلة الختامية لجميع تلك الصراعات هزيلة ومخيِّبة للأمل إلى أقصى حدّ. صحيح أن الفتاة أفلحت في أن تحافظ على وهم حبها البَنَوي (لأمها)، ولكنها بقدر ما كانت تستشعر الكراهية تطفح من نفسها كانت ترتاب في ذاتها وتزدري نفسها. وبالمثل لم تنجح في الحفاظ على الشعور بأنها محبوبة، وهو الشعور الذي أعملت فيه آلية الإسقاط يد الهدم، فلم تتوصل إلى تحاشي العقوبات التي كانت تتوجس منها خيفة في طفولتها. ولما ردَّت إلى نحر ذاتها حفزاتِها العدوانية أنزلت بنفسها كل الأذى الذي كانت تخشى أن تنزله بها أمها لمعاقبتها. ولم تمنع الآليات الثلاث التي لجأ إليها أناها من أن يكون في حالة دائمة من الاستنفار والتوتر المضنيين، كما لم تساعدها على التملص من المطالب الغريزية المشتطة ولا على التخفف من العذاب الحادّ الذي كانت هذه المطالب تبتعثه فيها.

لنقارن الآن هذه الظاهرات بالسيرورات المناظرة لها في حالة من حالات الهستيريا أو من حالات العصاب الوسواسي. فلنفرض أن المشكلة واحدة في كل حالة: وهي تصفية الكراهية الموجَّهة ضد الأم والمتولِّدة عن الحسد القضيبي. فالهستيريا ستستخدم لهذا الغرض الكبت، فتشطب كراهية الأم من سجل الشعور وتسدّ سداً محكماً المنفذ إلى الأنا أمام جميع مشتقات تلك العاطفة العدائية ووسائلها. أما الحفزات العدوانية المرتبطة بالكراهية، وكذلك الحفزات الجنسية المرتبطة بالحسد القضيبي، فيمكن أن تنقلب إلى أعراض جسمية إذا كانت تتوفر للمريضة القدرة على التبدين[٦]، وإذا كانت الشروط البدنية مؤاتية. وفي حالات أخرى يذود الأنا عن نفسه بتحاشيات رهابية ضد إعادة تنشيط صراع ابتدائي. فهو يقلِّص نشاطه إلى حدٍّ يجنِّبه كل موقف من شأنه أن ييسِّر عودة الحفزات المكبوتة.

في العصاب الوسواسي كذلك يتمّ في وهلة أولى كبت كُرْه الأم والحسد

٦ ـ حرفياً الاستبدال CONVERSION. والمعنى المقصود هو التبَدْيُن، أي تحول الانفعال العاطفي المكبوت إلى عرض بدني ولا سيما في الهستيريا. «م».



القضيبي. وفي وقت لاحق يتدبر الأنا لنفسه، عن طريق تشكيلات ارتجاعية، حماية ضد عودة المكبوت. فالطفلة، التي كانت عدوانية حيال أمها، تغدو مُحِبَّة لها إلى حدّ الشطط، وتصير تخاف على حياتها أشدّ الخوف. وينقلب الحسد والغيرة إلى تجرد وإلى إيثار للغير. وتلجأ الطفلة إلى طقوس وسواسية وإلى تدابير وقائية متنوعة لحماية المواضيع المحبوبة ضد أية تظاهرة عدوانية تصدر عنها. وتعمل على كبح التظاهرات الجنسية عن طريق تزمُّتٍ أخلاقي صارم.

إن الطفلة، التي تظهَر على منازعاتها بالأسلوب الوسواسي أو الأسلوب الهستيري اللذين تقدم بنا وصفهما، تبدو أكثر مكابدة من المرض من تلك المريضة التي عرضنا من قبل حالتها. فالكبت أفقد الطفلة القدرة على السيطرة على شطر من حياتها العاطفية، فباتت علاقتها الأصلية بأمها وإخوتها، وعلاقاتها العظيمة الأهمية بأنوثتها ذاتها، بعيدة عن متناول أية صياغة شعورية لاحقة. وتثبتت تثبيتاً وسواسياً لا رجعة فيه في صورة تغيُّر ارتجاعي في الأنا. وتبدد شطر كبير من نشاط الطفلة في جهود ترمي، ولا سيما في الهستيريا، إلى المحافظة على التوظيفات المضادة التي يفترض بها تأمين الكبت لاحقاً. وهذا الهدر للطاقة يتبدى في كفٍّ وتقليصٍ للأنشطة الحيوية الأخرى. لكن أنا الطفلة، الذي أفلح في تصفية صراعاته بواسطة الكبت، بكل ما يترتب على هذا الأخير من عواقب مولِّدة للمرض، توصَّل على كل حال إلى ضرب من السكينة. فالألم الذي يعاني منه هذا الأنا ثانوي ليس إلا، وناجم عن العصاب الذي تسبَّب فيه الكبت. وقد أفلحت الطفلة، على الأقل بقدر ما يأذن لها بذلك العصاب الوسواسي أو الهستيريا الاستبدالية ، في تقييد قلقها وفي قمع مشاعرها الآثمة وفي إشباع حاجتها إلى العقاب. والفارق كله يتأتى من أن الأنا يعفى في حالة الكبت، وبفضل تكوين الأعراض، من مهمة السيطرة على الصراع، في حين أن هذه المهمة تبقى واقعة على عاتق الأنا في حال اللجوء إلى طرائق أخرى في الدفاع.

ونلاحظ في الواقع أن الكبت ليس وحده الذي ينفرد بصفة عامة بالعمل، وأن الأسلوبين الدفاعيين كليهما يُستخدمان من قبل الفرد الواحد. لنأخذ، على سبيل المثال، حالة مريضة كانت تعاني هي الأخرى، منذ نعومة أظفارها، من حسد



قضيبي شديد، وإنما هذه المرة حيال أبيها. وقد بلغت أخاييلها الجنسية الذروة في رغبتها في أن تعضّ هذا القضيب. وعندئذ تدخَّل الأنا، فإذا بالفكرة الجارحة تنكبت وتنقلب إلى ضدها: نفور عام من العضّ سرعان ما تدهور لدى الطفلة إلى أنوراكسيا[٧] مصحوبة بشعور هستيري بالغثيان. وعلى هذا النحو قمعت إحدى ظاهرات السيرورة، وأعني بها الأخيولة الفموية. بيد أن المضمون العدواني، أي الرغبة في سلب الأب (أو من ينوب منابه) ما يملكه، بقي لبعض الوقت في الشعور إلى أن نما الأنا الأعلى بالتدريج نمواً كافياً فبادر الحس الخلقي للأنا إلى انتباذ الحفزة المحرمة. وبفضل آلية الإزاحة والنقل هذه، التي سندرسها فيما بعد بمزيد من التفصيل، تحولت الرغبة في السلب إلى ضرب من القناعة والتواضع لا يخلو من غرابة. وهنا نرى الأسلوبين الدفاعيين كليهما قد جرى اعتمادهما بالتعاقب: ففوق ركيزة من العصاب الهستيري حدث تبدُّل نوعي في الأنا، ليس بحدّ ذاته من طبيعة باتولوجية.

إن الانطباع الذي نخرج به من هذه الأمثلة القليلة يتأكد ويتعزز متى ما درسنا دراسة مفصَّلة، في حالات أخرى، تـأثير مختلف الآليات الدفاعية. ومن الناحية النظرية يمكن لنا أن ندرج الكبت في المفهوم النظري العام للدفاع وأن نقارن بينه وبين سائر الطرائق الدفاعية النوعية الأخرى. بيد أن الكبت يشغل، من حيث نتائجه، مكانة على حدة بين سائر الطرائق الأخرى. فمن الناحية الكمية يفعل الكبت فعله على نحو أكثر جذرية، بمعنى أنه يستطيع أن يسيطر على بعض الحفزات الجامحة التي تبقى الطرائق الأخرى بإزائها عديمة الفعالية. وهو يؤتي مفعوله مرة واحدة يتيمة. لكن التوظيف المضاد الذي يتمّ تأميناً له هو بمثابة مؤسسة دائمة تتطلب إنفاقاً متصلاً في الطاقة. وخلافاً للكبت، تكون آليات الدفاع الأخرى بحاجة، كلما تجددت الاندفاعة الغريزية، إلى أن تعاود العمل من جديد. ولئن يكن الكبت أكثر الآليات فعالية، فهو أيضاً أعظمها خطراً. فتجزئة الأنا، التي يتأدى إليها في ميادين بكاملها من الحياة العاطفية والغريزية انسحاب الشعور، يمكن أن تقضي بصفة نهائية على تكامل الشخصية. ومن ثم يغدو

٧ ـ الأنوراكسيا: الخلّفة أو فقد شهية الطعام. «م».



الكبت أساساً لتكوين التشكيلات التسووية ولنشوء الأعصبة. ولا تقلّ عواقب التقنيات الدفاعية الأخرى خطورة، لكنها تظل، حتى عندما تتلبس شكلاً بالغ الحدة، أكثر قابلية للانحصار ضمن حدود السواء. وهي تترجم عن نفسها في عدد لا يقع تحت الحصر من التعديلات في الأنا ومن التحريفات والتشويهات التي تصاحب العصاب جزئياً أو تنوب جزئياً أيضاً منابه.

محاولة تصنيف زمني

حتى بعد أن سلَّمنا للكبت بمكانته الاستثنائية، يظل يساورنا، إذ ننعم النظر في آليات الدفاع الأخرى، شعور ـ لنقرّ بذلك ـ بأننا حَشرْنا في باب واحد كثرة من الظاهرات غير المتجانسة. فإلى جانب تقنيات من قبيل العزل والإلغاء ذي المفعول الرجعي، نجد سيرورات غريزية حقيقية من قبيل النكوص والقلب إلى النقيض والارتداد ضد الذات. وبعض هذه الآليات عظيم النجع، بينما لا يتوصل بعضها الآخر إلى السيطرة إلا على كميات ضئيلة من الدوافع الغريزية أو الانفعالات العاطفية. والحوافز التي تعيِّن اختيار الأنا لآلية بعينها من الآليات لا يزال يلفّها الإبهام. وربما كانت المهمة الرئيسية للكبت مكافحة الرغبات الجنسية. وربما كانت طرائق مغايرة غير هذه الطرائق أكثر صلاحة لمواجهة قوى غريزية أخرى، ولا سيما منها الحفزات العدوانية. وربما كان كل شأن هذه الأساليب الدفاعية الأخرى أن تكمل ما لم ينجزه الكبت، أو أن تفعل فعلها في ذلك الجزء من التمثلات والأفكار المحرَّمة الذي يعاود صعوده إلى السطح إذا ما أخفق الكبت[٨]. ومن المحتمل أيضاً أن تكون كل آلية دفاعية جديدة مرصودة لمواجهة رغبة غريزية نوعية وللسيطرة عليها، ومن ثم تكون مرتبطة بمرحلة خاصة من مراحل نمو الطفل[٩].

---

٨ ـ أقول ذلك بناء على مداخلة لحنة لامبل دي غروت(*) في إحدى جلسات **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**.

(*) حنة لامبل دي غروت: طبيبة ألمانية ومحللة نفسية هولاندية (١٨٩٥ ـ ١٩٨٧). تمرست بالتحليل النفسي على يد فرويد وعملت في **معهد برلين للتحليل النفسي**، ولكن أصلها اليهودي أجبرها على مغادرة ألمانيا النازية إلى هولاندا. أولت اهتماماً خاصاً في أبحاثها لموضوع الأنوثة والنرجسية والمازوخية. من مؤلفاتها: **الألم والمتعة، الرجل والعقل**. «م».



لقد استشهدت تكراراً بتذييل **الكفّ، العرَض، الحصر**. فهذا الكتاب يتضمن إجابة أولية عن هذه الاقتراحات. يقول فرويد: «من المحتمل جداً أن الجهاز النفسي، قبل أن يتمايز فيه الأنا والهذا تمايزاً واضحاً وقبل أن يتكون الأنا الأعلى، كان يستخدم طرائق دفاعية مغايرة جداً لتلك التي يستخدمها بعد أن يكون بلغ هذه الأطوار من التنظيم». ولنا أن نقول بمزيد من الجلاء إن قوام الكبت احتجاز أو انتباذ لتمثل من التمثلات أو لانفعال من الانفعالات العاطفية إلى خارج الأنا الشعوري. ويتعذر الكلام عن كبت حيثما يكون الأنا والهذا لا يزالان مندمجين. وبوسعنا أيضاً الافتراض أن الإسقاط والاستدماج أسلوبان مرهونان بتمايز الأنا عن العالم الخارجي. فليس لانتباذ الأفكار أو الانفعالات العاطفية إلى خارج الأنا ولدمجها في العالم المحيط أن يخففا عن الأنا وأن يوفرا له تسكيناً قبل أن يتعلم الأنا كيف يميّز ذاته من العالم الخارجي. ومن جهة أخرى، لا يمكن لاستدماج العالم الخارجي في الأنا أن يعتبر كسباً لهذا الأخير قبل أن يبلغ إلى التمييز تمييزاً واضحاً بين ما يخصّه وما يخصّ العالم الخارجي. غير أن الوضع أكثر تعقيداً مما قد يلوح للوهلة الأولى؛ فأصل الإسقاط والاستدماج لا يزال يلفّه الإبهام[١٠]. أما الإسماء، أي نقل الهدف الغريزي إلى مستوى أعلى وأسمى من وجهة النظر الاجتماعية، فإنه يفترض سلفاً قبولاً أو على الأقل معرفة بالقيم الأخلاقية، وبالتالي وجود أنا أعلى. وعلى هذا، إن آليتي الكبت والإسماء الدفاعيتين لا يكون ظهورهما إلا في طور متأخر من مسار النمو، بينما يتوقف التاريخ الزمني الذي يمكن أن نحدده للإسقاط والاستدماج على المنحى النظري الذي نأخذ به. وبالمقابل، إن سيرورات من قبيل النكوص والقلب إلى النقيض والارتداد ضد

---

٩ ـ بحسب رأي تقدمت به هيلينا دويتش(*).

(*) هيلينا دويتش: محللة نفسية أمريكية من أصل نمساوي(١٨٨٤ ـ ١٩٨٢). كانت أول محللة نفسية تتخصص بالسيكولوجيا النسوية. انتمت إلى الحركة الاشتراكية في شبابها، ثم إلى التحليل النفسي بعد أن تولى فرويد نفسه تحليلها. ودافعت عن العقيدة الفرويدية «القويمة» فيما يخصّ الجنسية النسوية. من مؤلفاتها: **التحليل النفسي لوظائف المرأة الجنسية، مشكلات المراهقة**. «م».

١٠ ـ انظر فرويد: **الأعمال الكاملة**، م٤. وكذلك النظرية التحليلية النفسية التي أخذت بها المدرسة الإنكليزية والتي سنعرض لها لاحقاً.



الذات تبقى في أرجح الظن مستقلة عن الطور الذي بلغت إليه البنية النفسية، ويحتمل أن تكون قديمة قدم الدوافع الغريزية نفسها أو على أية حال قِدَم الصراع بين هذه الدوافع وبين العقبة التي قد تعترض سبيلها إلى الإشباع. ولن يفجأنا أن نعلم أنها تمثل أبكر آليات الدفاع المستخدمة من قبل الأنا.

بيد أن هذه المحاولة للتصنيف الزمني تنقضها التجربة. وبالفعل، إن أبكر التظاهرات العصابية للطفولة الأولى هي الأعراض الهستيرية التي لا يساورنا شك في روابطها بالكبت. ومن جهة أخرى، إن التظاهرات المازوخية الحقة، التي تنجم عن ارتداد الدافع الغريزي ضد الذات، نادرة لدى صغار الأطفال. ونحن نعتقد أن الاستدماج والإسقاط يظهران في الطور اللاحق لتمايز الأنا عن العالم الخارجي. لكن هاتين الآليتين، في ما تذهب إليه المدرسة التحليلية الإنكليزية، هما على العكس اللتان تولِّدان الأنا، وإليهما ينبغي أن يعزى الفضل في تمايزه عن الخارج. وتدلنا هذه الاختلافات في الرأي أن الترتيب الزمني للظاهرات النفسية يبقى واحداً من أقل مجالات التحليل النظري استكشافاً. وهذا ما يتضح بجلاء من المناقشات بصدد زمن تكوين الأنا الأعلى لدى الفرد. ومن ثم، إن تصنيفاً زمنياً لآليات الدفاع لا بدّ أن يكون مشوباً بكل وجوه الشك وعدم اليقين اللذين لا يزالان يحيطان إلى اليوم، في مضمار التحليل النفسي، بهذا الضرب من التحديدات. ولهذا ربما كان من الأوفق أن نمسك عن أي مجهود من هذا القبيل. ولنعكف بالأحرى على دراسة جميع المواقف القمينة بتحريك تلك الآليات الدفاعية دراسة أكثر تقصياً وتفصيلاً.



الفصل الخامس

توجيه السيرورات الدفاعية تبعاً للحصر وللخطر

إن الأخطار الغريزية التي ضدها يسعى الأنا إلى الدفاع عن نفسه واحدة على الدوام، لكن البواعث التي تجعل الأنا يرى أن مصدر الخطر هو هذه الاندفاعة الغريزية أو تلك يمكن أن تتباين.

بواعث الدفاع ضد الدوافع الغريزية

أ ـ **خوف الأنا الأعلى في عصاب الراشدين:** إن الموقف المعروف لنا منذ زمن بعيد أكثر من أي موقف آخر من المواقف التي يتجلى فيها الدفاع هو ذاك الذي على أساسه يتكون عصاب الراشدين. وهاكم كيف تجري الأمور هنا: إن رغبة من الرغبات الغريزية قد تتطلع إلى الدخول في مجال الشعور وإلى الفوز بإشباع بمساندة من الأنا. وقد يقبل هذا الأخير بذلك عن طواعية، ولكن الأنا الأعلى يبدي اعتراضاً. عندئذ يذعن الأنا للسلطة الأعلى، ويدخل بامتثال في صراع مع الحفزة الغريزية، برغم كل العواقب التي يمكن أن تترتب على هذا الصراع. والأمر الذي له دلالته هنا أن الباعث الذي يمتثل له الأنا في نصبه لدفاعاته لا ينبع منه هو، كما أنه لا يعدّ الدافع الغريزي الذي يحاربه خطِراً. فهذا الأخير لا يصبح منذراً بالخطر إلا لأن الأنا الأعلى يمنعه من إشباع نفسه وإلا لأنه لو فرض نفسه فرضاً لأشعل نار صراع محتوم بين الأنا والأنا الأعلى. إذاً، فأنا العصابي يهاب الدوافع الغريزية لخوفه من الأنا الأعلى، وإنما تحت ضغط هذا الأخير يحرِّك الأنا آلياته الدفاعية.

عندما يتركز اهتمامنا على دفاع راشد معصوب ضد دوافعه الغريزية، نجدنا منقادين إلى اعتبار الأنا الأعلى قوة مخيفة. وبالفعل، إنه يتبدى علة كل عصاب،



وزارع الفتنة الذي يعارض كل تفاهم ودّيّ بين الأنا والدافع الغريزي. إنه يمثّل مطالب نظام مثالي يحظر الجنسية ويصم العدوانية بأنها مضادة للمجتمع. وهو يطالب، في شطط لا يتمشى والصحة النفسية، بالقطاعة الجنسية وتقييد العدوانية، ويجرّد الأنا من كل استقلال، ويخفضه إلى مجرد أداة منفذة لأوامره، مؤلباً إياه على هذا النحو على دوافعه الغريزية وحارماً إياه من كل فرصة للاستمتاع. وتحدو بنا دراسة الدفاعات كما تتجلى في أعصبة الراشدين إلى أن نعير انتباهاً خاصاً، في أثناء العلاج، لتحليل الأنا الأعلى. فكل تقليص له، وكل إضعاف، بله إلغاؤه إلغاءً تاماً، على حدّ ما يذهب بعضهم إلى الافتراض، من شأنه أن يخفف عن الأنا وأن يجلب له، في الصراع العصابي، قدراً ـ ولو معلوماً ـ من التسكين والانفراج. وهذا التصور للأنا الأعلى باعتباره مسبّب الاضطرابات العصابية كافة من شأنه أيضاً أن يبعث آمالاً عراضاً في ما يتصل بأصول الوقاية من الأعصبة. فإن يكن مردُّ العصاب إلى أنا أعلى صارم، فما على المربين والحالة هذه إلا أن يتحاشوا كل ما من شأنه أن يشجّع على تكوين أنا أعلى مفرط في تزمُّته. وعليهم من ثم أن يحرصوا على أن تبقى مناهجهم التربوية، التي يستبطنها الأنا الأعلى فيما بعد، بعيدة عن التشدد؛ والقدوة التي يضربها الوالدان والتي يستحوذ عليها الأنا الأعلى بالتماهي، يجب أن تقدِّم نموذجاً، لا لأخلاق متزمتة يعسر التقيُّد بها، بل لواقع الضعف البشري والموقف المتسامح إزاء الدوافع الغريزية. ومن الواجب أن تترك للطفل فرصة لتوجيه عدوانيته نحو الخارج حتى لا تجد نفسها وقد سُدَّت عليها السبُل فتنقلب ضد الداخل حيث سيبادر الأنا الأعلى إلى صبغها بصبغة القسوة. وإذا ما تمخضت التربية عن مثل هذه النتائج الطيبة، فقد يكون لنا أن نفترض أن الأفراد الذين أُنشئوا على أساسها سيكونون مبرئين من الحصر، خالين من العصاب، قادرين على الاستمتاع وعلى النجاة بأنفسهم من عذابات الصراعات الداخلية[1]. بيد أن التجربة تفيدنا مع ذلك أن هذا الأمل في الوصول إلى اجتثاث شأفة الأعصبة من الحياة البشرية بطريق التربية أقرب إلى أن يكون من الوهم، وهو سرعان ما يخيب من الناحية النظرية منذ أول

١ ـ هذه الآمال عبَّر عنها بمنتهى الحماسة فلهلم رايخ، وشاطره فيها كثيرون غيره.



خطوة نخطوها في البحث التحليلي النفسي.

ب ـ الدفاع من جراء الخوف الفعلي في العصاب الطفلي: تظهر دراسة الدفاع في عصاب طفلي[٢] أن الأنا الأعلى ليس بحال من الأحوال عاملاً لا غنى عنه في تكوين هذا المرض. ولئن كان العصابي الراشد يكافح رغباته الجنسية والعدوانية كيما يتحاشى كل صراع مع أناه الأعلى، فإن الطفل الصغير يسلك مسلكاً مماثلاً إزاء حفزاته الغريزية كيلا ينتهك تحظيرات والديه القاطعة. إن أنا الطفل الصغير، شيمته في ذلك شيمة أنا الراشد، لا يكافح بطوع مشيئته دوافعه الغريزية؛ كذلك إن الباعث الذي ينصاع له في نصبه لدفاعاته لا يكمن فيه هو نفسه. فلئن كان يعدّ الدافع الغريزي خطراً، فذلك لأن من يتولون تربيته يحظرون عليه إشباعه. وكل طفحة لهذا الدافع الغريزي تستتبع تقييدات وتهديدات وعقوبات. ويلعب خوف الخصاء لدى الصبي الصغير دوراً مماثلاً لذاك يلعبه الحصر الأخلاقي لدى الراشد المعصوب. فإنما يخاف الطفل الدافع الغريزي لأنه يخاف العالم الخارجي: فدفاعه ضد الدوافع الغريزية يتم إذاً تحت ضغط العالم الخارجي، أي من جراء خوف فعلي.

إننا نلاحظ أن الأنا الطفلي الذي يعذّبه الحصر الفعلي يولّد نفس الأرهبة والأعصبة الوسواسية والأعصبة الهستيرية والسمات الطبعية العصابية التي تُلحظ لدى الراشدين الذين تنجم هذه الأعراض عندهم عن الخوف من الأنا الأعلى. وهذا ما يُفقِد دور الأنا الأعلى بعضاً من أهميته في نظرنا. فنحن نتبيَّن عندئذ أننا عزونا إلى الأنا الأعلى ما كان ينبغي عزوه في الواقع إلى حصر الأنا نفسه. وفيما يتصل بتكوين الأعراض فليس من المهم أن نعرف مما يخاف الأنا؛ بل ثمة واقعة تبقى هي الأساسية: وهي أن تحريك السيرورات الدفاعية مردّه إلى الحصر الذي يستشعره الأنا تارة إزاء تهديدات الخارج، وطوراً إزاء الأنا الأعلى. والعرَض، الذي هو النتيجة الأخيرة للسيرورة الدفاعية، لا يمكننا بصورة من الصور من تحديد نوع حصر الأنا الذي نجم عنه.

٢ ـ فرويد: **الكفّ، العرَض، الحصر**، الأعمال الكاملة، م١٤.



إن دراسة هذا الموقف الدفاعي الثاني ـ الدفاع ضد الدوافع الغريزية من جراء خوف فعلي ـ تتأدى بنا إلى تعظيم أهمية التأثير الذي يمارسه العالم الخارجي على الطفل، وتبتعث فينا من جديد الأمل في اكتشاف وقاية فعالة من الأعصبة. لقد نوَّه بعضهم بأن صغار الأطفال يعانون في أيامنا هذه من خوف موضوعي ما عاد له ما يبرره على الإطلاق. فالعقوبات التي يتوجسون خيفة منها من جراء إشباع غريزي تكاد أن تكون منعدمة الوجود في حضارتنا. فقد بطل اللجوء إلى الخصاء عقاباً على المتع الجنسية المحظورة، كما بطل اللجوء إلى البتر عقاباً على الأفعال العدوانية. بيد أن مناهجنا التربوية حافظت على شبه باهت بتلك العقوبات الهمجية للأزمنة الغابرة، ولكنه كافٍ بالقدر اللازم لإعادة تنشيط بعض التوجسات والمخاوف المبهمة، كمتخلفات ورواسب تتوارثها الأجيال. ويرتئي بعض المتفائلين أنه لا بدّ أن يكون في الإمكان ذات يوم محو هذه الذكريات القديمة عن تهديدات الخصاء وعن الأساليب العنيفة، هذه الذكريات التي تنعكس، إن لم نقل في مناهج التربية المتبعة حالياً، فعلى كل حال في مسلك الراشدين ولهجتهم. وأصحاب هذا الرأي يأملون في أن يبتّوا بصورة فعلية الصلة التي تربط مناهجنا العصرية بتلك المخاوف العقابية القديمة قدم الزمن، ويزعمون أنه سيكون في الإمكان عن هذا السبيل التخفيف من مخاوف الطفل الفعلية، وبالتالي إحداث تغيير جذري في العلاقات بين أناه ودوافعه الغريزية، بحيث يتمّ في نهاية المطاف تحرير منطقة واسعة من هيمنة العصاب الطفلي.

ج ـ **الدفاع ضد الدوافع الغريزية خوفاً من قوتها:** لكن هنا أيضاً تقوّض الخبرة التحليلية النفسية جميع تلك الآمال. فالأنا البشري، بحكم طبيعته بالذات، لا يقدم البتة تربة مناسبة لإشباع لا تشويه شائبة للدوافع الغريزية. وبالفعل، إن الأنا لا يبدي تعاطفاً مع الدوافع الغريزية إلا ما دام غير متمايز بعد عن الهذا. أما متى ما انتقل الأنا من السيرورة الأولية إلى السيرورة الثانوية، من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع، فإنه يغدو، كما أسلفنا الوصف، أرضاً غريبة بالنسبة إلى الدوافع الغريزية. فريبته حيال المطالب الغريزية تبقى ماثلة دواماً، وإن كانت تخفى ـ أو تكاد ـ عن الإدراك في الشروط العادية، ولكنها تحتجب عن النظر



بصورة شبه تامة من جراء الصراع الأكثر صخباً الذي يشنُّه الأنا الأعلى والعالم الخارجي، على أرض الأنا، ضد حفزات الهذا الغريزية. وهذه العداوة الخرساء ضد الحفزات الغريزية تتزايد شدة حتى لتنقلب إلى حصر متى ما شعر الأنا بأن حماية تلك القوى العليا قد رُفعت عنه أو متى ما شطت الحفزات الغريزية شططاً مسرفاً. «ليس من السهل أن نحدد طبيعة ما يمكن أن يخشاه الأنا من الخطر الخارجي أو من الخطر الليبيدوي في الهذا؛ وإنما نعلم فقط أنه الخوف من الانسحاق أو الفناء، ولكن ما من سبيل إلى تحديده تحليلياً»[٣]. ويرى روبرت فالدر WALDER[٤] أن الأنا يخاف «أن يرى كل تنظيمه يتهاوى أو يكتسح»[٥]. وأثر الحصر الذي يستشعره الأنا إزاء قوة الدوافع الغريزية يماثل الأثر الذي يحدثه الخوف من الأنا الأعلى أو الخوف حيال خطر فعلي، وهما الاستجابتان اللتان درسناهما حتى الآن. فآليات الدفاع تُستنفر ضد الدافع الغريزي وتتأدى، كما نعلم من قبل، إلى تكوين الأعصبة والطباع العصابية. ولدى الأطفال بوجه خاص يسهل علينا أن ندرس هذا الدفاع ضد الدوافع الغريزية بسائق الخوف من شدّتها، وعلى الأخص في تلك الحالات التي يجاهد فيها علم التربية والعلاج التحليلي النفسي جنباً إلى جنب لاستبعاد كل مناسبة من شأنها أن تبتعث الحصر الواقعي والحصر الأخلاقي، نظراً إلى أن هذين الحصرين يحجبان بصفة عامة الدفاع ضد الحفزات الغريزية. وفي طور لاحق من العمر نستطيع أن نلاحظ آثار هذا الحصر الغريزي، وهو في أوج عمله، في كل مرة تهدد فيها زيادة مفاجئة في طاقة الدوافع الغريزية بالإطاحة بالتوازن ما بين الهيئات النفسية. وهذا ما يحدث في العادة في بعض أطوار التحولات

---

٣ ـ **الأنا والهذا**، الأعمال الكاملة، م١٣، وفيه تحذير من عدم المغالاة بدور الأنا الأعلى في الكبت، وتنويه بأهمية العوامل الكمية، من قبيل فرط شدة الإثارة.

٤ ـ روبرت فالدر: محلل نفسي نمساوي (١٩٠٠ ـ ١٩٦٧). درس على يد آنا فرويد وانتمى إلى **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي**، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية فراراً من النظام النازي بسبب أصوله اليهودية. من مؤلفاته: **المظاهر السيكولوجية للحرب والسلم**، **التقدم والثورة**، **النظرية الأساسية للتحليل النفسي**. «م».

٥ ـ روبرت فالدر: **مبدأ الوظيفة التعددية**، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م١٦، ١٩٣٠.



الفيزيولوجية، كما في مرحلتي البلوغ وانقطاع الطمث مثلاً، وهذا ما يحدث أيضاً باتولوجياً في بداية اندفاعة ذهانية.

بواعث أخرى للدفاع ضد الدوافع الغريزية

إلى هذه البواعث الرئيسية الثلاثة للدفاع ضد الدوافع الغريزية (الدفاع خوفاً من الأنا الأعلى، والدفاع من جراء خوف فعلي، والدفاع خوفاً من قوة الدوافع الغريزية) تنضاف لاحقاً البواعث المنبثقة عن حاجة الأنا إلى التركيب. فالأنا الراشد يتطلب قدراً من التناغم بين حفزاته. ومن هنا كان منشأ جميع المنازعات بين ميول ونزعات متضادة من قبيل الجنسية المثلية التي وصفها ألكسندر تفصيلياً(٦). وإنما على قوة التوظيفات يتوقف في كل مرة رفض إحدى الحفزتين المتضاربتين أو قبولها أو إجراء تسوية بينهما.

والباعثان الأولان من بواعث الدفاع التي درسناها (الدفاع خوفاً من الأنا الأعلى والدفاع من جراء خوف فعلي) لهما على كل حال أصل مشترك. فلنفترض أن الحفزة الغريزية توصلت، رغماً عن معارضة الأنا الأعلى أو العالم الخارجي، إلى إشباع نفسها، فما سيحدث في هذه الحال؟ سيكون هناك بادئ ذي بدء، وبلا ريب، تمخُّض للذة، ولكن سيعقبه تمخُّض للكدر من جراء مشاعر الإثم التي تنبثق من اللاشعور أو بسبب العقوبات التي يفرضها العالم الخارجي. وعلى هذا إن الأنا، عندما ينصب دفاعاته بسائق أحد هذين الباعثين، فإنما يخضع لمبدأ الواقع. ويكون الهدف الأول هو تحاشي هذا الكدر الثانوي.

بواعث الدفاع ضد الانفعالات العاطفية

لبواعث مماثلة تماماً يدافع الأنا عن نفسه ضد الانفعالات العاطفية. فحينما

٦ ـ ف. ألكسندر(*): **العلاقات بين المنازعات البنوية والغريزية في المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م ٢٠، ١٩٣٤، ص ٣٣.

(*) فرانز ألكسندر: طبيب ومحلل نفسي أمريكي من أصل مجري (١٨٩١ ـ١٩٦٤). أنشأ في شيكاغو معهداً للتحليل النفسي وقال بتجديد التحليل النفسي ليتلاءم مع معطيات الواقع الأمريكي. من مؤلفاته: **مبادئ التحليل النفسي، الطب البدني النفسي**. «م».



ينتصب الأنا، لسبب من الأسباب التي تقدمت الإشارة إليها، ضد الدوافع والحفزات الغريزية، يرى نفسه مضطراً أيضاً إلى الاتقاء من الانفعالات العاطفية المرتبطة بهذه الأخيرة. وليس من المهم أن تكون هذه الانفعالات العاطفية لاذّة أو مؤلمة أو خطرة بالنسبة إلى الأنا، إذ إن الأنا لا يستشعرها أبداً كما هي على حقيقتها. فحينما يكون الانفعال العاطفي مرتبطاً بسيرورة غريزية محظورة، فإن مصيره يتقرر مسبقاً، إذ إن هذا الارتباط كافٍ بحدّ ذاته ليدفع بالأنا إلى أخذ الحيطة منه.

إن بواعث الدفاع هذه ضد الانفعال العاطفي تنبع ببساطة من المنازعات بين الأنا والدافع الغريزي. لكن هنالك علاقة أكثر بدائية بين الأنا والانفعالات العاطفية، علاقة لا تجد نظيراً لها في العلاقة القائمة بين الأنا والدافع الغريزي. فإشباع الدافع الغريزي يكون على الدوام لاذاً في أول الأمر. أما الانفعال العاطفي فقد يكون من أول الأمر أيضاً لاذاً أو مؤلماً تبعاً لطبيعته. وفي الحالات التي لا يكون فيها لدى الأنا من اعتراض على سيرورة غريزية بعينها، ومن ثم لا يكون له من باعث لاعتراض سبيل الانفعال العاطفي ومكافحته، فإنه يقرر موقفه من الانفعال العاطفي تبعاً لمبدأ اللذة وحده. فهو يستقبل بترحاب الانفعال العاطفي اللاذ، ويدافع عن نفسه ضد الانفعال الوجداني المؤلم. وحتى حيثما يكون لزاماً على الأنا، من جراء كبت دافع من الدوافع الغريزية، وبسائق من حصره وشعوره بالذنب، أن يقف موقفاً مناوئاً من الانفعال العاطفي، فإننا نظل نلحظ قرائن معينة على أن هذا الاختيار تمّ وفق مبدأ اللذة. فالأنا يكون أكثر استعداداً بكثير لمكافحة الانفعالات العاطفية المرتبطة بدوافع غريزية جنسية محظورة إذا ما كانت هذه الانفعالات العاطفية من طبيعة منغِّصة، من قبيل الألم والأسى والحداد. وبالمقابل، إنه يكون مستعداً لأن يتحمل لمدة أطول بعض الشيء بعض الانفعالات العاطفية الموجبة الأخرى، على الرغم من الحظر المضروب عليها، لا لشيء إلا لأنها من طبيعة لاذة. وقد يضطر الأنا في بعض الأحيان إلى أن يتسامح مع هذه الانفعالات العاطفية لفترة وجيزة من الزمن في حال اقتحامها بصورة مباغتة مسرح الشعور.

هذا الدفاع البسيط ضد الانفعالات العاطفية المؤلمة في أصلها يناظر الدفاع ضد التنبيهات المكدرة التي يتلقاها الأنا من الخارج. وسوف نرى لاحقاً أن



الأساليب التي يستخدمها الأطفال في هذه الأشكال البدائية من الدفاع، والمحكومة بمبدأ اللذة وحده، تكون هي نفسها ذات طابع أكثر بدائية.

التثبُّت من وجهات نظرنا عن طريق معطيات التحليل النفسي

إن جميع الوقائع التي نلقى أشد العنت في تجميعها وتصنيفها لنعرضها عرضاً نظرياً مقبولاً قابلة لحسن الحظ، بدون أدنى صعوبة، لأن تُكشف ويقام عليها البرهان في أثناء جلسات التحليل النفسي. ففي كل مرة تتيح لنا فيها المعالجة التحليلية أن نجبر سيرورة من السيرورات الدفاعية على التراجع القهقرى نكتشف مختلف العوامل التي أسهمت في تحريك هذه الآلية. وشدة المقاومة التي تواجهنا في التحليل النفسي حينما نحاول أن نزيل الكبوتات هي لنا خير مقياس لكمية الطاقة التي استخدمت في نصب هذه الكبوتات. وبالمثل، إن الحالة الانفعالية التي تتبدى علائمها لدى المريض حينما نستاق إلى شعوره في أثناء العملية التحليلية ما كان طاله الكبت من قبل تميط لنا اللثام عن باعثه إلى الثورة على الحفزة الغريزية. فإذا ما فككنا دفاعاً عصابياً فرضه الأنا الأعلى، ساور المريض شعور بالذنب، أي خوف من الأنا الأعلى. وإذا ما ألغينا تحظيراً صادراً عن العالم الخارجي، تبدَّت لدى المريض علائم حصر موضوعي. وإذا ما اتفق لنا، في أثناء العملية التحليلية، أن نفخنا الحياة من جديد في بعض الانفعالات العاطفية المؤلمة التي كان الطفل حامى عن نفسه ضدها وانتبذها، فإنه يستشعر كدراً معادلاً لذاك الذي كان أجبر أناه على خوض غمار الكفاح. وحينما ندرس أخيراً سيرورة دفاعية كان ابتعثها الخوف من قوة الدوافع الغريزية، فإن فسائل الهذا، التي ظلت إلى ذلك الحين مكبوحة، تدلف بلا عائق إلى أرض الأنا.

الآفاق المفتوحة أمام العلاج التحليلي

إن هذا العرض للسيرورات الدفاعية يظهر للعيان بجلاء جميع النقاط التي يمكن للعلاج التحليلي أن يشنّ هجومه منها. فالتحليل يفكك الدفاعات، ويرغم الدوافع الغريزية والانفعالات العاطفية المحظورة على أن تعود شعورية شأنها من قبل، ثم يترك بعد ذلك للأنا والأنا الأعلى مهمة إرساء التفاهم معها على أسس



أمتن وأصلب. وأكثر ما يكون توقع التطور المقبل للمرض تفاؤلاً عندما يكون الدفاع ضد الدوافع الغريزية قد تمّ بسائق الخوف من الأنا الأعلى. فنظراً إلى أن الصراع يكون هنا داخلياً صرفاً، فإن البلوغ إلى التراضي والتسوية بين مختلف الهيئات النفسية لا يكون متعذراً، وعلى الأخص في الحالات التي يغدو فيها الأنا الأعلى أكثر انفتاحاً على مقتضيات العقل بفضل إماطة اللثام عن التماهيات التي على أساسها جرى تشييده، من جهة أولى، وكذلك بفضل تحليل العدوانية التي كان هذا الأنا الأعلى تبنّاها لحسابه، من جهة ثانية. فإذا ما انخفضت على هذا النحو درجة الخوف الذي يستشعره الأنا إزاء الأنا الأعلى، لا يعود الأنا بحاجة إلى اللجوء إلى أساليب دفاعية قد تترتب عليها عواقب باتولوجية.

ولكن حتى عندما يكون حصر واقعي هو الذي تأدى إلى اتخاذ موقف في العصاب الطفلي، يمكن للعلاج التحليلي أن يأمل في نتائج طيبة للغاية. وأبسط طريقة يمكن أن يلجأ إليها المحلّل ـ وهي أكثر الطرق ابتعاداً عن المبادئ التحليلية النفسية ـ حال فراغه من تقويض السيرورة الدفاعية لدى الطفل، هي أن يحاول التأثير على الواقع من خلال تدخله لدى المربين كيما يعمل هؤلاء على تقليص الحصر الذي يكون له مبرره في هذه الحال؛ وعندئذ يقف أنا الطفل من الدافع الغريزي موقفاً أقل تصلباً ولا تعود تساوره حاجة إلى خوض غمار صراع حامي الوطيس إلى هذا الحدّ. وفي حالات أخرى، يظهِر لنا التحليل أن المخاوف التي تمخضت عن صراع دفاعي تنتمي إلى واقع باد واندثر منذ زمن بعيد: فيتبين الأنا أنه لم يعد لديه مسوّغ للخوف. وفي حالات أخرى أيضاً، يكون الخوف المبرر في الظاهر ناشئاً عن تصور مغالى فيه، فجّ، محرَّف، عن الواقع، ومستنداً إلى خبرات فعلية ولكنها موغلة القدم في الزمن ولم يعد لها من وجود الآن. ولا يعتم التحليل أن يقيم الدليل على أن تلك «المخاوف الواقعية» المزعومة مستوهمة استيهاماً، وأنه لا جدوى بالتالي من تحريك الآليات الدفاعية ضدها.

وعندما يتبنى الأنا موقفاً دفاعياً ضد انفعال عاطفي ما بهدف تحاشي الكدر، يجدر بنا أن نضيف شيئاً ما إلى التحليل كيما يحرز نتائج نهائية. فعلى الطفل أن يتعلم كيف يتحمل، بدون اللجوء الفوري إلى حماية الأنظمة الدفاعية، كميات



متزايدة باطراد من الكدر. ولنقرّ على كل حال بأن هذه المهمة تقع، من الزاوية النظرية، على كاهل المربي أكثر منها على كاهل المحلِّل النفسي.

ولا يصطدم العلاج التحليلي بصعوبات كأداء إلا في بعض الحالات الباتولوجية التي يخوض فيها المريض غمار الكفاح مدعوماً بخوفه من قوة دوافعه الغريزية. وهنا يتعيَّن علينا ألا نكون مسرفين في التفاؤل بقدرتنا على مساعدة الأنا بالتوازي مع تقويضنا لتدابيره الدفاعية. فقد درجنا في أثناء العملية التحليلية على طمأنة المريض، الذي يتوجس خيفة من استجلاب الحفزات الغريزية إلى شعوره، بتوكيدنا له أن كل حفزة مكبوتة تغدو أقل خطورة وأكثر قابلية للضبط مما لو بقيت لاشعورية. وإنما فقط في تلك الحالات التي يكون فيها الباعث إلى الدفاع هو الخوف من قوة الحفزات الغريزية ، تكون حظوظ المحلِّل في الوفاء بوعده أضأل ما يمكن. فعندما يخوض الأنا، المهدَّد بأن يطغى عليه الهذا، غمار صراع مستميت وقانط ضد هذا الأخير، كما في الهجمات الذهانية على سبيل المثال، فإن الأمر يكون في المقام الأول أمر ظاهرة كمية. ولا يحتاج الأنا في مثل هذا الصراع إلا إلى أن يُقوَّى ويُشدَّ في أزره؛ فإذا وُفِّق التحليل إلى ذلك عن طريق استياق مضامين الهذا اللاشعورية إلى مجال الشعور، كان بالقدر نفسه معالجة شافية. ولكن إذا كان كل شأن التحليل، عندما يستاق إلى مجال الشعور أنشطة الأنا اللاشعورية، أن يكشف عن السيرورات الدفاعية وأن يجعلها من ثم عديمة الفاعلية، فلن يكون قد فعل أكثر من أن فتّ في عضد الأنا وزاده ضعفاً ويسَّر السبيل أمام السيرورة المرَضية.



القسم الثاني

أمثلة على تحاشي الكدر والأخطار الفعلية

(المراحل التمهيدية للدفاع)




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل السادس

الإنكار بالتوهم

إن جميع طرائق الدفاع التي تسنى للتحليل النفسي أن يزيح عنها الستار إلى يومنا هذا لا ترمي إلا إلى هدف واحد يتيم: مؤازرة الأنا في صراعه ضد الحياة الغريزية. ويكون اللجوء إلى هذه الطرائق الدفاعية بدفع من ثلاثة أنواع رئيسية من المخاوف التي تعتري الأنا: الخوف من الدوافع الغريزية، الخوف الواقعي، وخوف الضمير. ثم إن أي صراع بسيط بين حفزات متضادة يكفي لتحريك آلية من آليات الدفاع.

لقد سلكت المباحث التحليلية في تطورها المنحى التالي: فقد انطلقت من الصراعات بين هيئات الهذا والأنا (الهستيريا، العصاب الوسواسي، إلخ)، وانتقلت إلى الصراع الذي يفرّق بين الأنا والأنا الأعلى (السويداء)، ومن ثم إلى دراسة الصراعات بين الأنا والعالم الخارجي (انظر: الرهاب الطفلي من الحيوانات في **الكفّ، العرَض، الحصر**). وفي جميع هذه المواقف الصراعية يتأبى الأنا عن استقبال شذرة من الهذا. وتكون عوامل الدفاع والعوامل التي يُنصب ضدها هذا الدفاع ثابتة على الدوام، على حين تكون العوامل المتغيِّرة هي البواعث التي تحدو بالأنا إلى اللجوء إلى الإجراءات الدفاعية. وغرض كل فعل دفاعي في نهاية الأمر تأمين سلامة الأنا وتحاشي الكدر.

لكن ليس فقط ضد كدر داخلي يدافع الأنا عن نفسه. ففي ذلك الزمن المبكر عينه الذي يتعلم فيه كيف يتعرف التنبيهات الداخلية الخطرة، تحصل له المعرفة أيضاً بالكدر الآتي من الخارج، ويكون على تماس وثيق مع الوسط الذي يستمدّ منه المواضيع التي يحبها، والانطباعات التي يسجّلها إدراكه ويتمثّلها عقله.



وكلما قدَّم له العالم الخارجي المزيد من الملذات والفوائد المتنوعة، تعاظمت أيضاً احتمالات الكدر الخارجية المصدر. إن أنا الطفل الصغير يعيش بعد وفقاً لمبدأ اللذة، ويلزمه وقت طويل قبل أن يتعلم كيف يحتمل الكدر. ويكون الفرد، في هذه الفترة من نموه، أضعف بعد من أن ينشط بفعالية، ومن أن يحمي نفسه بقواه البدنية من العالم الخارجي، ومن أن يغيِّر في هذا العالم وفق ما يريد؛ وفي الوقت الذي يكون متعذراً فيه بصفة عامة على الطفل من الناحية البدنية أن يهرب من الكدر، فإنه يكون عاجزاً أيضاً من الناحية الإدراكية عن تصور الضرورة عقلانياً وعن الخضوع لها. وفي مثل هذا الطور من عدم النضج ومن التبعية، يجاهد الأنا أيضاً، فضلاً عن محاولاته الرامية إلى السيطرة على التنبيهات الغريزية، ليحامي عن نفسه بمختلف الوسائل ضد الكدر وضد الأخطار الواقعية التي تتهدده.

بما أن نظرية التحليل النفسي تعود في أصولها إلى دراسة الأعصبة، فمفهوم لنا والحال هذه أن تكون المشاهدات والملاحظات التحليلية قد تركزت، في المقام الأول، على الصراع الداخلي الذي يدور بين الدافع الغريزي والأنا والذي يتمخض عن تكوين الأعراض العصابية. والمحاولات التي يبذلها الأنا الطفلي ليتحاشى الكدر بمقاومته المباشرة لانطباعات العالم الخارجي تدخل في مضمار علم نفس الحالات السوية. فعلى الرغم من أن هذه المحاولات يمكن أن تترتب عليها نتائج جسام فيما يتصل بتكوين الأنا والطبع، فإنها لا تكون على الإطلاق مولِّدة للمرض. وإنما لهذا السبب نجد أن الدراسات السريرية التحليلية، التي تعالج نشاط الأنا هذا، لا تعتبره إلا سيرورة جانبية.

لنعد أدراجنا مرة أخرى إلى رهاب هانز الصغير[1]. فنحن نجد فيه مثالاً سريرياً على سيرورات دفاعية موجهة ضد الداخل وضد الخارج في آن معاً. فعصاب هذا الصبي الصغير كان يرتكز، فيما يقال لنا[2]، إلى حفزات سوية ناجمة عن عقدته

١ ـ هانز الصغير: بطل أول مشاهدة تحليلية أجراها فرويد على الأطفال. وقد فصَّل هذه الحالة في دراسته التي تحمل عنوان «**هانز الصغير: تحليل رهاب لدى صبي في الخامسة من العمر**». ثم عاود الكرة في **الكفّ، العرَض، الحصر**. «م».

٢ ـ انظر بهذا الخصوص **الكفّ، العرَض، الحصر**.



الأوديبية. كان يحب أمه فاتخذ من أبيه، بسائق الغيرة، موقفاً عدوانياً دخل ثانوياً في نزاع مع المحبة التي كان يكنّها له. وقد ابتعثت هذه العدوانية خوفاً من الخصاء، عاشه الصبي الصغير على أنه حصر واقعي، فحرَّك جميع آليات الدفاع ضد الدوافع الغريزية. والأساليب التي استخدمها عصابه هي التالية: النقل (من الأب إلى حيوان الحصر)، والقلب إلى الضد (هانز المهدِّد لأبيه يخشى أن يُتهدَّد من قبل أبيه). وإلى هذين الأسلوبين انضاف النكوص نحو الطور الفموي (فكرة أن يُعضّ)، فاكتملت بذلك اللوحة. وقد حققت جميع هذه الآليات على أتمّ وجه هدفها: طرد الحفزة الغريزية. فحبّه المحظور لأمه وعدائيته الخطرة إزاء أبيه تلاشيا تماماً من شعوره. وقد ارتبط عنده خوف الخصاء، المعزو إلى أبيه، بعرَض الخوف من الأحصنة. وعن طريق آلية الرهاب أفلح الكفّ العصابي في وضع حدٍّ للحصر: فقد امتنع هانز الصغير عن الخروج من البيت.

لقد كان على تحليل هانز الصغير أن يعمل إذاً على إلغاء مفعول آليات الدفاع تلك. وهكذا رُدّت الحفزات الغريزية إلى شكلها الأول، كما رُدّ الحصر من الأحصنة إلى علته الفعلية: الأب. وبعدئذ جرى نقاش للخوف وتخفيف له وبيان لعدم استناده إلى أساس فعلي. وأمكن لتعلق الصبي الحبي بأمه أن ينبعث من جديد، وأن يترجم عن نفسه بقدر أكبر بقليل في الشعور، وأن يتحرر، بفضل إلغاء الخوف من الخصاء، من طابعه الخطر. وإذ تبدد هذا الخوف، فقد النكوص الذي كان تأدى إليه مبرر وجوده، فاستأنف النمو باتجاه الطور القضيبي مساره السوي، وكان بالتالي شفاء للطفل من عصابه.

وكذلك كان مصير السيرورات الدفاعية التي كانت موجَّهة عنده ضد الدوافع الغريزية.

ولكن حتى بعد أن أتاح التأويل التحليلي للحياة الغريزية لهانز الصغير أن تستأنف مسارها السويّ، فإن الطفل لم يستعد بعد توازنه الأمثل. فقد كان العالم الخارجي يواجهه باستمرار بواقعتين فعليتين تقعان من نفسه موقعاً مستكرهاً. فجسمه وعلى الأخص قضيبه بقيا على نحو ظاهر للعيان أصغر حجماً من جسم أبيه وقضيبه، مما خلع على الأب صفة المنافس الذي لا يجارى. وعليه، كان لهانز



أسباب وجيهة ليقيم على حسده وغيرته. وناهيك عن ذلك، انصبت انفعالاته العاطفية هذه على أمه وأخته أيضاً. وبالفعل، لما رأى هانز أمه تبذل لأخته الصغيرة عناية بدنية، حسدهما على اللذة التي تتقاسمانها، بينما يقتصر هو على دور المتفرج. فكيف لنا أن نتوقع أن يصدع طفل في الخامسة من العمر بأمر إحباطات كهذه؟ وكيف لنا أن نفترض فيه قدراً كافياً من التعقل والاستبصار ليقبل بهذه الضروب من الحرمان وليعلل نفسه بوعود بالإشباع في مستقبل لا يزال بعيداً غاية البعد؟ وكيف لنا أن نتصوره قادراً على الارتضاء بهذا الكدر بالكيفية عينها التي أبدى بها استعداده للقبول الشعوري بوقائع حياته الجنسية الطفلية عندما قُيِّضت له المعرفة بها؟

إن العرض المفصل لحالة هانز الصغير في **تحليل رهاب لدى صبي صغير في الخامسة من العمر**[٣] يزوِّدنا بمزيد من المعلومات حول المصير الذي آل إليه هذان الإحباطان. ففي ختام تحليله، روى هانز حلمين من أحلام اليقظة: تخيُّله بأن له عدداً من الأطفال يتولى تنظيفهم وتمسيحهم في المرحاض، وبعد ذلك مباشرة تخيُّله قصة السمكري الذي ينزع بالكماشة مؤخرة الصبي وقضيبه ليعطيه مكانهما مؤخرة وقضيباً أكبر وأحسن. ولم يشقّ على والد هانز ـ وكان هو محلِّله ـ أن يتبيَّن في هذين التخييلين تحقيقاً لرغبتين غير مشبعتين من رغبات الطفل. فقد أمسى هانز يحوز الآن، في الخيال على الأقل، عضواً مشابهاً لعضو أبيه، وأطفالاً يستطيع أن يفعل لهم ما تفعله أمه لأخته الرضيعة.

لقد كان هانز الصغير تخلص من رهابه من الأماكن المكشوفة حتى قبل أن يتخيل ذينك التخييلين، وهاهو ذا الآن يستعيد، بفضل معطيات جديدة، مزاجه المرح. فقد أعانه التخييلان على التلاؤم مع الواقع كما كان تلاءم من قبل مع حفزاته الغريزية. ونحن نلاحظ أن الاستبصار الشعوري بالضرورة المحتومة لم يلعب في هذه الحالة أي دور. **فقد أنكر هانز الواقع بمساعدة تخييلاته**، وقولبه وفق مراده وطبقاً لرغباته؛ وعلى هذا النحو فحسب بلغ إلى القبول به.

٣ ـ فرويد، ١٩٠٩: ANALYSE DER PHOBIE EINES FUNFJARIGEN KNABEN ، **الأعمال الكاملة**، م٧.



لقد بدا، في أثناء تحليل هانز الصغير، أن دراسة السيرورات الدفاعية تشير إلى أن مصير عصابه تقرر ساعة حوَّل إلى الحصان العدوانية والخوف اللذين كان أبوه يوحي بهما إليه. غير أن هذا الانطباع خداع: فمثل هذا الإبدال، الذي يُحِلّ حيوانات محل الكائنات البشرية، لا يمثِّل بحدّ ذاته سيرورة دفاعية، وهو متواتر الحدوث في مجرى التطور الطفلي السوي. وفضلاً عن ذلك، إنه يتمخض، حيثما حدث، عن نتائج شديدة التباين.

لقد تولجت، على سبيل المثال، بالتحليل صبياً في السابعة من العمر كان يعلِّل نفسه بالتخييل الآتي: إن لديه أسداً مروَّضاً. فهذا الحيوان، الذي يرعب سائر الناس، لا يحب أحداً سوى صاحبه الصغير، فيستجيب لندائه، ويتبعه ككلب صغير أينما ذهب. وكان الطفل يعنى بأسده، ويقوم على أمر إطعامه وراحته، ويهيئ له مرقداً في المساء في غرفته بالذات. وكما هي العادة في أحلام اليقظة المعتادة المتكررة، كانت طائفة من الأحداث السارة تتفرع من هذا التخييل الرئيسي. ومن جملة أحلام اليقظة هذه حلم يرى فيه الصبي الصغير نفسه وهو يذهب إلى حفلة تنكرية ويعلن لجميع الحاضرين أن الأسد الذي جاء بصحبته ما هو، في الحقيقة، سوى صديق متنكر. ولكن هذا الإعلان كاذب لأن الصديق المزعوم المتنكر ليس في الحقيقة غير أسده. وهنا كان يتهج إذ يتصور مدى الرعب الذي سيدبّ في أوصال جميع أولئك الأشخاص فيما لو كشفوا سره. وفي الوقت نفسه كان يشعر أن خوفهم لا يستند إلى أساس لأن الأسد لا يؤذي أحداً ما دام تحت سلطانه.

لقد تبيَّنت بسرعة من تحليل هذا الطفل أن الأسد بديل عن أبيه الذي كان ، كما في حالة هانز الصغير، منافساً حقيقياً له على الأم، منافساً مهاب الجانب وبغيضاً. ولدى الطفلين كليهما تمّ بطريقة واحدة تحوُّل العدوانية إلى حصر وجرى نقل الانفعال العاطفي إلى الحيوان؛ وإنما كيفية تعاملهما مع هذا الانفعال هي التي اختلفت. فهانز بنى عصابه على خوف الأحصنة، أي أنه فرض على نفسه العزوف عن دوافعه الغريزية، واستدخل الصراع بتمامه، وهرب، بوساطة الآلية الرهابية، من كل موقف يمكن أن يكون له فيه إغراء وإغواء. أما مريضي



فقد أخذ الأمور خيراً من هذا المأخذ. فنظير هانز في قصة السمكري، قنع بكل بساطة بإنكار واقعة فعلية مؤلمة بأن قلبها إلى ضدها السارّ. فصار حيوان الحصر صديقاً، ووضعت قوته في خدمة الصبي الصغير بدل أن تبقى موضوعاً لخوفه. ووحدها تفاصيل القصة التي تتحدث عن ذعر الناس الآخرين تشي بواقع أن الأسد كان فعلاً فيما سلف علة للحصر(٤).

لنسرد هنا أيضاً تخييلاً عن الحيوانات لدى مريض آخر في العاشرة من العمر. فقد لعبت الحيوانات في مرحلة بعينها من حياة هذا الطفل دوراً راجح الكفّة. كان يشغل الشطر الأكبر من أوقاته بأحلام يقظة عنها، بل إنه رسم بعض مشاهد مما كان يتخيّله. كان يتصور نفسه في هذا التخييل مالكاً لسيرك هائل، وفي الوقت نفسه مروِّضاً لحيواناته. وبفضله كانت أضرى الوحوش، تلك التي تقتل حتى الموت فيما لو كانت طليقة السراح، تتوصل إلى التفاهم فيما بينها في محبة. كان يدرِّبها، بمعنى أنه يعلِّمها ألا تهاجم بعضها بعضاً، وكذلك ألا تهاجم البشر، ولم يكن يستعمل في هذا التدريب أي سوط، بل كان يجول بين الوحوش خاوي اليدين(٥).

هنا نصل إلى النقطة الرئيسية في جميع هذه التخييلات عن الحيوانات: فذات يوم، وفي أثناء استعراض للسيرك شاركت فيه الحيوانات كلها، أطلق على حين غرة لص مختبئ بين الجمهور النار من مسدسه على مريضي. وللحال تجمعت

---

٤ ـ تروي برتا بورنشتاين(*) تخييلات صبي صغير في السابعة من العمر، وهي تخييلات كان يتمّ فيها أيضاً تحوُّل للحيوانات، لكن الحيوانات الطيبة هي التي كانت تتحول هذه المرة إلى حيوانات شريرة. وكانت الحيوانات/ الدمى التي يصفّها مساء حول فراشه وكأنها آلهة حارسة تتحالف، كل ليلة، مع غول يزمع أن ينقضّ عليه.

(*) برتا بورنشتاين: محللة نفسية بولونية (١٨٩٩ ـ ١٩٧١). تخصصت بتحليل الأطفال. تعاونت مع آنا فرويد في فيينا. هجرت أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية واستقرت مع أسرتها في نيويورك، وتولت التدريس في **معهد نيويورك للتحليل النفسي** وفي عيادة جامعة بال، وانتمت إلى كل من **الجمعية النيويوركية والجمعية الفيلادلفية للتحليل النفسي**. من مؤلفاتها: **رهاب الطفل في السنة الثانية والنصف من العمر، ملاحظات سريرية حول تحليل الأطفال، الاستمناء في مرحلة الكمون**. «م».

٥ ـ انظر تحليلنا لمثل هذا الترويض «السلمي» للوحوش في دراستنا عن رواية مبارك ربيع: **بدر زمانه في الأعمال النقدية الكاملة**، ج٣، منشورات مدارك، ص٧٨٥.«م».



الحيوانات كلها لتذود عنه وانقضت على اللص وأمسكت به، مع حرصها البالغ في الوقت نفسه على عدم إيذاء أحد من جمهور المتفرجين. ثم تدور التخييلات بعد ذلك حول الكيفية التي تعاقب بها الحيوانات ـ يحدوها دائماً حبها لسيدها ـ اللص، إذ أسرته وطمرته ونصبت بظفر وانتصار من أجسامها برجاً شاهق الارتفاع فوقه. وبعد ذلك اقتادته إلى عرينها حيث كان عليه أن يمضي أعواماً ثلاثة. وفي خاتمة المطاف، وقبل إطلاق سراحه، اصطفت الفيلة في صف طويل وانهالت عليه ضرباً بخراطيمها، وزجرته، وحذرته، بأصابع مرفوعة إلى الأعلى(!)، ألا يعاود أبداً الكرة. فوعد بذلك. وقال الطفل: «إنه لن يعاود الكرة أبداً ما دمت مع حيواناتي». وبعد هذا الوصف لكل ما كان على اللص أن يعانيه من جانب الوحوش، ختمت القصة المتخيَّلة بخاتمة لا تخلو من غرابة تؤكد أن الوحوش أحسنت جداً إطعام اللص في فترة أسره، فما فقد شيئاً من قوته.

إن الموقف الازدواجي من الأب، كما يعبِّر عنه تخييل الحيوانات، لم يحظَ بأكثر من إشارة تلميحية في قصة الأسد التي تخيَّلها صبي السابعة، ولكنه يبرز بجلاء أكبر بكثير في قصة السيرك. فبمقتضى أسلوب القلب إلى الضد جرى تحويل الأب، المرهوب الجانب في الواقع، إلى حيوان حامٍ في الخيال، ولكن وجه الموضوع الأبوي المرهوب الجانب استمر في الوجود من خلال صورة اللص. وفي قصة الأسد لم يكن من الواضح ضد من سيتولى البديل الأبوي حماية الصبي الصغير الذي ما زاد امتلاكه للأسد على أن رفع من قدره واعتباره في نظر الآخرين. أما في قصة السيرك فيتبدى في وضوح أن القوة الأبوية المتجسدة في الحيوانات الكاسرة إنما تفيد في الحماية ضد هذا الأب نفسه. ومن جديد تأتي الإشارة إلى الضراوة السابقة للحيوانات لتدلّ على أنها كانت فيما سلف مواضيع للحصر. فقوتها وبراعتها وخراطيمها وأصابعها المرفوعة إلى أعلى هي بالتأكيد خصائص أبوية ثمينة اختلستها المخيِّلة من الأب المحسود لتحولها إلى الصبي الصغير. وحالما امتلكها هذا الأخير غلب أباه. وبما أن الأدوار عُكست فقد حُذِّر الأب «من ألا يعاود الكرة»، وفُرض عليه أن يطلب الصفح. ولنلحظ أنه إذا كان اللص وعد الحيوانات بألا يعود ثانية إلى التعدي على الصبي، فإن أمان هذا



الأخير يبقى مرتبطاً بامتلاكه لهذه الحيوانات عينها. وفي خاتمة القصة التي تدور حول إطعام اللص ينتصر الوجه الآخر للازدواجية العاطفية حيال الأب. فمن الواضح أن حالم اليقظة هذا يريد أن يطمئن إلى مصير أبيه الذي ما كانت حياته عرضة للخطر، برغم كل العدوان الواقع عليه.

إن الموضوعات التي نسج من حولها هذان الطفلان قصصهما ليست بحال مبتكرة، بل نلتقيها، بصورة مشاعة، في الحكايات وأدب الأطفال[٦]. ولنستذكر هنا الحكاية الشعبية والخرافية عن الصياد والحيوانات: صياد طرده ظلماً ذات يوم ملك شرير بسبب ذنب تافه. وإذ صار بلا بيت، لاذ بحمى الغابة. وهناك، وقبل أن يغادر المنطقة، طاف بأرجاء الدغل حزين النفس ناقم الصدر. والتقى أول الأمر أسداً، ثم نمراً، وفهداً، ودببة، إلخ. وكل مرة كان يصوب فيها بندقيته إلى الوحش الكبير، كان هذا الوحش، كل مرة أيضاً، وعلى دهشة عظيمة منه، يتكلم ويضرع إليه أن يبقي على حياته: «أيها الصياد الطيب، دع لي حياتي فأهبك اثنين من صغاري!». وفي كل مرة كان الصياد يقبل بالصفقة ويتابع طريقه بصحبة جميع صغار الحيوانات التي وهبت له. فلما رأى نفسه في آخر الأمر على رأس رهط هائل من صغار الوحوش الكاسرة فطن إلى ما صار بحوزته من قوة، فاستدار على عقبيه قاصداً مع رفاقه العاصمة؛ ولما وصل إلى أمام قصر الملك، توعده بأن يطلق عليه حيواناته الكاسرة كلها. فخاف الملك، وأقر بأخطائه، بل زاد فتنازل له، بسائق الخوف، عن نصف مملكته وعن يد ابنته[٧].

---

٦ ـ لنلحظ أيضاً «موضوعة الحيوانات المنقذة» في الأساطير، وهي موضوعة سبق أن دُرست، من زاوية أخرى، في أدبيات التحليل النفسي. انظر أ. رانك(*): **أسطورة ميلاد البطل** (مجلة **علم النفس التطبيقي**، الدفتر ٥، ص ٨٧ وما يليها).

(*) أوتو رانك: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩). مارس التحليل النفسي كهاوٍ بعد أن غيّر كنيته من روزنفلد إلى رانك تمثُّلاً بالطبيب الطيّب القلب رانك في مسرحية إبسن **بيت الدمية** الذي قدَّم له نموذجاً مناقضاً لأبيه الذي كان سكيراً مدمناً. من أشهر مؤلفاته: **رضة الميلاد، دون جوان وقرينه، مساهمة في النرجسية، أسطورة ميلاد البطل**. «م».

٧ ـ هي قصة شعبية مشهورة وظفها الكتّاب بصيغ شتى، ومنهم الأخوان غريم في **قصة الشقيقين** وألكسندر ديماس الأب في قصة **كسارة البندق**. «م».



إن صياد هذه القصة يمثّل وجه الابن الذي يخوض غمار الصراع ضد أبيه. والمعركة تتلبس هنا شكلاً خاصاً. ذلك أن الصياد يمتنع عن الأخذ بثأره من الحيوان الكاسر الكبير، البديل الأول عن أبيه. ومكافأة له عن ذلك يهديه الحيوان صغيريه اللذين يمثلان قوته. وبفضل هذه القوة المتنامية، التي باتت طوع يديه، يغلب الابن أباه ويجبره أيضاً على أن يهبه امرأة. ومرة أخرى يقلب الخيال الوقائع إلى نقائضها. فابن ذو قوة وبأس ينتصب في وجه والده؛ وإذ يعاين الأب مدى ما عليه الابن من قوة، يخور ويستسلم، ويحقق له رغباته كافة. فحكاية الأطفال تستخدم الأساليب عينها التي يستخدمها مريضي في قصته المتخيلة عن السيرك.

بالإضافة إلى قصص الحيوانات نجد في حكايات أخرى من حكايات الأطفال نظيراً مقابلاً لتخييلات مريضي الصغير عن الأسد. ففي عدد من كتب الأطفال، وربما على الأخص في **اللورد الصغير فونتلوري**[8]. وفي **الكولونيل الصغير**[9]، يطالعنا وجه صبي صغير (أو بنت صغيرة) يفلح، بعكس ما هو متوقع، في «تطويع» رجل سيء الطبع، ذي قوة أو ثراء، مهاب الجانب من قبل الجميع. فوجده الطفل يتوصل إلى مسّ قلب العجوز، الذي يكره الناس طراً، وإلى كسب حبه. والعجوز، الذي كان إلى ذلك اليوم شكساً مغطرساً، ينتهي به الأمر إلى إسلاس قياده للصغير ولسلطانه، بل إنه يصير يسدي إلى الناس جميع ضروب المعروف.

إن المسرة التي تبتعثها هذه الحكايا في النفس تنبع أيضاً من قلب تام للواقع إلى نقيضه. فالطفل لا يتبدى فيها فقط مالكاً للوجه الأبوي القوي (الأسد)، مما يتيح

---

٨ - LITTLE LORD FAUNTLEROY، بقلم آليس هودغسون بورنيت(*).

(*) فرنسيس هودغسون بورنيت [وليس كما تسميها المؤلفة سهواً باسم آليس]: روائية إنكليزية (١٨٤٩ - ١٩٢٤). كانت رائدة في مجال قصص الأطفال التعليمية. و**اللورد الصغير فونتلوري** (١٨٨٦) أولى رواياتها، وقد أتبعتها بـ **الأميرة سارة والبستان السري**. «م».

٩ - LITTLE COLONEL بقلم آني فيلوز جونستون(*).

(*) آني فيلوز جونستون: كاتبة قصص أطفال أمريكية (١٨٦٣ - ١٩٣١). و**الكولونيل الصغير** أولى قصصها (١٨٩٥). وقد أتبعتها بسلسلة قصص أخرى بطلها الكولونيل الصغير نفسه، فأصابت بها شهرة كبيرة. «م».



له أن يلذّ جميع رجال محيطه، بل إنه يتلبس أيضاً وجه المربي الذي يحوِّل شيئاً فشيئاً الشر إلى خير. ولنتذكر هنا أن الأسد في القصة الأولى (ص ٣٩٧) تعلَّم كيف يمسك عن مهاجمة بني البشر، وأن حيوانات صاحب السيرك (ص ٣٩٨) كان يتعيَّن عليها في المقام الأول أن تتعلَّم كيف تسيطر على عدوانيتها إزاء بعضها بعضاً، وكذلك إزاء البشر. وفضلاً عن ذلك، إن الخوف الذي يبتعثه الأب يتمّ نقله في قصص الأطفال هذه بكيفية مماثلة لتلك التي يتمّ نقله بها في التخييلات عن الحيوانات. وهو يترجم عن نفسه بالخوف الذي يساور الناس الآخرين، ممن يبادر الطفل إلى تسكين روعهم، لكن ليس من شأن هذا الخوف أن يتأدى إلا إلى زيادة في مكسب اللذة.

إن الطريقة المستخدمة في تخييليْ هانز الصغير كما في تخييلات مريضيّ الصغيرين عن الحيوانات للإفلات من طوق الحصر والكدر الفعليين لهي في منتهى البساطة. فأنا الطفل يرفض الاعتراف بشطر مستكره من الواقع. ولهذا يبدأ بأن يدير ظهره له وينكره ويحِلّ محله وقائع متخيَّلة معاكسة له تماماً. على هذا النحو يغدو الأب الشرير، في الخيال، حيواناً حامياً، وينقلب الطفل الذي لا حول له ولا قوة إلى صاحب الأمر والنهي المتحكم بأبدال الأب الأقوياء. فإذا ما نجح هذا التحول، فصار الطفل، بفضل تخييلاته، غير آبه للواقع المعني، أفلت الأنا من طوق الحصر وما عادت به حاجة إلى اللجوء إلى تدابير دفاعية ضد الدوافع الغريزية ولا إلى تكوين عصاب.

إن هذه الآلية، السوية في مرحلة معيَّنة من نمو الأنا الطفلي، تشي، إذا ما تكررت في طور أكثر تقدماً، باضطرابات نفسية لا يستهان بها. وبالفعل، يسلك أنا الفرد، في بعض الحالات الحادة من الخلط العقلي الذهاني، مسلكاً مماثلاً إزاء الواقع. فتحت تأثير صدمة، وعلى سبيل المثال عقب فقدان مباغت لموضوع محبوب، ينكر الأنا واقع الأشياء ويستعيض عن جزء من الواقع الذي لا يُحتمل بإبداله بتشكيل هذائي سارّ.

هذه المقايسة بين التشكيل التخييلي الطفلي وبين الهذاء الذهاني تتيح لنا أن نفهم لماذا لا يستطيع الأنا البشري أن يستخدم على نطاق أكثر اتساعاً تلك الآلية



البسيطة والناجعة جداً في آن معاً، أعني آلية إنكار المصادر الفعلية للحصر والكدر. فقدرة الأنا على إنكار الواقع تتعاكس مع نشاط آخر له يحظى منه بأرفع التقدير: القدرة على تعرُّف الواقع وتمحيصه من زاوية نقدية. وفي الطفولة الأولى لا يكون لهذا التنافر من تأثير يقارب أن يكون مَرَضياً. فتصور الواقع لم يطرأ عليه خلل على الإطلاق لدى هانز الصغير، ولدى الطفل صاحب الأسد، ولدى الطفل مالك السيرك. فهم لا يعتقدون بأن حيواناتهم موجودة وجوداً فعلياً مثلما لا يعتقدون اعتقاداً حقيقياً بتفوُّق هذه الحيوانات على آبائهم المرهوبين. وعقلهم يتيح لهم أن يميِّزوا حسن التمييز بين الوهم والواقع. بيد أن الوقائع الفعلية المؤلمة منتقص من قدرها في حياتهم العاطفية، والتخييلات التي قلبوا فيها تلك الوقائع إلى ضدها مشحونة بالمقابل شحناً مفرطاً، بحيث لا تجد اللذة المتخيَّلة عسراً في التغلب على الكدر الفعلي.

ليس من اليسير أن نحدد متى يفقد الأنا القدرة على أن يلغي، عن طريق التخييلات، كميات أكبر من الكدر الفعلي. ونحن نعلم أن أحلام اليقظة تواصل أحياناً، حتى لدى الراشدين، الاضطلاع بدورها، إما بتوسيعها نطاق واقع أضيق مما ينبغي، وإما بقلبها هذا الواقع إلى نقيضه. بيد أن أحلام اليقظة في الحياة الراشدة لا تعدو في الغالب أن تكون ضرباً من اللعب، نوعاً من نتاج جانبي ذي توظيف ليبيدوي ضعيف، لا يقتدر على أن يلغي لدى الفرد المعني سوى مقادير طفيفة للغاية من الكدر، أو لا يعود عليه إلا بتسكين وهمي لهمّ غير ذي بال. ويظهر أن أحلام اليقظة كوسائل للدفاع ضد حصر واقعي تفقد أهميتها الأولية ابتداء من نهاية الطفولة الأولى. ولنا أن نفترض أن القدرة على اختيار الواقع تكون قد تعززت موضوعياً إلى حدٍّ تستطيع معه الصمود حتى في مجال الانفعالات العاطفية؛ ونحن نعرف أيضاً أن الأنا تساوره في الحياة الراشدة حاجة ماسة إلى التركيب تجعل تعايش المعطيات المتضادة بحكم المستحيل. وربما كان الرابط الذي يربط الأنا الناضج بالواقع أقوى من نظيره لدى الأنا الطفلي، بحيث لا يعود الخيال يحظى بذلك التقدير الرفيع الذي كان يحظى به في الطفولة. وثمة شيء واحد على كل حال مؤكد: وهو أن الإشباع عن طريق الاستيهام يفقد لدى الراشد طابعه غير



الضارّ. فمتى ما كان الأمر يتعلق بكميات جديرة بالاعتبار من الطاقة الموظفة وقع التضاد بين الخيال والواقع؛ فلا يعود مناص من أن يتنحى أحدهما. وإذا ما أسلس الراشد قياده، سعياً منه وراء كسب من اللذة، لتخييلات هذائية، فإن طريق الذهان هو الذي ينفتح أمامه. ومن ثم إن الأنا الذي يسعى، عن طريق إنكار الواقع، إلى الإفلات من طوق الحصر وإلى تجنب العزوف عن الدوافع الغريزية وإلى تحاشي العصاب ينتهي به الأمر إلى الإفراط في استعمال هذه الآلية. فإذا ما حدث ذلك في طور مرحلة الكمون تأدى، كما تسنى لنا أن نلاحظ في الحالتين اللتين تحدثت عنهما، إلى تشويه للطبع. أما إذا طرأ في الحياة الراشدة، فإن علاقات الأنا بالواقع تتحوَّر على نحو عميق وباعث على القلق[١٠].

إننا لا نزال نجهل على وجه التحديد ما يجري في أنا الراشد عندما يذهب باختياره إلى الإشباع الهذائي ويعزف عن إجراء امتحان الواقع. وهو إذ ينفصم في هذه الحال عن العالم الخارجي يتوقف حتى عن تسجيل التنبيهات الآتية من الخارج. أما فيما يخصّ الحياة الغريزية، فإن مثل هذا الانعدام للحساسية إزاء التنبيهات الداخلية لا سبيل إلى الوصول إليه إلا بالاعتماد على آلية الكبت.

١٠ ـ لنعِد إلى الأذهان أن دور آلية الإنكار هذه في الأمراض النفسية وفي تكوين الطباع كان، في السنوات الأخيرة، موضوعاً لدراسات عدة. فهيلينا دويتش تدرس في مقالها: **مساهمة في سيكولوجيا الحالات الهوسية الاكتابية وبخاصة في الهيبومانيا** (**المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م١٩، ١٩٣٣، ص٣٧١)، دور هذه السيرورة الدفاعية في نشوء الهيبومانيا المزمنة(*). ويصف برترام لوين(**) الكيفية التي يستخدم بها هذه الآليةَ الأنا ذو التكوُّن المُتَعيّ الحديث لدى المصاب بالهيبومانيا، وذلك في مقاله **تحليل حالة هيبومانيا عابرة وبنيتها** (**المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م٢٠، ١٩٣٤، وعلى الأخص ص ٨٣). وتبيِّن آني آنجل(***) العلاقة بين الإنكار والتفاؤل في مقالها: **بعض ملاحظات حول التفاؤل** (**المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م٢٠، ١٩٣٤).

(*) الهيبومانيا: حرفياً الهوس الأصغر، وهو اضطراب في الطبع تقلّ معه حاجة المصاب به إلى النوم والراحة مدفوعاً بطاقة كبيرة على النشاط والمنافسة والممارسة الجنسية. «م».

(**) برترام دافيد لوين: طبيب ومحلل نفسي أميركي من أصل ألماني (١٨٨٣ ـ ١٩٧٤). ترأس **الرابطة الأميركية للتحليل النفسي**. قدّم مساعدات جلّى للمحللين النفسيين الهاربين من النظام النازي. ترجم إلى الإنكليزية كتاب كارل أبراهام عن **الطبع وتطور الليبيدو**. من مؤلفاته: **الصورة والماضي**. «م».

(***) آني آنجل كاتان: طبيبة ومحللة نفسية نمساوية (١٨٩٨ ـ ١٩٩٢). كان والداها من أصدقاء فرويد وصادقت في طفولتها آنا فرويد التي تولت لاحقاً تحليلها. من مؤلفاتها: **التواءات الطور القضيبي**. «م».



الفصل السابع

الإنكار في الأفعال والأقوال

لمدى سنوات عدة يبقى الأنا الطفلي قادراً، مع احتفاظه بحسٍّ سليم بالواقع، على إنكار كل ما لا يقع من نفسه من هذا الواقع موقع الرضى. وهو يستخدم هذه القدرة على نطاق واسع، ولا يحصر هذا الاستخدام ضمن مضمار التمثلات والتخييلات، أي أنه لا يقنع بالتفكير، بل يبادر أيضاً إلى العمل. وتوصلاً إلى تحوير الواقع لا يتردد في استخدام المواضيع الخارجية الأكثر تبايناً. وكثيراً ما تطالعنا ألعاب الأطفال بصفة عامة، وعلى الأخص تلك التي يضطلع فيها الطفل بدور تمثيلي، بهذا الإنكار عينه للواقع.

وأودّ أن أشير هنا إلى كتاب صغير منظوم ومقفًّى لكاتب إنكليزي يصف وصفاً رهيفاً هذا المزيج من الخيال والواقع لدى بطله الطفل[1]. فقد كان في غرفة هذا الطفل الذي له من العمر ثلاث سنوات أربعة مقاعد. فإذا جلس على المقعد الأول كان مستكشفاً يسير في الليل نحو عالية نهر الأمازون؛ وإذا جلس على الثاني كان أسداً يزأر ويرعب بزئيره الخادم؛ وفي المقعد الثالث يكون قبطاناً يدير دفة سفينته في عرض المحيط؛ أما في الرابع، وهو عبارة عن كرسي عالٍ للأطفال، فإنه **يحاول أن يتخيّل** أنه هو نفسه ليس إلا، أي مجرد صبي صغير. وما قصَد الشاعر إلى قوله لا تعسر محزرته: إن العناصر التي يستخدمها الطفل ليبني عالماً خيالياً يغصّ بكل ما يبهج النفس معروضة له من تلقاء نفسها، ولكن

١ - **يوم كنا صغاراً جداً** WHEN WE WERE VERY YOUNG بقلم أ. أ. ملنه(*).

(*) ألان ألكسندر ملنه: كاتب بريطاني (١٨٨٢ - ١٩٥٦). اشتهر بأقاصيصه التي بطلها دبّ صغير. وله رواية بوليسية كلاسيكية بعنوان: **لغز البيت الأحمر**. **ويوم كنا صغاراً جداً** عبارة عن حكايات شعرية مصورة، من أبطالها ويني الدبّ الصغير الذي صار من أبطال والت ديزني. «م».



عندما يتصل الأمر بوقائع فعلية فلزام على الطفل بادئ ذي بدء أن يجاهد ليعرف هذه الوقائع وليتمثَّلها.

والعجيب في الأمر أن الراشدين أنفسهم يبدون كامل الاستعداد، في علاقتهم بالأطفال، لاستخدام هذه الآليات كلها. فاللذة التي يوفِّرها الراشد للطفل ترجع إلى حدّ كبير إلى تسهيل الراشد لمثل تلك الضروب من إنكار الواقع. فغالباً ما يطمئِن الطفل الصغير بقوله له إنه غدا الآن «كبيراً جداً» وإنه، خلافاً للواقع السافر، «قوي مثل بابا»، و«شاطر مثل ماما»، و«شجاع كجندي»، و«صلب كأخيه الكبير» مثلاً. ومما يبدو مألوفاً بدرجة أكبر أن يعمد الكبار إلى تحريف الوقائع رغبة منهم في طمأنة الصغار أو التخفيف عنهم. فالجرح الدامي هو في نظر الراشد «غير مؤلم»، والطعام الذي تعافه النفس «ليس كريه الطعم»، وإذا اكتأب الطفل لرحيل شخص ما، جزم له الكبار بقولهم: «إنه راجع حالاً». وقد يتفق أن يضع بعض الأطفال اليد على صيغ العزاء هذه، فيستخدمونها ككليشيهات في وصفهم لما يشقّ على النفس احتماله. فمثلاً بنت صغيرة في الثانية من العمر تتمتم بصورة آلية كلما غادرت أمها الحجرة: «سوف تعود ماما حالاً». وطفل آخر (إنكليزي) كلما تجرع دواء كريه المذاق دمدم منتحباً: «طيِّب، طيِّب»، وهي ذكرى متخلفة من جملة كانت تردِّدها مربيته لتحمله على استساغة دواء مرّ.

إن الكثير من الهدايا التي يقدِّمها الزوار الراشدون للأطفال قمينة بتوليد الوهم. فحقيبة اليد الصغيرة والمظلة الصغيرة تعززان لدى البنت الصغيرة فكرة أنها «سيدة». وعصا السير والزيّ العسكري والأسلحة/ الألعاب من كل نوع تمثِّل للصبي الصغير الرجولة. وحتى العرائس/ الدمى ترمي، في ما ترمي إليه، إلى خلق وهم الأمومة. كما أن القطارات والسيارات وألعاب التركيب والبناء لا تفيد في تحقيق رغبة من رغبات الطفل وفي تذليل إمكانية الإسماء SUBLIMATION له فحسب، بل تتيح له أيضاً فرصة لذيذة ليتخيَّل أنه يتحكم بالعالم. وهنا ننتقل من دراسة السيرورات الدفاعية الخالصة وسيرورات التحاشي إلى دراسة لعب الأطفال، وهو موضوع ثارت حوله، لدى مختلف مدارس علم النفس الأكاديمي، مناقشات مستفيضة.



إن الصراع الدائم بين مختلف المدارس التربوية (فروبل[٢] ضد مونتسّوري[٣]) يمكن تلخيصه في النقطة التالية: إلى أي حد يتحتم على المربي أن يحثّ الطفل ـ وهذا منذ نعومة أظفاره ـ على تمثل الواقع؟ وإلى أي درجة يجوز أن يُترك الكائن الصغير يشيح عن هذا الواقع بتشجيعه على ابتناء عالم من خياله؟

على أن المساهمة التي يسهم بها الراشدون بطوع إرادتهم في عملية قلب الواقع المؤلم إلى ضده هذه تبقى مع ذلك خاضعة لشروط محددة صارمة. فهم يتوقعون من الطفل ألا يتخطى تصوره لعالم خيالي حدوداً معلومة بعينها. فالطفل، الذي كان قبل هنيهة من الزمن حصاناً أو فيلاً، يصهل أو يقبع ويدّب على أربع، يجب أن يكون على أتم استعداد في الهنيهة التالية ليَجلس بكل تهذيب إلى المائدة وليلزم الهدوء. ومروِّض الأسود يتحتَّم عليه أن يطيع مربيته، والمستكشف أو القرصان ملزم بالذهاب بإذعان إلى فراشه في اللحظة عينها التي يؤذن فيها ما يجري في عالم الراشدين بأن يصير مثيراً كل الإثارة للاهتمام. والتسامح الذي يبديه الكبار إزاء آلية الإنكار لدى الطفل يتلاشى في اللحظة عينها التي يغدو فيها ممكناً التنقل بين الخيال والواقع بلا عنت وبلا تلكؤ وبلا مجادلة، وفي اللحظة عينها التي يبغي فيها الطفل أن يستنبط من تخييلاته سلوكاً واقعياً، أي في اللحظة التي يتوقف فيها النشاط التخييلي عند الطفل عن أن يكون لعباً لينقلب إلى عملية آلية أو قهرية.

بنت صغيرة تسنى لي أن أخضِعها للملاحظة كانت تتأبى عن الإقرار باختلاف الجنسين. كان لها شقيقان، واحدهما يكبرها والثاني يصغرها سناً.

---

٢ ـ فردريش فروبل: مربٍّ ألماني (١٧٨٢ ـ ١٨٥٢). لُقِّب بـ «المعلم الجرماني لتربية الأطفال الصغار». وقد كان وراء فكرة «حدائق الأطفال» التي كان لها دوي عالمي، ولا سيما في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان. عرض فكرته عن اللعب، كطريقة لاكتشاف الأطفال للواقع، في كتابه: **تربية الإنسان**. «م».

٣ ـ ماريا مونتسّوري: طبيبة ومربية إيطالية (١٨٧٠ ـ ١٩٥٢). اشتهرت عالمياً بالطريقة التربوية المنسوبة إلى اسمها والتي لا تقوم على نقل المعارف نقلاً ميكانيكياً إلى الأطفال، بل على مواكبة نموهم الطبيعي والتقيُّد بالقوانين التي تحكم تطورهم السيكولوجي والتعامل معهم بصفتهم مستقبل المجتمع. من مؤلفاتها: **من الطفل إلى المراهق، سرّ الطفولة، التربية العلمية، التربية والسلم**. «م».



وكانت المقارنة التي تقيمها بينهما وبينها مصدراً لكدر مستديم ومنغِّص. ومن ثم تحتّم عليها أن تلجأ إلى آلية دفاعية، إلى عملية تصحيح ومواءمة. وفي الوقت نفسه لعبت الاستعرائية دوراً مهما فَي نمو حياتها الغريزية، ومن ثم إن حلمها وتأرقها إلى أن تحوز قضيباً اتخذا عندها صورة رغبة في أن يكون لديها، كأخويها، شيء تعرضه للنظر. ونحن نعرف من تحاليل أخرى للأطفال أن ثمة أساليب متباينة لتحقيق رغبة كهذه. فبوسع البنت الصغيرة، مثلاً، أن تحوّل إلى أجزاء أخرى من جسمها الجميل حاجتها إلى أن تعرض شيئاً، أو من الممكن أن يعتمل فيها حبُّ الملابس الجميلة فتصير «مغناجاً»، أو أن تتفوق أيضاً في الألعاب الرياضية والبهلوانية حتى تضاهي أخويها في شطارتهما القضيبية، إلخ. بيد أنها اختارت طريقاً أكثر اختصاراً: فقد أنكرت واقعة افتقارها إلى القضيب ووفَّرت على نفسها من ثم كل عناء لإيجاد بديل عنه. ومنذئذ راحت تعرض بصورة شبه قهرية العضو الناقص. وقد تجلى هذا القهر لديها مادياً في تشميرها، بين الفينة والفينة، تنورتها وعرضها ما تحتها، مما كان يعني: «انظروا ما أجمل هذا الذي عندي!». وكان يتفق لها في مناسبة وغير مناسبة أن تلفت نظر الآخرين إلى شيء لا وجود له[٤]: «تعالوا انظروا كم باضت الدجاجات من بيض!»، أو: «أتسمعون؟ ها هي عربة عمي قد وصلت». وفي الواقع، لم يكن هناك بيض باضه الدجاج ولا عربة. وقد جلب عليها هذا المزاح في أول الأمر تهليل الكبار وضحكهم، لكن الخيبات المتكررة واللامتوقعة التي كانت تسبّبها على هذا النحو لأخويها وأخواتها كانت تتأدى بهم إلى سفح دموع غزيرة. وقد يمكن القول إن سلوكها في ذلك الزمن كان عند الحد الفاصل بين اللعب والسلوك القهري.

هذه السيرورة عينها تبرز بمزيد من الجلاء لدى مروِّض الأسود الصغير في

٤ ـ انظر بهذا الخصوص شروح س. رادو(*) عن «شهوة القضيب» لدى البنات الصغيرات. وقد وصفها بأنها استعادة هلوسية للعضو المذكّر الذي كان نظرهن وقع عليه: **حصر الخصاء لدى المرأة** DIE KASTRATIONSANGST DES WEIBES، المنشورات التحليلية النفسية الدولية، فيينا ١٩٣٤.

(*) ساندور رادو: محلل نفسي مجري متأمرك (١٨٩٠ ـ ١٩٧٢). التقى فرويد عام ١٩١٥ وتولى تحليله كارل أبراهام. ترأس تحرير مجلة **إيماغو**. «م».



الفصل السابق. فكما أبان التحليل، لم تكن تخييلاته تعوّض فقط عن بعض رواسب الكدر والتنغيص لديه، بل كانت تمثّل أيضاً محاولة لإلغاء حصره الشديد من الخصاء. وقد غلبت لديه عادة الإنكار، فما عاد يستطيع أن يحوّل جميع المواضيع المخيفة له إلى أصدقاء حُماة أو مطيعين. وضاعف من طاقته في محاولاته، فراح يستخف أكثر فأكثر بكل ما يبتعث فيه الخوف. ومنذئذ بات كل ما يثير الخوف ينقلب عنده إلى موضوع للسخرية. ولكن بما أن العالم بأسره كان يخيفه، فقد لبس العالم برمته لباساً من السخف. وتحت الضغط المتوصل لحصر الخصاء صار التهكم هو شكل استجابته؛ ولئن أخذ هذا التهكم في بادئ الأمر مظهر اللعب، فإن طابعه القهري ما لبث أن انكشف لما اتضح أن الطفل لا يبلغ إلى التحرر من مخاوفه إلا بالمزاح. ففي كل مرة كان يحاول فيها أن ينظر بقدر أكبر من الجدّ إلى العالم الخارجي، كان يدفع ثمناً لهذه المحاولة نوبة حصر.

إن الطفل الصغير الذي يودّ أن يكون رجلاً كبيراً، فيمثل دور «بابا» بحمله عصا أبيه وقبعته، لا يبدو لنا على الإطلاق بعيداً عن السواء؛ وهذه اللعبة هي على كل حال دارجة ومألوفة. وكانت هذه اللعبة هي المأثورة لدى واحد من مرضاي الصغار، وكان مزاجه يتكدر إلى أقصى حدّ إذا ما وقع نظره على رجل طويل جداً أو قوي جداً. وكان من عادته أن يعتمر قبعة أبيه ويخرج للتجول بها. وكان يظل فرحاً سعيداً ما دام أحد لم يتدخل. وطوال العطلة الصيفية كان يلعب لعبة مماثلة، ولكنه صار يخرج هذه المرة وعلى ظهره حقيبة ملأى بالأغراض من كل نوع. وما كان يميّزه شيء عن الصبي الصغير العادي الذي يحلو له أن يمثّل دور الكبار سوى أنه كان ينظر إلى لعبته هذه بعين الجدّ الكامل: فإذا أرغمه أحد على خلع قبعته في داخل البيت، عند الجلوس إلى المائدة أو عند الذهاب إلى الفراش، ثارت ثائرته وتعكر مزاجه.

ولما أُعطيت لهذا الصبي الصغير قبعة من نوع الكسكيت، تشبه تلك التي يعتمرها الكبار، كرر معها سلوكه مع قبعة أبيه. فقد كان يحملها معه إلى كل مكان يذهب إليه، ويشدّ عليها بتشنُّج بين أصابعه عندما لا يُسمح له بوضعها فوق رأسه. على أنه لم يكن أمامه محيص من أن يلاحظ أن اليدين تفيدان أحياناً



في أغراض أخرى. ففيما كان ذات يوم يفتِّش بقلق عن مكان يضع فيه قبعته فطن إلى أن فتحة بنطلونه توفِّر له مخبأً جيداً، فأبرم للحال قراره، فدسّ فيها قبعته، وبذلك تحررت يداه وقرّ عيناً بأنه لن يفترق بعد الآن عن قبعته الثمينة. ومن المحقق على كل حال أنها قد استقرت في المكان الذي هو مكانها الطبيعي بحكم دلالتها الرمزية: بجوار الأعضاء التناسلية.

في الصفحات التي تقدمتْ وصفتُ جميع المسالك التي من هذا النوع لدى الأطفال بأنها قهرية، إذ لم أجد تعبيراً أفضل. وبالفعل، إنها تعرض لأنظار كل مراقب سطحي تشابهاً كبيراً مع الأعراض الوسواسية القهرية ، ولكن لو أنعمنا فيها النظر لتبيَّن لنا أنها ليست بمثابة أفعال قهرية بحصر معنى الكلمة. فبنيتها مختلفة كل الاختلاف عن البنية التي تميِّز، في تصورنا، الأعراض العصابية. صحيح أن خيبة أو عزوفاً أو إحباطاً واقعياً يكون هو في أصل السيرورة التي تتأدى إلى تلك المسالك، تماماً كما في تكوين الأعراض العصابية، لكن الصراع الذي ينشب من جراء ذلك لا يتمّ استدخاله، بل يبقى على روابطه بالخارج. والإجراءات الدفاعية التي يلجأ إليها الأنا تستهدف، لا الحياة الغريزية، بل العالم الخارجي الذي هو مصدر الإحباط. وكما يحال عن طريق الكبت في الصراع العصابي دون إدراك الانفعال الغريزي ، كذلك يتوصل الأنا الطفلي، عن طريق الإنكار، إلى الامتناع عن إدراك الانطباعات الأليمة الآتية إليه من الخارج. وفي العصاب الوسواسي يتم تأمين الكبت، كما نعلم، عن طريق تشكيل ارتجاعي يحتوي نقيض الحفزة المكبوتة (الشفقة بدل القسوة، الحياء بدل الاستعراء). وعلى المنوال نفسه يتمّ، في المواقف الطفلية الموصوفة آنفاً، إتمام إنكار الواقع وتدعيم هذا الإنكار عندما يبادر الطفل إلى تحوير الوقائع الفعلية وقلبها إلى ضدها عن طريق الخيال أو القول أو الفعل. ويقتضي التشكيل الارتجاعي لدى العصابي الوسواسي كيما يستمر في البقاء إنفاقاً متواصلاً نسمِّيه توظيفاً مضاداً. كذلك، إن الإبقاء على التخييلات السارة وتظهيرها كما لو على خشبة مسرح يقتضيان من أنا الطفل مجهوداً متواصلاً. فحينما يعرض أخوا البنت الصغيرة عليها في كل لحظة وآن مشهد ذكورتهما، تأتي استجابتها على الدوام أيضاً في صورة التوكيد



التالي: «لديّ أنا أيضاً شيء أعرضه». وغيرة اللابس الصغير للكسكيت كانت تستثيرها على الدوام رؤيته للرجال من حوله. ومن ثم كان يعرض في كل لحظة وآن أيضاً القبعة أو الكسكيت أو حقيبة الظهر، وكلها في نظره أدلة مادية على ذكورته. وفي كل مرة تعيق فيها قوة خارجية هذه الأفعال، تتمخض ظاهرة مماثلة لتلك التي يتأدى إليها قمع من الخارج لنشاط قهري ما. فالتوازن، الذي ما أمكن الحفاظ عليه إلى تلك اللحظة إلا بعناء ومشقة بين النزعة المطلوب كبحها وبين القوة الدفاعية، يختلّ، فإذا بالتنبيه الخارجي الذي كان منكراً من قبل أو التنبيه الغريزي المكبوت يجاهدان لشقّ طريقهما إلى الشعور، فيستثيران لدى الأنا مشاعر حصر وكدر.

إن استخدام هذا الأسلوب الدفاعي، أي الإنكار عن طريق الأقوال والأفعال، يخضع من حيث الزمن لتقييدات مشابهة لتلك التي تقدَّم بي وصفها في الفصل السابق الذي عالجت فيه الإنكار عن طريق التخييلات[٥]؛ فليس يباح اللجوء إلى الإنكار إلا ما دام مقترناً بالقدرة على اجتياز امتحان الواقع وإلا ما دامت هذه القدرة براء من الخلل. فإذا ما أدرك الأنا النضج وانتظم في وحدة بفضل التركيب اختفى الإنكار وزال، فلا يعاود ظهوره إلا في الحالات التي يطرأ فيها خلل خطير على العلاقات بالواقع ويمنى فيها امتحان الواقعية بالإخفاق. ففي الإنشاءات الهذائية للذهانيين، مثلاً، يمكن لقطعة من الخشب أن تمثّل، كما لدى الطفل، موضوعاً محبوباً أو مشتهى أو مفقوداً[٦]. وقد لا نجد في العصاب سوى استثناء واحد من هذا القبيل: تعويذة العصابي الوسواسي. على أنني لا أجرؤ أن أقطع ما في إذا كان امتلاك مثل هذا الشيء الذي يتشبث به المريض بتشنج مسرف يمثّل حماية ضد حفزات داخلية

٥ ـ إن الألعاب التي يمثّل فيها الطفل دوراً يحاكي شخصية غيره تقع في منتصف الطريق بين «الإنكار بالقول وبالفعل» وبين «الإنكار بالاستيهام». ولكننا لن نتناولها هنا بالتحليل المفصل.

٦ ـ انظر في هذا الصدد آراء ر. لافورغ(*) حول التعمية: **ملاحظات حول مفهوم الكبت** (**المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م١٤، ١٩٢٨، ص ٣٧١ وما يليها).

(*) رينيه لافورغ: محلل نفسي فرنسي (١٨٩٤ ـ ١٩٦٢). ترأس **الجمعية الفرنسية للتحليل النفسي**. من مؤلفاته: **نسبية الواقع**، **العيادة التحليلية النفسية**، **فشل بودلير**. «م».



محظورة أو حماية ضد قوى خارجية خطرة، أو ما إذا كان هذا الشيء يجمع بين هاتين الوظيفتين الدفاعيتين.

إن أسلوب الإنكار بالأقوال وبالأفعال يخضع لتقييد أوسع نطاقاً من ذاك الذي لحظناه في الإنكار عن طريق الأخاييل. فالطفل سيد نفسه في مملكة خياله؛ فما دام يحتفظ بأخاييله لنفسه، فليس في مستطاع أحد أن يتدخل. بالمقابل، إن العالم الخارجي هو ما ينبغي أن يكون مسرح التعبير بالأقوال وبالأفعال عن الأخاييل. وعلى هذا، يكون لجوء الطفل إلى هذه الآلية مشروطاً بقبول محيطه بها، كما يكون مشروطاً داخلياً بدرجة تكيُّفه مع الواقع. ففي حالة لابس الكسكيت كان نجاح محاولاته الدفاعية يتوقف بتمامه على ترخيص أو تحظير لبقائه معتمراً القبعة في البيت وفي المدرسة وفي الحديقة. والناس تحكم بالسواء أو بعدم السواء على هذه الآليات الحمائية لا تبعاً للبنية الداخلية للتدبير الدفاعي، وإنما فقط تبعاً لدرجة غرابته. فحينما يتمسك الصبي الصغير قهرياً بأن تبقى قبعته فوق رأسه، يكون لديه «عَرَض»، ومن ثم يحكم الناس بأنه «شاذ»، ويكون عرضة في كل لحظة وآن لتجريده من ذلك الشيء الذي يحميه من الحصر. وفي طور لاحق من العمر لا تعود تدابيره الحمائية صارخة إلى هذا الحدّ؛ فهو قد تخلّص من قبعته وحقيبته وبات يكتفي بأن يحمل على الدوام في جيبه قلم حبر. ومنذئذ أمسى الجميع يعدّونه سوياً. فعلى رضى منهم وطبقاً لمطالبهم، ألغى أو أخفى بالأحرى آليته الدفاعية. بيد أنه لم يتغير شيء فيما يتصل بحصره الداخلي. فكيما يتخلص من خوف الخصاء بات يتشبث، بدرجة مماثلة من القهر، بقلم الحبر ويدفع ثمناً لكل محاولة قد ترمي إلى تجريده من هذا الشيء نوبة مماثلة لسابقاتها من نوبات الحصر والكدر.

إن توقع التطور المقبل للمرض يتوقف أحياناً على قبول العالم الخارجي بتلك الإجراءات الدفاعية؛ وبالفعل، إن تمخُّض الحصر قد يتوقف ويبقى محصوراً بـ «العرض» الأولي، أو قد تخفق المحاولة الدفاعية فيشتدّ تمخُّض الحصر ويتأدى مباشرة إلى صراع داخلي وإلى تغيُّر مفاجئ في الدفاع ضد الحياة الغريزية، وبالتالي إلى نشوب أعصبة حقيقية. على أنه من الخطورة بمكان أن نحاول تحاشي



الأعصبة الطفلية عن طريق تشجيع هذه الإنكارات للواقع. ففي حال إسراف الطفل في استخدام هذه الآلية، تتولد في الأنا استطالات وضروب من غرابة الأطوار والشذوذ يمسي من العسير التخلص منها أو إزالتها متى ما انقضى بصورة نهائية زمن الإنكارات البدائية.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثامن

انكماش الأنا

في معرض دراستنا لآليات الإنكار والكبت، وتكوين التخييلات والتشكيلات الارتجاعية، لاحظنا توازياً بين مختلف الأساليب التي يلجأ إليها الأنا ليتحاشى كل ألم، أداخلي المصدر كان أم خارجياً. وهذه الموازاة عينها نعود فنلتقيها عندما ندرس آلية أخرى أكثر بساطة. ففي المواقف التي يستحيل فيها تفادي بعض الانطباعات المؤلمة الآتية من الخارج يلجأ الطفل إلى استخدام آلية الإنكار مقرونة بتخييل يقلب الوقائع إلى ضدها. أما إذا تقدم الطفل في العمر قليلاً فإن حرية الحركة الكبيرة التي تتاح له وملكاته النفسية التي تصيب قدراً أكبر من النمو تمكّن أناه من الإفلات من تلك التنبيهات، فلا تعود به حاجة إلى اللجوء إلى تلك العملية النفسية البالغة التعقيد التي هي الإنكار. فبدلاً من أن يدرك الأنا الانطباع المؤلم ليعمد إلى محوه بعد ذلك عن طريق سحب توظيفه، تبقى متاحة له إمكانية تجنُّب الموقف الخطر. فهو يستطيع أن يلوذ بالفرار «متحاشياً على هذا النحو بصدق معنى الكلمة كل مناسبة مسبِّبة للألم». وآلية التحاشي هذه هي من البدائية والطبيعية، علاوة على اقترانها الصميمي بنموٍّ سويٍّ للأنا، بحيث لن يكون من اليسير، عندما نريد إخضاعها لمناقشة نظرية، أن نفصلها عن روابطها المألوفة لندرسها على حدة.

لقد أتاح لي لابس القبعة الصغير الذي قدَّمته في الفصل السابق الفرصة، في أثناء تحليله، لأدرس أيضاً مظاهر الهرب تلك حيال الكدر. فقد سرَّه أن يكتشف يوماً في منزلي ماعوناً صغيراً من الورق السحري، فسارع متلهفاً يخطّ على صفحاته بقلم ملوَّن، وابتهج كثيراً لما رآني أفعل الشيء نفسه. وألقى فجأة نظرة خاطفة على عملي، وتوقف، وقد بدا عليه الاضطراب. ثم لم يلبث أن وضع



قلمه وناولني كل ماعون الورق الذي كان يتشبث به قبل هنيهة أشد التشبث، ونهض واقفاً وقال: «استمري أنت في فعل ذلك، فأنا أفضل أن أتفرج». ومن الواضح أن الصبي الصغير لما رأى ورقتي فوجئ بأن رسمي أجمل وأنجح وأكثر إتقاناً من رسمه، وأن هذه المقارنة قد صدمته. فأبرم على التو قراراً بوضع حدٍّ للمنافسة ولنتائجها الباعثة على الكدر، وعزف عن نشاط كان بدا له قبل لحظات باعثاً على الابتهاج. وانكمش على الأثر في موقف المتفرج الذي لا يفعل شيئاً والذي لا سبيل إلى مقارنة نشاطه المعدوم بنشاط أي شخص آخر مقارنة قد يكون من شأنها أن تتمخض عن انطباع مؤلم.

لم تبقَ هذه الحادثة وحيدة. فأية لعبة معي لم يكن الصبي الصغير يحرز فيها كسباً، من قبيل نقل صورة وتلوينها بإتقان أقلّ مما أفعله أنا، وأي عمل لا يتوصل إلى مضاهاتي فيه، كانا يكفيان لتعكير مزاجه على مثل ذلك النحو المباغت. وعلى هذا النحو مال إلى التجهم، وإلى الامتناع عن النشاط، وكما لو بصورة آلية فقد اهتمامه بما كان في سبيله إلى فعله. وعلى العكس من ذلك كان ينهمك قهرياً، وإلى ما لا نهاية، في الأعمال التي يشعر بأنه يتفوق عليَّ فيها. وبطبيعة الحال، سلك في الصف، عندما ذهب إلى المدرسة لأول مرة، مسلكاً مماثلاً لمسلكه معي، إذ رفض رفضاً قاطعاً أن يشارك أقرانه في الألعاب أو الأشغال التي لا يشعر بأنه يبذّهم فيها. كان ينتقل من طفل إلى طفل و«يتفرج». وهكذا ما عاد يلجأ، في محاولته تفادي الكدر، إلى أسلوب القلب إلى الضد. وعلى حساب نموّه بالذات قلّص وظائف أناه وصار يتهرب مذّاك فصاعداً من جميع المواقف الخارجية التي يحتمل أن تسبِّب له قدراً من ذلك الامتعاض الذي يخشاه أكثر ما يخشى. وما كان يشعر بثقة بنفسه ويشارك بقسط إيجابي في الألعاب إلا بصحبة أطفال أصغر منه سناً.

إن مسالك مشابهة لمسلك الصبي لابس الكسكيت غالباً ما تُلحظ في رياض الأطفال وفي المعاهد المدرسية العصرية التي حلّ فيها محل التعليم الجماعي النشاط الذي يختاره الطفل بملء حريته. ويفيدنا المعلمون بأن فئة جديدة من الأطفال قد ظهرت إلى حيز الوجود، فئة وسيطة بين الفئتين المألوفتين: التلاميذ



الأذكياء المجدِّين، والتلاميذ الخاملين الذين لا يستثار اهتمامهم إلا بصعوبة والذين يميلون ميلاً ظاهراً إلى التكاسل. ومن المتعذر إدراج الأطفال الذين ينتمون إلى تلك الفئة الجديدة في أي من الفئتين السابقتين. فهم على ذكائهم ونموهم الممتاز، وعلى كونهم محبوبين جداً من رفاقهم، يعجزون عن المشاركة في أي عمل منظم أو أي لعب منظم. ومع أنه من القواعد المتبعة في المدرسة الامتناع عن توجيه النقد أو اللوم، فإن أولئك الأطفال يسلكون مسلك الجفولين النفورين. فأية مقارنة بين أشغالهم وأشغال زملائهم في الصف تكفي لسقوط قيمة عملهم في نظرهم. وإذا اتفق لهم أن أخفقوا في إنجاز المهمة على الوجه المطلوب، أو لم ينجحوا في لعبة من ألعاب التركيب والبناء، عزفوا عزوفاً تاماً عن تكرار المحاولة. ولهذا يجنحون إلى الخمول ويكرهون أن يهتموا بعمل أو شيء ما فترة طويلة من الزمن، وحتى أن يبقوا في مكان واحد، ويقنعون بأن يتفرجوا على الآخرين وهم يعملون. وتترتب على حب التلكؤ هذا آثار اجتماعية سلبية، لأن أولئك الأطفال الملولين السئمين لا يملكون في نهاية الأمر إلا أن يتشاجروا ويتعاركوا مع الأطفال الآخرين المنهمكين في أشغال أو ألعاب.

إن التضاد بين مواهب هؤلاء الأطفال وبين مردودهم المخيِّب للآمال يحدو بنا إلى اعتبارهم مكفوفين عصابياً وإلى الافتراض بأن اضطراباتهم ناشئة عن سيرورات وعن مضامين مشابهة لتلك التي أتاح لنا التحليل أن نميط عنها اللثام في ضروب الكفّ الحقيقي. ومهما يكن من أمر، فإن اللوحتين السريريتين تشفّان كلتاهما عن علاقة واحدة بالماضي. ففي الحالتين كلتيهما يرتبط العرَض، لا بالخبرة الراضّة الحقيقية التي وقعت في الماضي، بل ببديل حاضر عنها. لنفترض مثلاً أن تلميذاً ما يعاني من عسر في عمليات الحساب أو التفكير، وأن راشداً ما يكابد من اضطرابات في النطق، وأن موسيقياً ما أصابه كفّ عن العزف، فإن ما يضيق به المكفوف في مثل هذه الأحوال ليس الحساب أو التفكير بحدّ ذاته، وليس النطق بالكلمات، ولا تمرير القوس على الأوتار، ولا ملامسة مفاتيح البيانو؛ كلا، وإنما أنشطة الأنا هذه، البريئة في حدّ ذاتها، تكون قد ارتبطت بأنشطة جنسية قديمة مشجوبة وباتت ممثِّلة لها. فإذا ما اصطبغت



على هذا النحو بصبغة جنسية استوجبت من قبل الأنا سلوكاً دفاعياً. وعلى المنوال نفسه نجد أن الأطفال عندما يدافعون عن أنفسهم ضد الكدر الذي يبتعثه فيهم مرأى إنجازات أكثر إتقاناً من إنجازاتهم، فإن ما يستشعرونه من كدر يكون من طبيعة بديلة ليس إلا. فتفوق الآخرين في ما يحرزونه من نتائج يكافئ (على الأقل في نظر مريضي الصغير) رؤيتهم لأعضاء تناسلية أكبر من أعضائهم وتكون موضعاً لحسدهم وغيرتهم. وعندما يُزجّ بهؤلاء الأطفال في منافسة ما، فإن هذه المنافسة تستحضر لديهم تلك المزاحمة اليائسة مع خصمهم في المرحلة الأوديبية أو تذكُّرهم على مضض منهم بالاختلاف بين الجنسين.

غير أن الضربين كليهما من الاضطرابات المَرَضية يختلفان من زاوية أخرى. فالمريض الصغير يمكنه أن يستعيد قدرته على العمل إذا ما تغيَّرت شروط العمل. أما ضروب الكفّ بحقّ معنى الكلمة فهي دائمة، وليس لأي تغيُّر خارجي أن يؤثر فيها. بنت صغيرة تنتمي إلى تلك الفئة من الأطفال التي تقدَّم بي وصفها اضطرت، لظروف مختلفة، أن تبقى لفترة من الزمن بعيدة عن المدرسة الابتدائية التي كانت تداوم عليها، وحيث كانت تحصر نفسها بدور «المتفرجة». وقد اتفق أن أخذت دروساً خصوصية، فإذا بها تكتسب دفعة واحدة، وكما لو أنها تلعب، المعارف التي ما أمكن لها قط أن تمتلك ناصيتها في الصف. وقد لاحظنا تبدلاً جذرياً مماثلاً يطرأ لدى بنت صغيرة في السابعة من العمر. فتداركاً لتأخرها المدرسي أخذت دروساً خصوصية كان سلوكها في أثنائها سوياً وطليقاً، لا تشوبه شائبة من كفٍّ. ولكن هذه النتيجة الموفقة لم تنعكس على عملها في الصف حيث كانت الدروس تجري على نسق واحد لا يتغير. فهاتان التلميذتان ما كانتا تحرزان تقدماً إلا عندما تنعدم إمكانية المقارنة بين عملهما وعمل سائر التلاميذ. وعلى هذا المنوال نفسه ما كان يسع مريضي الصغير أن يشارك أقرانه في اللعب إلا إذا كانوا يصغرونه ولا يكبرونه سناً. وإن هؤلاء الصغار يسلكون كما لو أن أنشطتهم تخضع لتقييدات خارجية وداخلية معاً، ولكن هذه الأنشطة تتوقف من تلقاء نفسها في الواقع في كل مرة كان من المحتمل فيها أن تتمخض عن انطباع ما غير



مستحبّ. وقد دلتنا دراسة الأنوثة[1] أن موقف هؤلاء الأطفال النفسي يماثل بصفة عامة موقف البنات الصغيرات في فترة حاسمة بعينها من تطورهن. فالبنت الصغيرة تقلع في طور معيَّن، وبدون أن يكون في ذلك أي دور للخوف من القصاص أو لبعض الهواجس الأخلاقية، عن الاستمناء البظري، واضعة بذلك حداً لجهودها في سبيل الفوز بالذكورة. فهي إذ تقارن نفسها بالصبيان، الأحسن منها تجهيزاً للاستمناء، تصاب في كبريائها وعزّة ذاتها، فلا تعود ترغب في أن يذكّرها تكرار الأفعال الاستمنائية بدونيتها هذه باستمرار.

على أننا نخطئ لو اعتقدنا أن أشباه هذه التقييدات لا يفرضها الأنا على نفسه إلا رغبة منه في تحاشي الكدر الناجم عن حكمه على نفسه بالدونية بالمقارنة مع الآخرين، أي تحاشي الخيبة وثبوط الهمة. ففي أثناء تحليل صبي في العاشرة من العمر، تسنى لي أن ألاحظ، في صورة عرَض ولدافع مناقض تماماً، تكرار اللجوء إلى الأسلوب عينه في تحاشي حصر واقعي حقيقي. ففي مرحلة معيَّنة من مراحل التحليل صار الطفل لاعباً لامعاً في كرة القدم. وقد أعجب الصبيان الكبار في مدرسته بلعبه وقبلوه، برغم صغر سنه، في فريقهم، مما أفعم نفسه فرحاً. وبعيد ذلك بوقت وجيز روى لي الحلم التالي: «كان يلعب بكرة القدم، فقذف أحد الكبار بالكرة بقوة هائلة بحيث ما أتيح له الوقت لكي يقفز فوقها حتى لا تصيبه». وقد أفاق الصبي من نومه محصوراً. وأبان تأويل الحلم أن الزهو الذي استشعره الصبي أول الأمر بانضمامه إلى الكبار ما لبث أن انقلب بسرعة إلى حصر. فقد صار يخشى أن يجنح رفاقه الكبار إلى العدوانية حياله بسائق الغيرة من براعته في اللعب. وهكذا استحال السرور الذي ابتعثه في نفسه نجاحه في اللعب إلى حصر. وقد تكررت الموضوعة نفسها بعد مدة وجيزة في تخييل من

١ - انظر فرويد، ١٩٣٢: NEUE FOLGE DER VORLESUNGEN ZUR EIN FUHRUNG IN DIE PSYCHOANALYSE، الأعمال الكاملة، م١٥ (انظر الترجمة العربية في: **محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي**، **المؤلفات شبه الكاملة**، ج ٢. «م».



تخييلاته. ففيما كان على وشك الإغفاء رأى الصبيان يتهيأون لرميه بكرة تستهدف قدميه. وقد انقذفت الكرة الكبيرة نحوه بقوة. فانتفض وهو في فراشه، ورفع قدميه في الهواء اتقاء للضربة. والحال أن التحليل أماط اللثام عن أن القدمين اتخذتا لديه، عن طريق الأحاسيس الشمية وفكرة التصلب والاعوجاج، إلخ، دلالة خاصة كممثلتين لعضوه التناسلي. وقد كانت النتيجة أن كبح ذلك الحلم وهذا التخييل ولعه الحديث العهد باللعب، فخفَّت براعته وهبط بسرعة التقدير الذي أحيط به في المدرسة. فكيف نفسّر هذا التراجع؟ على النحو التالي: «لا حاجة إلى ضربي بالكرة على قدميّ، فأنا لم أعد على كل حال لاعباً بارعاً».

لكن السيرورة لم تتوقف عند هذا الانكماش الطارئ على أناه في اتجاه واحد. ففيما طفقت المواهب الرياضية للصبي الصغير تتراجع، تطور فجأة جانب آخر من شخصيته: حبه الفطري للأدب. فقد طاب له أن يعكف على الكتابة، وأن يتلو على مسامعي أشعاراً كان بعضها من نظمه، وأن يطلعني على قصص قصيرة كان ألَّفها وهو لا يزال في السابعة، وأن يرسم خططاً طموحة للمستقبل يتصور فيها نفسه كاتباً لامعاً. لاعب كرة القدم استحال إلى مؤلف. في إحدى جلسات التحليل قدَّم لي رسماً بيانياً عن كيفية تصوره لمختلف الهوايات والمهن الذكرية. وقد شغل الأدب مساحة واسعة في وسط الرسم. وفيما حوله اصطفت مختلف العلوم في شكل دائري؛ أما المهن غير الفكرية فقد أشير إليها بنقاط بعيدة. وفي زاوية عليا من الصفحة، وفي طرفها، وضع نقطة تشير إلى الألعاب الرياضية التي كان شُغف بها قبل وقت وجيز شغفاً شديداً؛ وكانت النقطة مستدقة في الصغر وتنمّ عن الازدراء البالغ الذي بات المريض يكنّه لمثل هذه المتع. وإنه لمن المفيد أن نلاحظ كيف أن تقييمه الشعوري للأنشطة المختلفة وقع تحت تأثير الحصر في زمن لا يجاوز أياماً معدودات، وبفعل عملية هي أقرب ما تكون إلى التبرير شبه العقلاني. وفضلاً عن ذلك، حقَّق في تلك الفترة عينها إنجازات أدبية مرموقة. فالفراغ الذي أحدثه في وظائفه الأنوية إيقافُه لنشاطه الرياضي عاد فامتلأ من جديد عن طريق آخر. وكما كان لنا أن نتوقع، أظهر التحليل أن خوفه الحادّ من انتقام محتمل من جانب أقرانه الكبار إنما ينبع من تنشيط متجدِّد لتنافسه مع أبيه.



بنت صغيرة في العاشرة من العمر دعيت إلى أول حفلة راقصة لها، فراحت تستعدّ لها بقلب عامر بالوعود. وبعناية كبيرة اختارت ثوبها وحذاءها الجديدين، متوهمة أنهما سيخطفان الأبصار. وفي الحفل تولعت حالاً بأجمل الفتيان الحاضرين وأصغرهم وآنقهم وأوسمهم. وشاءت المصادفة أن تكون كنية الفتى، الذي ما كانت تعرفه إطلاقاً من قبل، مطابقة لكنيتها هي، فتوهمت أن رابطة خفية تجمع بينهما. وأخذت تتقرب إليه، ولكنه لم يلقِ إليها بالاً. بل إنه بعد أن راقصها لمرة واحدة راح يعيب عليها خرقها وعدم رشاقتها. وكان لهذه الخيبة في نفسها وقع الصدمة والمهانة. وابتداء من ذلك اليوم صارت تتحاشى ذلك النوع من الحفلات، ولا تعير الملابس اهتماماً، ولا ترغب في أن تتجشم عناء تعلّم الرقص. ولفترة وجيزة من الزمن ظلت تجد بعض اللذة في التفرج على الآخرين وهم يرقصون، وكانت ترمقهم في وقار وبدون مشاركتهم، وترفض كل دعوة إلى الرقص. ورويداً رويداً أحاطت كل هذا الجانب من حياتها بازدراء عميق. ولكنها في الوقت نفسه، ومثلها مثل لاعب كرة القدم، عوَّضت عن انكماش أناها هذا: فإذ هجرت اهتماماتها الأنثوية نهدت إلى التفوق في المضمار الفكري؛ وبالفعل، تحسن أداؤها، ففازت عن هذا السبيل بتقدير العديدين من الصبيان الذين في مثل سنها. وجاء التحليل اللاحق ليكشف أن الفشل الذي منيت به حيال الفتى الذي يحمل كنيتها نفسها عنى بالنسبة إليها تكراراً لخبرة رضّية من خبرات طفولتها. وهنا أيضاً لم يكن العامل الذي تأدى بأناها إلى الهرب حصراً ولا شعوراً بالذنب، وإنما ذلك الكدر الشديد الذي اعتمل فيها من جراء الفشل.

لنعد الآن، مرة أخرى، إلى الفارق بين الكفّ وانكماش الأنا. فكل عصابي يعاني من الكفّ يدافع عن نفسه ضد تحقيق حفزة غريزية محرَّمة، أي ضد الكدر الذي يبتعثه خطر داخلي. وحتى في الحالات التي يبدو فيها الحصر والدفاع مرتبطين بالعالم الخارجي، كما في الأرهبة، فإنما من نفسه يكون العصابي خائفاً؛ فهو يتحاشى الخروج إلى الطريق حتى لا يتعرض فيه لإغواءاته الذاتية السالفة. وهو يهرب في مواجهة حيوان حصره، لا للإفلات من الحيوان نفسه، ولكن ليهرب من حفزاته العدوانية ومن نتائجها، تلك الحفزات التي قد تعاود اندفاعها



من جراء لقاء ما. ومن جهة أخرى، إن الأنا بانكماشه يتحاشى حدوث انطباعات راهنة مؤلمة من شأنها أن تبتعث من الماضي انطباعات مماثلة أخرى. وبالرجوع إلى الموازاة التي أقمناها بين الكبت والإنكار، سنقول إن كل الفارق بين الكفّ وانكماش الأنا يتمثل في أن الأنا يدافع عن نفسه في الحالة الأولى ضد سيروراته الداخلية، بينما يهبّ للذود عن نفسه في الحالة الثانية ضد التنبيهات الخارجية.

تترتب على هذا الفارق الأساسي فوارق أخرى بعد. فخلف النشاط المعلَّق والمقيَّد عصابياً تختفي رغبة غريزية. والعناد الذي تنزع به كل حفزة من حفزات الهذا إلى بلوغ الهدف القمين بإشباعها يحوّل عملية الكفّ البسيطة إلى عرض عصابي ثابت تدور فيه رحى صراع دائم بين رغبة الهذا وتمرد الأنا. وفي هذا الصراع يستنفد الشخص احتياطيه من الطاقة. فحفزات الهذا عنده تلتحم، بغير ما تعديل يذكر، برغبته في إجراء عمليات حسابية وفي إلقاء محاضرات وفي العزف على الكمان، إلخ، بينما يجاهد أناه بعناد مماثل ليمنع هذه الأنشطة أو على الأقل لينتقص من قيمتها.

عندما يحدث انكماش في الأنا من جراء حصر واقعي أو كدر فعلي، فإن النشاط لا يُلجم بالطريقة ذاتها. فما يحتل هنا مكانة الصدارة ليس الفعل ذاته، وإنما اللذة أو الكدر اللذان يتأدى إليهما. فالأنا إذ يسعى وراء اللذة ويجاهد لتحاشي الكدر، يمارس وفق هواه جميع أنشطته المتاحة؛ وإذ يعزف عن كل نشاط من شأنه أن يعود عليه بالكدر أو بالحصر، يعزف أيضاً عن الرغبة في ممارسته. وبذلك يصرف اهتمامه عن طائفة بكاملها من الأنشطة، فتكون النتيجة أنه يمني بالفشل في هذه المجالات، فيوجّه طاقاته كلها من ثم نحو مجالات مناقضة إلى أقصى حدّ ممكن للمجالات الأولى. وعلى هذا النحو يصير لاعب كرة القدم شاعراً. وتغدو الراقصة الصغيرة الخائبة الأمل تلميذة متفوقة. وطبيعي أن الأنا، بمسلكه هذا، لا يستحدث لنفسه قدرات جديدة، وإنما يكتفي بأن يستخدم القدرات التي كان يحوزها من قبل.

إن انكماش الأنا، من حيث هو طريقة لتحاشي الكدر، لا يدخل، شأنه شأن



مختلف أشكال الإنكار، في باب سيكولوجيا الأعصبة؛ بل يمثّل فقط مرحلة سوية من مراحل نمو الأنا. فكل فشل في ميدان من الميادين كثيراً ما يُعوَّض عنه، بالنسبة إلى الأنا الغضّ العود واللدن، بإنجازات ونجاحات باهرة في ميادين أخرى. ولكن عندما يصلُب عود الأنا أو عندما لا يعود يحتمل الكدر فيتثبت قهرياً على الاستجابة الهروبية، تترتب من جراء ذلك عواقب وخيمة على تكونه. فإذ يهجر الأنا عدداً لا يستهان به من مواقعه يغدو أحادي الجانب، ويفقد قدراً أكبر مما ينبغي من اهتماماته، وتبهت قيمة أنشطته وتضمحل.

إن الفشل الذي آل إليه، في السنوات الأخيرة، العديد من التجارب التربوية مردّه، جزئياً، إلى استهانة نظرية بما لتحاشي الكدر من أهمية بالنسبة إلى الأنا الطفلي. وتنزع أصول التربية الحديثة إلى أن تمنح الأنا الذي هو قيد النماء لدى الطفل حرية أكبر في العمل، وفي المقام الأول اختياراً حراً لأنشطته واهتماماته. والمأمول من وراء ذلك تمهيد السبيل أمام نمو الأنا وتيسير مختلف وجوه الإسماء. لكن قد يعلّق الطفل، في مرحلة الكمون، على تحاشي الحصر والكدر قيمة أكبر من تلك التي يعلّقها على الإشباعات الغريزية المباشرة وغير المباشرة. وفي العديد الحالات، وعندما لا يتوفر له من يرشده، فإنه لا يختار من تلقاء نفسه مشاغله وأنشطته تبعاً لمواهبه ولقدرته على الإسماء، وإنما الذي يملي عليه اختياره بالأحرى هو حرصه على تحاشي الحصر والكدر بأقصر طريق ممكن. وعلى دهش كبير من المربي لا تتأدى حرية الاختيار هذه، في مثل هذه الحالات، إلى نمو في الشخصية، بل على العكس إلى إفقار للأنا.

إن التدابير الدفاعية ضد الكدر والخطر الفعليين، وهي التدابير التي ضربت عليها هنا ثلاثة أمثلة مختلفة، تُستخدم من قبل الأنا الطفلي، على ما فيها من خسارة له، باعتبارها وسيلة للوقاية من العصاب. فلكي يتحاشى الألم يمنع تمخُّض الحصر ويبتر نفسه بنفسه. لكن هذه التدابير الحمائية، من قبيل اللواذ بميدان فكري بعد الهرب من نشاط بدني أو من قبيل الجهود التي تبذلها امرأة مصممة على مضاهاة الرجال أو كذلك من قبيل امتناع الفرد عن الدخول في منافسة إلا مع من هم أضعف منه، لا تلبث في طور لاحق من العمر أن تتعرض



لهجمات وإغارات شتى من الخارج. فقد يتفق أن يضطر الفرد إلى تغيير نمط حياته في أعقاب فاجعة أو كارثة ما: فقدان شخص محبوب، أو مرض، أو فاقة، أو حرب، إلخ، وعندئذ يجد الأنا نفسه من جديد في مواجهة مواقف الحصر الأصلية. ومن الممكن أن يتأدى فقدان الحماية المألوفة ضد الحصر، مثله في ذلك مثال الحرمان من أي إشباع غريزي معتاد، بصورة مباشرة إلى تكوين عصاب.

نظراً إلى قلة نصيب الطفل من الاستقلال، فإن الراشدين الكبار يمكنهم، بحسب مشيئتهم، أن ييسّروا أو يخنقوا لديه تكوين عصاب. فالطفل الذي يداوم على مدرسة عصرية لا يُفرض عليه فيها أي إكراه والذي لا يتعلم شيئاً بل يزجي وقته في التفرج على الآخرين أو الخربشة على الورق،سيصير «مكفوفاً» إذا ما أخضع ذات يوم لنظام مدرسي أكثر صرامة. صحيح أن الطفل حينما يُرغم على تعاطي نشاط لا يسيغه قد يذعن له في استسلام، ولكن عجزه عن الإفلات من طوق الكدر يرغمه أيضاً على طلب طرق خلاص أخرى. ومن جهة أخرى، إن كل كفّ أو كل عرض حتى ولو كانا مكتملي التمخض يمكن أن يتعدلا تحت تأثير حماية من الخارج. فالأم التي تقلقها حالة طفلها وتجرحها في كبريائها تسعى إلى حمايته بتجنيبه المواقف المؤلمة في العالم الخارجي. ومن هنا يكون سلوكها قريباً من سلوك المعاني من الرهاب حيال نوبات حصره. فهي بتقييدها الأريب لحرية طفلها في العمل تتيح له أن يتحاشى الألم ويفلت من طوقه. وأغلب الظن أن هذا المجهود المشترك من قبل الأم والطفل معاً هو الذي يفسّر غياب الأعراض في العديد من حالات العصاب الطفلي. وفي مثل هذه الحال سيكون من المتعذر على أي كان أن يصدر حكماً موضوعياً على مدى خطورة الأعراض لدى طفل من الأطفال ما لم يُحرم هذا الطفل من الحماية التي يفترش ظلها.



القسم الثالث

أمثلة على طرازين من الدفاع


مكتبة
الفكر الجديد

الفصل التاسع

التماهي مع المعتدي

من اليسير نسبياً أن نميط اللثام عن أساليب الدفاع المألوفة ما دام الأنا يستخدم كل أسلوب منها على حدة، وفي غمرة كفاحه ضد خطر بعينه. فإذا التقينا بإنكار عرفنا أن الخطر خطر خارجي. وإذا اكتشفنا كبتاً، فمعنى ذلك أن الأنا يدافع عن نفسه ضد إثارات غريزية. ولكن عندما نواجه كفاً وانكماشاً للأنا، وهما أسلوبان متشابهان للغاية في الظاهر، فإن التمييز بين الصراع الداخلي والصراع الخارجي يغدو أقل يسراً. وتزداد الأمور تعقيداً عندما تتداخل وتتشابك عدة سيرورات دفاعية، أو عندما تستخدم الآلية الواحدة تارة ضد الخارج وطوراً ضد الداخل، كما هو واقع الأمر في آلية التماهي. وبالفعل، يسهم التماهي في تكوين الأنا الأعلى ويضطلع من ثم بدور مهمّ في قمع الدوافع الغريزية. ولكنه، إذ يأتلف مع آليات أخرى، يشكل في بعض المناسبات، كما سأحاول أن أثبت ذلك في الصفحات التي تلي، واحدة من أقوى وسائل الكفاح ضد المواضيع الخارجية المولِّدة للحصر.

يروي أوغست آيخورن[1] قصة تلميذ أتيحت له، بصفته عضواً في مجلس التعليم العام، الفرصة لدراسة حالته. فقد اعتاد هذا الطفل على «تلعيب» وجهه. وقد اشتكى معلمه من الموقف الشاذ للصبي عندما يُوجَّه إليه اللوم والتقريع. ففي مثل هذه المناسبات كان يقوم بـ «تلعيب» وجهه على نحو لا يملك معه الصفّ عن بكرة أبيه إلا أن ينفجر ضاحكاً. وفي رأي المعلم أن هذا السلوك لا تفسير له

١ ـ أوغست آيخورن: مربٍّ ومحلل نفسي نمساوي (١٨٧٨ ـ ١٩٤٩). ترأس عدة مراكز تربوية مختصة باستقبال المراهقين المتحدرين من أسر فقيرة. وتولى رئاسة **الجمعية الفيناوية للتحليل النفسي** بعد الحرب العالمية الثانية. من مؤلفاته: **التربية غير العنيفة**. «م».



إلا بواحد من اثنين: إما أنه سخرية واعية متعمدة، وإما أنه عرّة TIC. وقد تأكدت للحال صحة المعلومات التي قدّمها المعلم، إذ تكرر تلعيب الغلام لوجهه في أثناء المداولة. ولكن المقابلة بين آيخورن والمعلم والتلميذ كشفت سر الحالة. وبالفعل، فيما كان آيخورن يتفرس بانتباه في وجه كل من المعلم والتلميذ لاحظ أن «تلعيبات» الغلام لا تعدو أن تكون صورة كاريكاتورية عن قسمات المعلم الغاضب. فالغلام، الذي لم يكن أمامه مناصّ من أن يواجه تأنيبات المعلم، كان يكبح حصره بمحاكاته لاإرادياً هذا الأخير: فهو يتبنى غضبه إذا صحّ التعبير؛ وإذ يصغي إلى تقريعاته يتمثل أيضاً، بدون أن يعي ذلك، تعابير وجهه. إن «تلعيب» الوجه يكافئ هنا تماهياً مع الموضوع الخارجي المرهوب.

لنستذكر حالة البنت الصغيرة التي كانت تحاول أن تتغلب، بالسحر والتعزيم، على العذابات التي يسبّبها لها حسدها القضيبي. فقد كانت تستخدم عن عمد ودراية آلية يستخدمها غلامنا لاإرادياً. ففي البيت ما كانت تجرؤ على اجتياز الرواق في العتمة خوفاً من الأشباح، ولكنها اهتدت على حين فجأة إلى حيلة أتاحت لها أن تسيطر على خوفها. فقد صارت، عندما تجتاز الرواق، تقوم بطائفة من الحركات الغريبة. ولم يمضِ وقت طويل حتى كشفت بلهجة ظافرة لأخيها الصغير سرَّ انتصارها على الحصر؛ فقالت له: «لا حاجة بك إلى أن تخاف في الرواق: فما عليك إلا أن تتظاهر بأنك أنت الشبح الذي يمكن أن يطلع عليك». إن اصطناع الحركات والإيماءات يكافئ هنا إذاً تماهياً مع الموضوع الخارجي المرهوب.

ليست حالة هذين الطفلين فريدة ولا تمثّل في الواقع سوى نمط طبيعي ومـألوف وشائع من أنماط السلوك لدى الأنا البدائي. وهذا أمر أفادتنا به منذ زمن بعيد دراسة استحضار الأرواح وتعزيمها في طقوس البدائيين الدينية. وفي عدد كبير من الألعاب الطفلية أيضاً يتأدى انقلاب الذات هذا إلى موضوع إلى تحوُّل الحصر إلى شعور مستطاب بالأمن. وذلك ما يتيح لنا أن ننظر من زاوية جديدة إلى الألعاب التي يقوم فيها الطفل بأداء دور شخص غيره.

غير أن المحاكاة الجسمانية لعدو ما لا تمثّل من سيطرة إلا على عنصر واحد من



عناصر موقفٍ حصَرٍ مركب ومعقد. وتفيدنا المشاهدة أن العناصر الأخرى يتحتم السيطرة عليها هي أيضاً.

كان على مريضي الصغير، ابن السادسة الذي تكلمت عنه عدة مرات، أن يذهب إلى طبيب الأسنان. في المرة الأولى جرى كل شيء على أتم ما يرام، إذ لم يكن العلاج مؤلماً؛ فراح الطفل يسخر مظفَّراً من جميع أولئك الذين يخشون الذهاب إلى طبيب الأسنان. ولكن ذات يوم حضر الصبي الصغير إلى منزلي لجلسة التحليل متعكِّر المزاج إلى أقصى حدٍّ. فقد أوجعه طبيب الأسنان، وبدوري قابلني بالمشاكسة والعداوة وصبَّ مشاعره على الأشياء التي في الغرفة. كانت ضحيته الأولى ممحاة طلب إليّ أن أعطيه إياها، فلما رفضت تناول مطواة وهمّ بتقطيعها إلى نصفين. ثم طمع في مكبّ كبير من الخيطان، فأبدى عن رغبته في الحصول عليه وراح يصف لي كيف سيستخدمه ليكون زماماً لحيواناته؛ فلما أبيت إعطاءه المكب بكامله، أمسك بالمطواة واقتطع منه خيطاً طويلاً لم يفد منه في شيء، بل على العكس سرعان ما راح يعمل فيه تقطيعاً إلى قطع صغيرة. وأخيراً رمى بالخيط أيضاً ليتحول إلى الأقلام التي راح يبريها إلى ما لا نهاية بمطواته، ثم يقصف رصاصها بأسنانه، ليعود فيبريها من جديد. وسيكون من الخطأ القول إنه «يلعب لعبة طبيب الأسنان»: فهو لم يتقمص دوره. فالطفل هنا لا يتماهى مع المعتدي عليه، وإنما مع عدوانه.

قدِم الطفل نفسه لرؤيتي مرة أخرى بعد حادثة طفيفة وقعت له. ففي أثناء لعبة رياضية، في المدرسة، ارتطم بكل اندفاع جسمه بالقبضة الممدودة لمعلم الألعاب. كانت شفته تنزف، ودموعه تسيل، ولكنه حاول أن يخفي بيديه حرجه ودموعه. أردت أن أعزِّيه وأن أخفِّف عنه وأهدِّئه، ولكنه عندما غادرني كان لا يزال في حالة تثير الشفقة. على أنه رجع في اليوم التالي وقد ارتدى زياً عسكرياً وشمخ بقامته واعتمر خوذة، وعلى خصره سيف، وفي يده مسدس. فلما لحظ دهشتي لهذا التحول، اكتفى بالقول: «أردت أن أكون في زي العسكري للعب معك!». غير أنه بدل أن يلعب جلس يكتب رسالة إلى أمه: «عزيزتي ماما، من فضلك، من فضلك، من فضلك، من فضلك، لا تنتظري حتى عيد الفصح لتعطيني



المطواة التي وعدتني بها!». هنا أيضاً لا يبيح لنا شيء أن نجزم بأنه أراد، كيما يظهر على الحصَر الذي ابتعثته فيه حادثة الأمس، أن يمثّل دور الأستاذ الذي ارتطم به. فما حاكاه هذه المرة ليس عدوان هذا المعلم. وإنما الأسلحة والعدّة بصفتها من مستلحقات الرجولة هي التي ترمز، على نحو لا يحتمل لبساً، إلى قوة المعلم وتتيح للطفل، شأنها شأن مستلحقات الأب في التخييلات عن الحيوانات، أن يتماهى مع ذكورة الراشد، وأن يذود عن نفسه بالتالي ضد الإذلالات النرجسية وضد جميع المنغّصات والمزعجات.

إن هذه الأمثلة توضح لنا وقائع وسيرورات معروفة ومألوفة. فالطفل يستدمج خاصية من خصائص موضوع حصره، مما يتيح له أن يسيطر على خبرة طارئة مثيرة للحصر. وهنا تأتلف آلية التماهي أو الاستدماج مع آلية مهمة أخرى. فالطفل، إذ يلعب دور المعتدي أو يستعير مستلحقاته أو يحاكي عدوانه، يتحول من مهدَّد إلى مهدِّد. وقد تضمن كتاب **ما وراء مبدأ اللذة** وصفاً تفصيلياً لهذا الانتقال من دور سالب إلى دور موجب بغية التوصل إلى السيطرة على خبرات طفلية مستكرهة أو راضّة. يقول فرويد: «ولو أن طبيباً فحص حنجرة طفل أو أجرى له عملية جراحية بسيطة، فلنا أن نكون على ثقة أن هذه التجربة المؤلمة ستكون هي مضمون اللعبة التالية. ولكن ليس يحقّ لنا من جانب آخر أن نغفل عن وجود مكسب من اللذة متأتٍ من مصدر آخر. فالطفل إذ ينتقل من سلبية التجربة إلى إيجابية اللعبة، يبادر إلى أن يُنزل برفيق له في اللعب ما عاناه هو نفسه من مرارة، ويثأر على هذا النحو لنفسه من خلال هذا الشخص البديل مما نزل به من ألم[٢]». وما يصدق على اللعب يصدق أيضاً على وجوه أخرى من سلوك الطفل. ففي حالة العصبي الذي يقوم بتلعيب وجهه، وفي حالة الساحرة الصغيرة، لا ندري ما المصير الذي يمكن أن تؤول إليه التهديدات التي تقمصاها، لكننا نجد في حالة الصبي الصغير الآخر أن العدوانية المأخوذة عن طبيب الأسنان وعن معلم الرياضة موجهة ضد العالم الخارجي بأسره.

٢ ـ فرويد، ١٩٢٠: **ما وراء مبدأ اللذة** JENSETIS DES LUSTPRINZIPS ، الأعمال الكاملة، م١٣، ص١٥.



إن ظاهرة التحول هذه تدهشنا بقدر أكبر عندما يكون مردّ الحصَر لا إلى حدث ماضٍ بل إلى حدث مستقبلي. لقد رويت في مكان آخر قصة صبي صغير اعتاد أن يدقّ وكأنما به صمم جرس «بيت الأطفال» الذي كان يقيم فيه. فإذا ما فُتح له الباب، أنحى باللائمة الشديدة على الخادمة لتباطؤها وعدم سماعها دقات الجرس. وفي اللحظة الفاصلة بين دقة الجرس وبين اشتعال غضبه كان يستبدّ به الخوف من جراء التأنيبات التي يمكن أن توجَّه إليه لدقّه الجرس على ذلك النحو غير اللائق. ولهذا كان يوبِّخ الخادمة حتى قبل أن يتاح لها الوقت لتفتح فاها بالشكوى. وكانت حدة تقريعاته «الوقائية» تتناسب طرداً مع شدة حصَره. فهو يهاجم الشخص عينه الذي يتوقع منه عدواناً، وليس بديلاً ما. والمبادلة بين المهاجِم والمهاجَم تبلغ في هذه الحالة أقصى مداها.

تسوق لنا جيني فالدر[٣]، من خلال وصفها لحالة مريض من مرضاها الصغار، له من العمر خمسة أعوام، مثالاً حياً على هذه السيرورة[٤]. فحينما أوشك التحليل أن يطرق مسألة الاستمناء والتخييلات المصاحبة له جنح الطفل، وكان لا يزال إلى ذلك الحين خجولاً مكفوفاً، إلى العدوانية الضارية على نحو مباغت. فموقفه السلبي في العادة انقلب إلى نقيضه، وسماته الطبعية الأنثوية اختفت تماماً. وفي الجلسات صار يحاكي أسداً يزار وينقضّ على المحلِّلة، أو يصول ويجول وبيده سوط، ويمثِّل دور كرامبوس[٥]؛ أي يفرقع بسوطه ويتوعد به الناس، وهو على الدرج أو في بيته أو عند المحلِّلة. وقد اشتكت أمه وجدته من أنه يحاول أن يضربهما في وجههما. وبلغ القلق بالأم أوجه عندما عنّ في باله أن يلجأ إلى التهديد بسكاكين المطبخ. وقد كشف التحليل ساعتئذ أن اندفاعة الطفل العدوانية لا تناظر البتة رفعاً للكف المضروب على دوافعه الغريزية. فتحرُّر

٣ ـ جيني فالدر: محلّلة نفسية نمساوية (١٨٩٨ ـ ١٩٨٩). اشتهرت بمركز الأطفال الذي أنشأته باسمها. «م».

٤ ـ مداخلة في ندوة التحليل النفسي عن معالجة الأطفال في فيينا.

٥ ـ كرامبوس: في القصص الشعبي الألماني شيطان يصحب القديس نيقولاوس ويعاقب الأطفال الأشقياء. «م».



نزعاته الذكرية كان لا يزال أمامه شوط طويل، وكل ما يعاني منه كان حصَراً ليس إلا. وبالفعل، كان يخشى، بعد أن استاق التحليل إلى شعوره أنشطته الجنسية الماضية والحاضرة واضطره إلى الإقرار بها، أن يلقى عقاباً. فخبرته قد علَّمته أن الكبار يغضبون إذا ما تعاطى طفل مثل تلك الأعمال: فهم يزجرونه، ويصفعونه، ويضربونه بالسوط، هذا إن لم يقتطعوا من جسمه شيئاً بالسكين. وعلى هذا، حينما كان المريض الصغير ينتحل دوراً إيجابياً، فيزأر ويشهر سوطاً أو سكيناً، فإنما كان يمثِّل عقاباً مرهوباً ويستبقه. لقد استدخل إذاً عدوان الكبار، هؤلاء الذين كان يستشعر الذنب أمامهم، وصار يوجِّه إيجابياً عدوانيته ضدهم. وكلما قارب التحليل أن يطرق الموضوعات التي كان يعدّها خطرة، كانت هذه العدوانية تتزايد. وفي نهاية المطاف أفصح عن المكتوم من أفكاره ومشاعره المحرَّمة، وبعد نقاش وتأويل وتفسير ترك لدى المحلِّلة كرباج كرامبوس الذي لم تعد به إليه حاجة والذي ما كان يرضى قبلئذ أن يتخلى عنه لحظة واحدة. وزالت حفزته القهرية إلى ضرب الآخرين في وقت واحد مع زوال خوفه من أن يُضرب.

إننا نتعرف في هذا «التماهي مع المعتدي» طوراً ملحوظاً وشائعاً بما فيه الكفاية لدى الفرد في مجرى النمو السوي لأناه الأعلى. فالصبيَّان اللذان تكلمنا عنهما خطوا خطوة حاسمة على طريق تكوين هذه الهيئة الأخلاقية عندما تماهيا مع التهديدات الصادرة عن الكبار: وعلى هذا النحو استدخلا انتقادات الآخرين. فالطفل إذا ما فتئ يستدخل ويستدمج صفات القائمين على تربيته، وإذا عمل باستمرار على تبني خصائصهم وآرائهم، فإنما يقدِّم بذلك بصورة متواصلة للأنا الأعلى المادة اللازمة لنموّه وتطوره. بيد أن الطفل لا يحمل بعد، في ذلك الطور من العمر، على محمل الجدّ الكبير تكوين الهيئة الأخلاقية. فالنقد المستدخل لا يحوَّل مباشرة إلى نقد ذاتي. وكما رأينا في المثالين الآنفي الذكر، فإن هذا النقد يبقى منفصلاً عن نشاط الطفل المستحقّ للشجب ليوجَّه من جديد إلى العالم الخارجي. فعن طريق سيرورة دفاعية جديدة يعقب التماهيَ مع المعتدي هجومٌ مباشر يشنّ ضد العالم الخارجي.

ربما كان مثال آخر أكثر تعقيداً حقيقاً بتيسير فهم هذه السيرورة الدفاعية



الجديدة. صبي صغير في أوج عقدته الأوديبية عمد إلى استخدام الآلية المشار إليها ليتغلب على تثبيته على أمه. فإذا بعلاقاته الطيبة معها يتعكر صفوها من جراء سورات غضب. فقد كان ينهال عليها بالتقريع الشديد، مكرراً في كل مرة، وعلى نحو غير مفهوم، مأخذاً واحداً لا يحول ولا يتبدل: إذ كان يشكو من الفضول الأموي. ولا يعسر علينا تأويل هذه الخطوة الأولى على طريق السيطرة على عواطفه المحرَّمة. فالصبي الصغير كان يتخيَّل أن أمه على علم بنزعاته الليبيدوية، وأنها لا تقابلها إلا بالرفض والسخط. وكان الصبي الصغير، في سورات غضبه، يكرر إيجابياً هذا السخط. ولكن خلافاً لما يحدث لدى مريض جيني فالدر الصغير، فإن مآخذه على أمه لم تكن من طبيعة عامة؛ فهو ما كان يلومها إلا على شيء واحد بعينه: فضولها. وقد دلَّ التحليل أن هذا الفضول لا يتصل إطلاقاً بالحياة الغريزية لأمه، وإنما بحياته الغريزية هو. وبالفعل، كان الدافع الغريزي الجزئي الذي يشقّ عليه أكثر من أي دافع غريزي آخر أن يظهر عليه في علاقته بأمه هو حبه للتلصص. وقلب الأدوار هنا كامل. فهو يتبنى لحسابه شعور أمه بالسخط، ويعزو إليها بالمقابل فضوله ومنزعه إلى الاستطلاع.

مريضة صغيرة كانت لا تفتأ، في أطوار بعينها من المقاومة، تنحي باللائمة الشديدة على محلِّلتها لتكتُّمها وتشتكي من غلوّها في التحفظ، وترهقها بالأسئلة عن أمور شخصية، وتتألم إذ لم تتلقّ من جواب. وما كان اللوم يتوقف إلا ليعاود ظهوره غبّ ذلك في صورة مقولبة وشبه آلية. وهنا أيضاً كانت السيرورة تتألف من مرحلتين. فبين الفينة والفينة كانت المريضة الصغيرة، التي يمنعها الكفّ من الإفضاء بما في نفسها، تغفِل عن عمد بعض الوقائع الحميمة وتمسك عن البوح بها. وكانت تعرف تماماً أنها، بعملها هذا، تخالف القاعدة التحليلية الأساسية وتهيِّئ نفسها لتلقي الملامة من المحلِّلة. وعندئذ كانت تستدمج هذه المآخذ المتخيَّلة وتقلبها، إذ تتبنى دوراً إيجابياً، ضد شخص المحلِّلة. كانت أطوار عدوانيتها تتطابق زمنياً بدقة مع أطوار صمتها. وقد وشت الانتقادات الموجَّهة إلى المحلِّلة بالخطيئة التي تقترفها هي نفسها: فجريرة التكتم ـ المقترفة في الواقع من قبل المريضة ـ كانت تُعزى على هذا النحو إلى المحلِّلة.



مريضة صغيرة أخرى كانت تعتريها بصورة دورية حالات من العدوانية البالغة الشدة. وكانت توزِّع كراهيتها بصورة شبه متساوية بيني أنا نفسي وبين والديها وأشخاص آخرين. كانت تشكو من شيئين على وجه الخصوص. أولهما أنها كانت تشعر دوماً، في أثناء تلك الأدوار، بأن ثمة شيئاً ما يُخفى عنها، شيئاً يعرفه الجميع باستثنائها هي، سراً تتحرق إلى الاطلاع عليه. وثانيهما أنها كانت تعاني من خيبة مريرة إذ تلاحظ ما لدى جميع الأشخاص الذين يحيطون بها من عيوب ونقائص داخلية. وكما في حالة المريضة التي كانت تلوم محلِّلتها على تكتمها لأنها كانت هي نفسها تتكتم، كانت أدوار العدوانية لدى هذه المريضة تحدث بصورة آلية في الأطوار التي تنزع فيها تخييلاتها الاستمنائية، التي لم تكن على وعي بها، إلى الدلوف إلى شعورها. فهي عندما تدين من تحبهم من الأشخاص، فإنما لأنها تتوقع أن يوبخوها على استمنائها الطفلي. كانت تتماهى تماماً مع هذا التوبيخ، فتقلبه ضد العالم الخارجي. والسر الذي يكتمه جميع الآخرين عنها هو سر استمنائها بالذات، هذا الذي تخفيه عن الآخرين وعن نفسها معاً. إذاً فعدوانيتها تناظر هنا أيضاً عدوانية الآخرين، و«السر» الذي لا يباح به لها هو انعكاس لكبتها بالذات.

تظهر لنا هذه الأمثلة الثلاثة الكيفية التي تنشأ بها هذه المرحلة الخاصة من مراحل نمو الأنا الأعلى. فحتى بعد أن يجري استدماج النقد الخارجي، فإن الجريرة المقترفة والخوف من العقاب لا يكونان قد ترابطا بعد في ذهن المريض. ففي اللحظة عينها التي يُستدخل فيها النقد، يُدفع بالذنب إلى العالم الخارجي، مما يعدل القول بأن آلية التماهي مع المعتدي يتمِّمها أسلوب دفاعي آخر، هو إسقاط الذنب على الخارج.

إن الأنا الذي ينمو في هذا الاتجاه الخاص، بفعل هذه الآلية الدفاعية، يستدمج السلطات التي تنتقده ويتمثلها جاعلاً منها أناه الأعلى. وبعدئذ يصبح قادراً على أن يسقط نحو الخارج حفزاته المحرَّمة. ويبدي هذا الأنا تشدداً وعدم تسامح نحو العالم الخارجي قبل أن يبدي قساوته تجاه نفسه. إنه يتعرف جيداً ما هو حقيق بالشجب والإدانة، لكنه يستخدم هذه الآلية الدفاعية ليحمي نفسه من منغِّصات



النقد الذاتي. والغضب الذي تستثيره فيه أفعال الآخرين المذنبة هي أشبه بتعبير مبكر وبديل عن شعوره الخاص بالذنب. وسخطه يتزايد بصورة آلية كلما ترسخ وعيه بذنبه الشخصي. ويؤلف هذا الطور من نمو الأنا الأعلى ضرباً من مرحلة تمهيدية نحو الأخلاقية. أما الأخلاقية بحق معنى الكلمة فلا تبدأ إلا عندما يتطابق النقد المستدخل، وقد تجسّد في مطالب الأنا الأعلى، مع إدراك الأنا لجريرته الشخصية. ومنذئذ تتجه نحو الداخل لا نحو الخارج قسوة الأنا الأعلى، ومن ثم يميل التشدد وعدم التسامح مع الآخرين إلى الاعتدال. ولكن حالما يتمّ بلوغ هذه المرحلة، يجد الأنا نفسه مكرهاً على أن يتحمل قدراً أكثر من «الكدر»، هو ذاك الذي يتأتى من النقد الذاتي والشعور بالذنب.

قد لا يتجاوز بعض الأفراد أبداً المرحلة الوسطى من تكوُّن أناهم الأعلى. وقد لا يتوصلون أبداً إلى استدخال السيرورة بتمامها. فعلى الرغم من إدراكهم لذنبهم يبقون على عدوانيتهم الشديدة إزاء العالم الخارجي. وفي مثل هذه الحالات يسلك الأنا الأعلى حيال العالم الخارجي مسلكاً معادلاً في صرامته وقسوته لمسلك الأنا الأعلى السوداوي إزاء أناه. وربما كان هذه التوقفات في تكوين الأنا تنمّ عن استعداد مجهض للحالات السوداوية.

إن «التماهي مع المعتدي» يمثّل، من جهة أولى، مرحلة تمهيدية في نمو الأنا الأعلى، كما يبدو أنه يمثّل من جهة ثانية مرحلة تمهيدية في نشوء الحالات البارانوئية. وإذا كانت آلية التماهي تمتّ بآصرة وثيقة إلى المرحلة الأولى، فإن آلية الإسقاط تأتلف مع المرحلة الثانية. بيد أن التماهي والإسقاط يماثلان نشاطين سويين للأنا، وإن تباينت نتائجهما تبعاً للمادة التي يتخذانها موضوعاً لهما.

إن الجمع الخاص بين الاستدماج والإسقاط، وهو ما أسميناه هنا بـ «التماهي مع المعتدي»، يمكن أن يعدّ سوياً ما دام الأنا لا يلجأ إلى استخدامه إلا ضد الأشخاص الذين لهم عليه بعض السلطان، أي ضمن نطاق جهوده لمواجهة مواضيع حصره. غير أن هذه الآلية الدفاعية عينها تتوقف عن أن تكون غير ضارة وتكتسب طابعاً باتولوجياً إذا ما انتقل استخدامها إلى الحياة الحبّية. فالزوج الذي



يسقط على زوجته رغبته الخاصة في خيانتها، فيلومها ويقرّعها بعد ذلك بشدة على الخيانة التي يعزوها إليها، يستدمج المآخذ التي يمكن أن توجّهها زوجته إليه ويسقط عليها جزءاً من الهذا العائد إليه(٦). ولكن لا يكون قصده من ذلك أن يدفع عن نفسه خطر عدوان خارجي المصدر، وإنما خطر تراخي الرابط الليبيدوي الموجب الذي يشدّه إلى زوجته، وهو التراخي الذي تتسبب فيه اضطرابات داخلية. وعلى هذا تكون النتيجة مختلفة أيضاً. فهذا المريض، بدل أن يتخذ موقفاً عدوانياً حيال المعتدين الخارجيين القدامى عليه، يتثبت تثبيتاً وسواسياً على زوجته، ويتخذ هذا التثبيت شكل غيرة مسقطة.

عندما يجري استخدام آلية الإسقاط هذه ضد حفزات حبّية من طبيعة جنسية مثلية، فإنها تأتلف مع آليات أخرى أيضاً. فالقلب إلى الضد ـ في الحالة التي نحن بصددها، قلب الحب إلى كره ـ يتمم عمل الاستدماج والإسقاط ويتمخض عن ظهور أهذية بارانوئية. وفي الحالتين كليتهما ـ الدفاع ضد حفزات حبية إما من طبيعة جنسية غيرية وإما من طبيعة جنسية مثلية ـ لا يكون اختيار الإسقاط حراً. فالمادة المتاحة للأنا هي التي تملي عليه طريقته في اختيار انفعالاته اللاشعورية الخاصة، وهو «الاختيار الذي يفضح أحياناً الانفعالات اللاشعورية المشابهة عند الشريك الآخر»(٧).

إن تحليل التماهي مع المعتدي يعيننا لا على وضع فروق نظرية بين أنماط سلوك مختلف الآليات الدفاعية فحسب، بل كذلك على تمييز نوبات العدوانية من نوبات الحصر في التحويل التحليلي. ففي الحالات التي يفلح فيها التحليل في أن يستاق إلى شعور المحلَّل حفزات عدوانية لاشعورية حقيقية، فإن الانفعال العاطفي المعاود انبعاثه يميل إلى التخفف عن طريق التصريف في التحويل. ولكن في الحالات التي تكون فيها عدوانية المريض ناجمة عن تماهيه مع الموقف

٦ ـ فرويد: **حول بعض الآليات العصابية في الغيرة والبارانويا والجنسية المثلية**، الأعمال الكاملة، م١٣.(انظر ترجمة هذا البحث في **العصاب، الذهان، الانحراف الجنسي، المؤلفات شبه الكاملة**، ج٤. «م».).

٧ ـ المصدر نفسه.



النقدي الذي يعزوه إلينا، فإن هذه العدوانية لن تخفّ من جراء «الانبعاث» أو من جراء «التصريف»، بل على العكس سوف تتزايد وتشتدّ ما دام الخطر مفروضاً على الحفزات اللاشعورية، ثم لا تختفي، كما لدى الصبي الصغير الذي أقرّ في نهاية المطاف باستمنائه، إلا بعد تبديد الخوف من العقاب والخوف من الأنا الأعلى.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل العاشر

شكل من الغيرية

تقطع آلية الإسقاط الصلة بين التمثلات الممثّلة للدوافع الغريزية الخطرة وبين الأنا، ومن هنا كان شبهها الكبير بآلية الكبت. فالأنظمة الدفاعية الأخرى، نظير النقل والقلب إلى الضد والقلب ضد الذات، تؤثر في الظاهرة الغريزية نفسها، بينما الكبت والإسقاط يحولان فقط دون أن تصير شعورية. فعن طريق الكبت تُردّ الفكرة المزعجة إلى الهذا، ولكنها تُطرد بالمقابل، بفعل الإسقاط، إلى العالم الخارجي. لكن توجد بين الإسقاط والكبت نقطة تشابه أخرى، وذلك من حيث أن أولى هاتين الآليتين (الإسقاط) لا ترتبط بموقف بعينه، بل يمكن أن تعمل سواء أمن جراء حصر فعلي أم من جراء الخوف من الأنا الأعلى أم من جراء الخوف من الدوافع الغريزية. ويذهب الكتاب من أنصار المدرسة التحليلية الإنكليزية إلى أن الطفل منذ الشهور الأولى لوجوده، وقبل أن يحدث لديه أي كبت، يقوم بإسقاط حفزاته العدوانية الأولى، وأن هذه الظاهرة تلعب لديه دوراً بالغ الأهمية من حيث أنها تحدِّد معالم شخصيته الطفلية ورؤيته للعالم.

مهما يكن من أمر فإن الأنا يلجأ بكثرة، على امتداد فترة الطفولة الأولى، إلى استخدام آلية الإسقاط. فالأطفال الصغار يستخدمونها ليتحاشوا الأفعال والرغبات القابلة لأن تصير خطرة وليلقوا بمسؤوليتها كلها على عاتق شخص أو عامل من الخارج. فـ «الطفل الغريب»، والحيوان، وحتى الأشياء الجامدة، تفيدهم في التملص من أخطائهم وإلصاقها بغيرهم. وعلى هذا النحو يتخلص الأنا الطفلي بصورة طبيعية تماماً من الحفزات والرغبات المحظورة بعزوه إياها بمنتهى السخاء إلى محيطه. وإذا كانت هذه الرغبات موجبة للعقاب، فإن الأنا يقدِّم «كبش فداء»، لتلقي العقوبة عنه، الأشخاص الذين أسقط عليهم هذه الرغبات.



وأما إذا كان الشعور بالذنب هو الذي أوجب اللجوء إلى آلية الإسقاط، فإن أنا الطفل يحوِّل اتهام الذات إلى اتهام للغير. وفي الحالتين كلتيهما، يتنكر الأنا الطفلي للمذنب المزعوم ويحكم عليه بمنتهى القسوة.

إن آلية الإسقاط لا تفعل على هذا النحو أكثر من أن تعكِّر صفو علاقاتنا الإنسانية عندما نسقط على الآخرين غيرتنا الذاتية ونعزو إلى الغير عدوانيتنا الخاصة. ولكن هذه الآلية عينها تفيد أيضاً في إقامة علاقات إيجابية، فتعزز بالتالي الروابط الإنسانية. لنطلق إذاً على هذا الشكل السويّ والأقل صخباً من الإسقاط اسم «التنازل الغيري»[1] عن دوافعنا الغريزية لصالح الآخرين.

لنضرب على ذلك مثالاً:

روت معلمة شابة، في أثناء تحليلها، أنه كانت تتسلط عليها، في طفولتها، فكرتان: أن تكون لها ملابس جميلة، وأن يكون لها عدد كبير من الأطفال. وكان يطيب لها بصورة شبه وسواسية أن تتخيَّل أن تينك الرغبتين قد تحققتا. لكن إلى جانب أمنيتيها الرئيستين هاتين، كانت تتوق أيضاً إلى أشياء كثيرة: فقد كان بودِّها لو تملك كل ما تملكه أترابها الأكبر منها سناً وأن تفعل كل ما يفعلنه. وكانت تصبو إلى أن تتفوق عليهن لكي تفوز بالإعجاب. وكانت تصدع رؤوس أترابها الكبيرات بصيحتها الدائمة: «أنا أيضاً!». وفضلاً عن ذلك، كان لأكثر رغباتها طابع الاستعجال وعدم الارتواء.

فلما كبرت وصارت راشدة كان ما يلفت الانتباه في موقفها تواضعها وبعدها عن الادعاء وقناعتها من الحياة بالنزر اليسير. وعندما قصدتني للتحليل، كانت لا تزال عازبة، ولا أولاد لها، وكانت ملابسها أقرب إلى الاتضاع وكثرة الاستعمال. وكان بادياً عليها البعد عن الحسد وعن الطموح ولم تكن تسعى إلى

١ - ALTRUISTISCHE ABTRETUNG، على حدّ تعبير إدوارد بيرينغ(*).

(*) إدوارد بيرينغ: محلل نفسي نمساوي (١٨٩٥ - ١٩٥٩). كان من أوائل الفريق الذي التفّ حول فرويد غداة الحرب العالمية الأولى. نشط في مجال نشر الدوريات التحليلية النفسية وغادر فيينا مع فرويد إلى لندن عام ١٩٣٨، ومنها بعد ثلاثة أعوام إلى بوسطن حيث ترأس جمعيتها التحليلية النفسية. كان من السباقين إلى القول بآلية فكّ الارتباط. «م».



الدخول في منافسة مع الآخرين إلا إذا أكرهتها على ذلك بعض الضرورات الخارجية. كان الانطباع الأول الذي تعطيه، وهذا متواتر الحدوث، أنها إنسانة تطورت في اتجاه معاكس تماماً لما كانت عليه في طفولتها، إنسانة كبتت رغباتها وأخلت مكانها في اللاشعور لتشكيلات ارتجاعية (على سبيل المثال، التواضع عوضاً عن التوق إلى انتزاع الإعجاب، والقناعة والبعد عن الطموح بدلاً من الخيلاء). وكان للمرء أن يتوقع أن يكتشف أن كبتها ناجم عن تحظير جنسي اتسع نطاقه، بدءاً من الحفزات الاستعرائية والرغبة في كثرة الأطفال، ليشمل مجمل حياتها الغريزية.

غير أن بعض الجوانب في سلوكها كانت تكذِّب هذا الانطباع الأول. فحينما أدلت بمزيد من التفصيل عن حياتها اتضح أن رغبتها القديمة كانت تلقى من التأكيد والتدعيم ما يتنافى واحتمال أن تكون وقعت تحت الكبت. فرفضها للجنسية لم يمنعها من أن تولي الحياة الحبِّية لصديقاتها وزميلاتها اهتماماً بالغاً. وكان يستهويها أن تكون واسطة لزواج الأخريات، وكانت تؤتمن على الكثير من أسرار العلاقات الغرامية. ولم يكن ابتعادها عن التأنُّق ليمنعها من الاهتمام بإيجابية بأناقة صديقاتها. وصحيح أنه ليس لها أطفال، لكن انشغالها بأولاد الأخريات كان يكشف عنه اختيارها لمهنتها بالذات. ويمكن القول إنها كانت من الحرص في منتهاه على أن ترتدي صديقاتها ملابس جميلة، وأن يكنّ محط الأنظار والإعجاب، وأن يصرن من الأمهات. وعلى هذا المنوال نفسه، وبرغم بعدها عن الوصولية والانتهازية، كانت طموحة بخصوص من تحبهم من الرجال وتتابع باهتمام فائق نجاحهم المهني. فلكأنها ما عادت تتمنى شيئاً لنفسها ولكأن كل شيء قد فقد أهميته في نظرها. وبالفعل، كادت حياتها إلى حين التحليل أن تكون خالية من أي حدث يستحق الذكر. فبدلاً من أن تستخدم طاقاتها لغايات شخصية، وضعتها بكاملها في خدمة الأشخاص الذين يهمّها أمرهم. كانت تشارك الآخرين حياتهم بدل أن تحيا حياتها الخاصة.

إن تحليل علاقاتها الطفلية بأبيها وبأمها ينوِّرنا تماماً بصدد طبيعة تحوُّلها الداخلي. فقد أفضى عزوف مبكر عن الدوافع الغريزية إلى تشكيل أنا أعلى بالغ



الصرامة، وجعل من رابع المستحيلات تحقيق أي رغبة من رغباتها. فشهوتها إلى امتلاك قضيب، وهي الشهوة التي استثارت بعض التخييلات الذكرية المبنية على الطموح، ورغباتها الأنثية في إنجاب أطفال وفي عرض نفسها، في عريها أو في أنيق لباسها، على أبيها وفي الفوز بإعجابه، كل ذلك ضربه الحظر، ولكنه لم يقع تحت الكبت. فكل دافع من دوافعها الغريزية أُسقط نحو الخارج على بعض البدائل. فتأنق صديقات مريضتنا أتاح لها الفرصة لتحويل حبها للتأنق إليهن، بينما وجدت رغباتها الليبيدوية وتخييلاتها الطموحية بالطريقة نفسها متصرَّفاً لها في الخارج. وكما كان تسنى لنا أن نشاهد في حالات أخرى، أسقطت على الآخرين حفزاتها الغريزية المحظورة. وحالتها لا تختلف عن حالات المرضى التي عرضتها في الفصل السابق إلا من حيث الصياغة اللاحقة. فالمريضة لم تنسلخ عن بديلاتها، بل تماهت معهن. وقد أبدت حيال رغبات أولئك البديلات تفهماً أكبر، بل شعرت بأنها قريبة إليهن إلى حدّ يبعث على الدهشة. وقد تسامحت إلى حدّ يبعث على العجب أيضاً مع بعض الدوافع الغريزية عند الأخريات، على الرغم من أن أناها الأعلى كان يدين هذه الدوافع عينها ويشجبها إذا كان انتماؤها إلى أناها هي نفسها؛ وكانت تشبع دوافعها الغريزية بمشاركتها في الإشباع الغريزي لدى الأخريات، وهو ما كانت تتيحه لها آليات الإسقاط والتماهي[٢]. وكان السلوك «التنازلي» الذي يقتضيه حظر دوافعها الغريزية الخاصة يتوارى حالما يكون المطلوب تحقيق الرغبات عينها بعد إسقاطها على شخص آخر. ولقد كان تنازلها لصالح الآخرين عن حفزاتها الغريزية الخاصة يصطبغ بصبغة الأنانية. ولكن الجهود التي كانت تبذلها لإشباع دوافع الآخرين الغريزية كانت تستتبع سلوكاً لا نجد مناصاً من وصفه بأنه غيريّ.

هكذا كان سلوكها كله يتَّسم بسمة هذا التحويل لرغباتها الخاصة والتنازل

٢ ـ انظر أيضاً ما يقوله بول فيدرن(*) بخصوص «التماهي بالتعاطف»، مجلة **إيماغو**، م٢٢، ١٩٣٦، ص ٣٣.

(*) بول فيدرن: محلل نفسي نمساوي (١٨٧١ ـ ١٩٥٠). كان من أوائل المقربين إلى فرويد. ترأس **الجمعية الفييناوية للتحليل النفسي** قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٨ فراراً من النازية. من مؤلفاته: **علم نفس الأنا والأذهنة**. «م».



عنها لصالح الأخريات؛ وكان من الممكن أن نتبيَّن سلوكها هذا بمنتهى الجلاء أيضاً عندما نحلل أحداثاً صغيرة من حياتها. ففي عامها الثالث عشر، مثلاً، تولعت سراً بحب صديق لأختها الكبيرة، وهي الأخت التي كانت فيما سبق موضوعاً لغيرتها الشديدة. كانت تتساءل بينها وبين نفسها عما إذا لم يكن الشاب يفضِّلها، بدوره، على تلك الأخت، وكانت لا تنفكّ تأمل أن تفوز منه بعلامة على حبِّه لها. وكان أن منيت عندئذ، كما حدث مراراً من قبل، بخيبة مذلة: فقد قدم الشاب ذات مساء على غير انتظار، ودعا أخت مريضتنا إلى الخروج معه. وفي التحليل تذكرت بوضوح كيف أنها طفقت، حالما زال أثر الصدمة، تبذل نشاطاً محموماً لتجلب إلى أختها كل ما يمكن أن يزيدها «جمالاً» في نزهتها تلك، وساعدتها بتلهف على ارتداء ملابسها، واستعادت، وهي تفعل ذلك، مرحها ونسيت تماماً أن المتعة ستكون من نصيب أختها، لا من نصيبها هي. هكذا تكون قد أسقطت على منافستها رغبتها الخاصة في أن تكون محبوبة ومحطَّ إعجاب، فوجدت في التماهي مع الموضوع المحسود إشباعها.

الظاهرة عينها تتكرر عندما يتصل الأمر بالعزوف عن الرغبة، لا بتحقيقها. كانت تحب أن تقدم أشياء طيبة للأطفال الذين يُعهد برعايتهم إليها وأن تدلِّلهم. وذات يوم شاهدت أماً تتأبى عن حرمان نفسها من قطعة من الحلوى لتعطيها لطفلها. ومع أن المريضة ما كانت هي نفسها تحفل بأطايب المائدة، فقد استثار لديها ذلك التأبي غضباً عارماً، فتبنَّت خيبة الطفل، مثلما كانت تبنَّت من قبل فرحة أختها. ولا ريب في أنها تنازلت للآخرين عن حقِّها في أن تحقق رغباتها بلا عائق.

هذه السمة الطبعية الأخيرة تبرز بمزيد من الجلاء بعد في سلوك مريضة أخرى من الطراز عينه. امرأة في مقتبل العمر، كانت على علاقات ودية ممتازة بحميها، صدر عنها ردّ فعل شديد الغرابة على وفاة حماتها. فقد تولت، مع نساء أخريات من الأسرة، توزيع ملابس المتوفاة. وخلافاً لسائر القريبات، رفضت أن تختصّ نفسها بأي قطعة من الثياب. ولكنها اختارت بالمقابل معطفاً لتهديه إلى نسيبة لها فقيرة. فلما أعربت أخت الراحلة عن رغبتها في الاحتفاظ بياقة الفرو التي تزيِّن



المعطف المشار إليه، ثارت ثائرة مريضتنا الشابة التي كانت حافظت على ذلك الحين على موقف متجرد ولامبالٍ. حوَّلت عدوانيتها كلها، المكفوفة في العادة، نحو أخت المرحومة وكان لها في نهاية المطاف ما أرادته: فلسوف تحصل نسيبتها على الهدية التي احتجزتها لها. وقد دلَّ تحليل هذه الحادثة أن بعض مشاعر الإثم هي التي منعت المرأة الشابة من أخذ أي شيء مما كان لحماتها. فاللباس يرمز في نظرها إلى تحقيق رغبة: أن تحلّ لدى حميها محلَّ المرحومة. ولهذا تنازلت وحوَّلت إلى نسيبة لها رغبتها في أن «ترث أمها». فلما فعلت ذلك استطاعت أن تعيش ملء تجربة الرغبة والإحباط، واقتدرت على فرض إرادتها، وهو أمر لم يحدث قط من قبل فيما يتصل بشخصها. فالأنا الأعلى، المسرف في تشدده إزاء الدوافع الغريزية الخاصة للمريضة الشابة، كان يوافق على الرغبة عينها عندما لا تعود مرتبطة بالأنا. وهكذا يكون السلوك العدواني، الملجوم في العادة، قد تناغم على حين بغتة مع الأنا عندما أصبح الأمر يتعلق بإشباع رغبة الغير.

إن في مستطاعنا أن نلحظ العديد من الحالات المشابهة في الحياة اليومية متى ما تركَّز انتباهنا على تلك الطرائق الدفاعية المبنية على التآلف بين الإسقاط والتماهي. فتاة شابة، كانت وساوس ضميرها تمنعها من الزواج، بذلت بالمقابل قصاراها لتزويج أختها. ومريضة أخرى كان قهْرها يمنعها من إنفاق أي مبلغ على شخصها جنحت على حين بغتة إلى التبذير لما توجَّب عليها أن تشتري هدايا. ومريضة أخرى، كان حصرها يمنعها من وضع مشاريعها في السفر موضع التنفيذ، نصحت بعضاً من صديقاتها بحماسة غير متوقعة بالسفر. وفي كل حالة من هذه الحالات كان التماهي مع الأخت والصديقة والمستفيدة من الهدية يتكشف من خلال التفجر المباغت لشعور حادّ بالتضامن، وهو شعور كان يستمر ما دامت المريضة تتطلع إلى تحقيق رغبتها من خلال شخص وسيط. ومنذ قديم الزمان يسخر الناس من «العوانس الخطّابات» ومن «المتطفلين الذين يتفرجون على الآخرين وهم يقامرون ولا يرون البتة أن المبلغ الذي يقامر عليه هؤلاء مرتفع أكثر مما ينبغي». وبالفعل، إن التنازل للغير عن حفزة رغبية، والحرص الشديد بعد ذلك على أن تجد هذه الرغبة طريقها إلى التحقيق، أشبه ما يكونان بالتفرج على لعبة



قمار يتابعها المرء بلذة وشغف، ولكن بدون أن يجرؤ على المشاركة فيها.

غير أن هذه الآلية الدفاعية تفيد في غرضين. فالفرد الذي يلجأ إلى استخدامها يستطيع، أولاً، أن يشارك في إشباع دوافع الآخرين الغريزية بمجرد إيلائه إياها اهتماماً ودياً يحقق له هو نفسه، رغماً عن تحظير الأنا الأعلى، إشباعاً غريزياً غير مباشر. ثانياً، إن الإيجابية والعدوانية، اللتين كان تجميدهما يعيق تحقيق الرغبات الأصلية، تتحرران من جراء تلك السيرورة. فالمريضة، العاجزة عن بذل أي مجهود لتأمين إشباع فموي لها، يثور سخطها عندما تشاهد أماً تفرض على طفلها حرماناً من النوع نفسه. والكنّة، المحظور عليها أن تطالب لنفسها بحقوق الحماة الراحلة، يمكنها أن تستنفر كل عدوانيتها لتذود عن الحق الرمزي لشخص آخر. والمستخدمة التي لا تجرؤ أبداً على المطالبة بزيادة راتبها تحاصِر على حين بغتة مديرتها بمطالباتها بزيادة راتب زميلة لها. وعندما نحلل مواقف كهذه نكتشف أصل هذه السيرورة الدفاعية وتفرُّعَها عن نزاع قديم العهد بين الطفل وبين سلطة أحد الوالدين، وهو نزاع لا بدّ أن يكون نشب بصدد إشباع غريزي ما. وعدوانية الابن تجاه أمه، تلك العدوانية المشجوبة ما دامت تتصل برغبة غريزية لدى الابن نفسه، يُطلق لها العنان حالما يصبح بيت القصيد إشباع رغبات شخص غريب في الظاهر. والنموذج المألوف لهذا النوع هو المحسن الاجتماعي الذي يجنِّد كل عدوانيته وكل طاقته ليجمع التبرعات من بعض الناس ليعطيها لأناس آخرين. وربما يكون النموذج الأكثر تطرفاً هو نموذج القاتل الذي يبادر، باسم المضطهَدين، إلى اغتيال المضطهِد. وضحية هذه العدوانية المتحررة يمثِّل على الدوام صاحب السلطة الذي كان فرض في الطفولة العزوف الغريزي.

إن عوامل شتى تحدد اختيار الموضوع الذي تُحوَّل إليه الدوافع والحفزات الغريزية. وقد يكون إدراك الحفزة المحظورة عند شخص آخر كافياً في بعض الأحيان ليوحي للأنا بأن الفرصة قد سنحت له ليقوم بالإسقاط. ففي مثال وراثة الحماة اكتسبت الرغبة صفة البراءة نظراً إلى أن الشخص البديل لم يكن من الأقارب المقربين، على حين أن هذه الرغبة عينها كانت مشوبة بشائبة زنا المحارم لدى المريضة نفسها. وفي معظم الحالات يكون الشخص الذي يضطلع بدور



البديل موضعاً لحسد قديم. فالمربِّية الغيرية في مثالي الأول تحوّل إلى أصدقائها تخييلاتها الطموحية، وإلى صديقاتها رغباتها الليبيدية. ففي عاطفتها الحبِّية حلّ أصدقاؤها محلَّ أبيها وأخيها الأكبر اللذين كانا فيما مضى موضوعاً لحسدها القضيبي، بينما كانت صديقاتها يمثِّلن أختها الحسناء التي كان جمالها قد تأدى في زمن المراهقة إلى تحول حسدها القضيبي إلى غيرة. لقد استشعرت أن طموحاتها يعاكسها كونها أنثى، ولم تكن تعتقد نفسها جميلة بما فيه الكفاية لتفوز بإعجاب الرجال. فكان أن نقلت رغباتها، وقد خاب أملها، إلى مواضيع تشعر أنها مؤهلة أكثر منها لتحقيق تلك الرغبات. فقد كان على أصدقائها الرجال أن يحرزوا في حياتهم المهنية النجاحات التي تعذَّر عليها هي أن تحققها؛ وكان على الفتيات الأجمل منها منظراً أن يحققن نجاحاً مماثلاً في مجال الحب. لقد كان التنازل الغيريّ وسيلة لها للتغلب على مذلتها النرجسية.

إن هذا التنازل لصالح موضوع أكثر صلاحة لتحقيق رغبة غريزية من رغبات الذات غالباً ما يتفق أن يحدد علاقات الفتاة بالرجل الذي وقع عليه اختيارها ليمثِّلها هي نفسها، وذلك على حساب كل علاقة موضوعانية OBJECTALE حقيقية[٣]. فهي إذ تعقد على هذا النحو علاقات «غيرية» مع هذا الرجل، تتطلب منه أن يحقق الخطط التي تعتقد أن أنوثتها تمنعها من وضعها موضع تنفيذ: إنها ترغب، مثلاً، في أن ينجز، مكانها، بعض أشواط الدراسة، وأن يختار مهنة بعينها، وأن يغدو غنياً أو شهيراً، إلخ. وفي مثل هذه الحالات تتراكب الأنانية والغيرية معاً بألف صورة وصورة. فنحن جميعاً نعرف آباء وأمهات يفوّضون أولادهم، بسائق من الإيثار والأثرة في آن معاً، بتحقيق مشاريع حياتهم التي كانوا حلموا سالفاً بتحقيقها. وتجري الأمور هنا وكأن هؤلاء الآباء والأمهات يأملون أن يستخدموا ولدهم، الذي يعتقدون أنه محبوّ أكثر منهم بالصفات

٣ ـ الموضوع في الأدبيات التحليلية النفسية هو حصراً الموضوع الحبي، أو حسب تعبير فرويد هو «ما يمكن به وعن طريقه للدافع الغريزي أن يصل إلى هدفه» بدءاً بثدي الأم لدى الطفل وبدائله لدى الراشد وانتهاء بالتميمة FETICHE لدى التميمي. والنسبة إليه هي «الموضوعاني» OBJECTAL، أي بإضافة نون النسبة تداركاً للخلط بين هذا المفهوم الأساسي في التحليل النفسي وبين «الموضوعي» OBJECTIF، أي عكس ما هو ذاتي، بالمعنى القاموسي المتداول. «م».



اللازمة، للوصول إلى الهدف الذي ما تيسَّر لهم الوصول إليه. بل ربما كانت العلاقات الغيرية الخالصة التي تشدّ الأم إلى ابنها الذكر ترتكز، في شطرها الأكبر، إلى هذا التفويض بالرغبات إلى مخلوق مؤهَّل أكثر منها، بحكم جنسه، لتحقيقها. وبالفعل، إن نجاح الرجل يعوِّض نساء أسرته أوسع تعويض عن عزوفهن عن مطامحهن الخاصة.

إن أروع مثال وأكمله عن تفويض كهذا لصالح موضوع أكثر صلاحة تقدِّمه مسرحية **سيرانو دي برجراك** لإدمون روستان[٤]. فبطل هذه المسرحية شخصية تاريخية من القرن السابع عشر، نبيل فرنسي، شاعر وضابط في الحرس، معروف بنباهته وشجاعته، ولكن القبح غير المألوف لاستطالته الأنفية كان يسدّ عليه الطريق إلى قلوب النساء. وقد وقع في هوى ابنة عمه الحسناء روكسان، ولكنه قطع حالاً حبل كل رجاء في أن يلقى لديها استجابة لأنه كان على وعي بقبحه. وبدلاً من أن يستخدم ضد منافسيه مهارته المرهوبة في المبارزة بالسيف، فوَّض كل صبوات حبه لرجل أكثر وسامة منه. ومنذ أن سلك طريق التنازل هذا، وضع قوته وشجاعته ونباهته في خدمة ذلك المنافس السعيد الحظ، وبذل كل ما في وسعه ليعينه على تحقيق أمانيه. وذروة المسرحية مشهد في الليل، تحت شرفة المرأة المعشوقة من قبل الرجلين. فقد وقف سيرانو يهمس في أذن منافسه بالكلمات التي تعينه على خطب ودّها، ثم تولى بنفسه الكلام مستتراً تحت جناح الليل، ولكن حماسة تشبيبه أنسته أنه ليس هو خاطب ودِّها. ولم يفطن إلى تضحيته إلا عندما تسلق كرستيان الجميل ـ وقد مسّ شغاف قلب روكسان ـ شرفة الفتاة واحتضنها معانقاً. وما كان يزداد إلا تفانياً في خدمة منافسه، حتى إنه حماه في المعركة بدل أن يهتم بحماية حياته هو نفسه. وحتى بعد أن اختطف الموت منه بديله ظل عازفاً عن مطارحة روكسان الغرام، كما لو أن ذلك محرَّم عليه. وأما

٤ ـ إدمون روستان: شاعر ومسرحي فرنسي (١٨٦٨ ـ ١٩١٨). اشتهر بمسرحيته **سيرانو دي برجراك** التي استوحاها من حياة الكاتب «الزنديق» سافينيان سيرانو دي برجراك (١٦١٩ ـ ١٦٥٥)، وقد نقلها إلى العربية بتصرف مصطفى لطفي المنفلوطي. ومدار المسرحية على أنف سيرانو الضخم والبشع الذي حال بينه وبين الزواج من ابنة عمه روكسان، فضحّى بحبه وأعار ذلاقة لسانه لزميل له بليد في الكلام يدعى كريستيان ليخطب ودّ حبيبته ويحظى بها بدلاً منه. «م».



أن الكاتب في تصويره لـ «غيرية» سيرانو يحكي لنا عن أكثر من مجرد مغامرة غرامية غريبة، فذلك ما نتبيّنه من الموازاة التي يقيمها بين حياة سيرانو الغرامية وبين مصيره كشاعر. فكما أن كرستيان نجح بفضل رسائل سيرانو وأشعاره في الفوز بحبّ روكسان، كذلك إن بعض الكتاب من أمثال كورناي[٥] وموليير[٦] وسويفت[٧] قبسوا من مؤلفات سيرانو المجهولة مشاهد بكاملها، فزادوا بذلك من شهرتهم. وتصور المسرحية سيرانو راضياً بقسمته هذه. فهو على أتم استعداد لأن يعير كلماته لكريستيان الأكثر منه وسامة، ولموليير الأكثر منه عبقرية. فعيوبه، فيما يحسب، تسدّ عليه الطريق إلى كل نجاح، وتدفع به إلى الاعتقاد بأن أولئك الذين يقدَّمون عليه أهل أكثر منه لتحقيق تخييلات رغائبه.

في الختام لندرس لهنيهة أخرى، ومن زاوية أخرى، ذلك التنازل الغيريّ، أي في علائقه بخوف الموت. فكل فرد يسقِط على نطاق واسع دوافعه الغريزية على الآخرين لا يعود يستشعر خوف الموت هذا. فأناه لا يعود يبالي، ساعة الخطر، بحياته الخاصة. بل إن الهواجس والمخاوف تنتابه، على العكس، من ذلك، على حياة من يحبهم من الأشخاص. وتدل المشاهدة أن هذه المواضيع، التي يعلّق على سلامتها أهمية كبرى، هي الشخصيات التي حوّل إليها رغباته الغريزية. ومن ذلك أن المربية الشابة التي تكلمنا عنها آنفاً كانت ترتعد خوفاً على صديقاتها في فترة حملهن ووضعهن. وفي **سيرانو دي برجراك**، يهتم البطل بسلامة كرستيان في أثناء المعركة أكثر بكثير مما يهتم بسلامته الشخصية. ومن المحقق أن الأمر ليس

---

٥ - بيير كورناي: شاعر ومسرحي فرنسي (١٦٠٦ - ١٧٨٤). كتب ٣٢ مسرحية كوميدية وتراجيدية، من أشهرها: **السيد** التي استوحاها من المسرحي الإسباني غيلن دي كاسترو (١٥٦٩ - ١٦٣١) في مسرحيته **طفولة السيد**. والسيد هو الاسم الذي كان أطلقه العرب على الفارس الإسباني رودريغز اعترافاً منهم بشهامته. «م».

٦ - موليير: أشهر المسرحيين الكوميديين الفرنسيين (١٦٢٢ - ١٦٧٣). وفي عصره كان دارجاً أن «ينتحل» الكتاب عن بعضهم بعضاً بتصرف، كما فعل موليير نفسه في مسرحيته **مكائد سكابان** التي اقتبس بعض مشاهدها عن الروائي والمسرحي سافينيان سيرانو دي برجراك في مسرحيته **الدعيّ الملعوب به**. «م».

٧ - جوناثان سويفت: كاتب إيرلندي (١٦٦٧ - ١٧٤٥). اشتهر بروايته **أسفار غوليفر** التي اقتبس فيها بعض المشاهد من رواية سافينيان سيرانو دي برجراك: **رحلة في القمر**. «م».



في هذه الحالة أمر تنافس مكبوت يعاود انبجاسه في صورة تمني الموت ـ الذي سرعان ما يكبح ـ للخصم. بل يدل التحليل أن حضور هذه الأنواع من المخاوف وغيابها يكشفان بالأحرى عن أن الفرد المعني لا يحرص على حياته إلا بقدر ما تتيح له من فرص وإمكانيات، ولو قليلة، لإشباع دوافعه الغريزية. والحال أنه عندما يحوّل دوافعه الغريزية إلى شخص آخر، فإن حياة هذا الشخص الآخر، لا حياة الفرد المعني، تغدو هي الثمينة، ودمار الموضوع البديل يكافئ، كما يحدث لسيرانو عند موت كرستيان، دمار آماله كافة.

وإنما بعد التحليل فحسب اكتشفت مربيتنا الشابة لأول مرة، عندما اتفق لها أن وقعت طريحة الفراش، أن فكرة الموت فكرة غير مستطابة بالنسبة إليها. فعلى دهش عظيم منها تمنت بحرارة أن تعيش حياة مديدة بما فيه الكفاية لتؤثث شقتها الجديدة ولتجتاز امتحاناً يضمن لها الترقية في مهنتها. وكان الشقة والامتحان يمثّلان، وإن في صورة مصعَّدة، تحقيقاً لبعض الرغبات الغريزية التي أتاح لها التحليل أن تعيد دمجها بحياتها الخاصة[٨].

٨ ـ ثمة تشابه واضح بين الشروط المحدَّدة لمسلك التنازل الغيريّ والشروط المحدَّدة للجنسية المثلية المذكرة. فالجنسي المثلي يحوّل، هو أيضاً، إلى أخ أصغر منه سناً، كان موضوعاً لحسده من قبل، رغبته المتطلبة للحب الأموي. وهو يشبع متطلباته هذه بتبنيه فيما بعد موقفاً أمويّاً يتيح له أن يتمتع، بكيفية إيجابية وسلبية في آن معاً، بالعلاقة بين الأم وابنها. على أنه ليس من اليسير أن نحدد دور هذه السيرورة في التنازلات الغيرية التي تقدم بنا وصفها. فلا بدّ أن هذه الآلية ضمنت لسيرانو كما للمربية الشابة بعض الإشباعات حتى قبل أن يتمكنا من الاستمتاع بنجاح الأشخاص المفوضين عنهما. فما يساورهما من نشوة بالعطاء وبالمساعدة التي يقدمانها يدلّ أن التنازل هو بحدّ ذاته سيرورة غريزية مستحبة. وكما في التماهي مع المعتدي، نراهما ينتقلان من السلبية إلى الإيجابية. ونرى الإذلال النرجسي يعوَّض عنه بتنامي الإحساس بالقوة، إذ يتبنى الفرد المعني دور المحسن. وهكذا توازن السعادة الممنوحة للآخرين كفة الحرمان المرتضى به سلبياً.

ويبقى لنا أن نتساءل عما إذا كان ثمة فعلاً علاقات غيرية لا يلعب فيها الإشباع الشخصي أي دور على الإطلاق، ولو في شكل منكّر ومُشمى Sublimé. على أن الشيء الأكيد هو أن الإسقاط والتماهي لا يمثلان الشكلين الوحيدين للسلوك الغيريّ في ظاهره. فثمة سبل سهلة أخرى تفضي إلى الهدف نفسه، ومنها مثلاً أشكال شتى من المازوخية.




مكتبة
الفكر الجديد

القسم الرابع

آليات الدفاع المتعيِّنة بالخوف من قوة الدوافع الغريزية

دراسة لظاهرات البلوغ




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الحادي عشر
الأنا والهذا في زمن البلوغ

بين جميع مراحل الحياة البشرية التي تتلبس فيها السيرورات الغريزية أهمية عظمى لا مماراة فيها، كانت مرحلة البلوغ هي التي استأثرت ولا تزال باهتمام علماء النفس، بالنظر إلى الظاهرات النفسية التي تصاحب النضوج الجنسي. ففي عدد كبير من الدراسات غير التحليلية النفسية نقع على وصف أخاذ للتغيرات التي تطرأ على الشخصية في تلك السنوات، ولاضطرابات التوازن النفسي، وعلى الأخص للتناقضات التي يتعذر فهمها أو التوفيق فيما بينها والتي تعلن عن ظهورها عندئذ في الحياة النفسية. فالمراهق أناني، مفرط في أنانيته، يعتبر نفسه مركزَ الكون والموضوعَ الوحيد الجدير بالاهتمام؛ ولكنه يبدي في الوقت نفسه مقدرة على التفاني والتضحية بالذات بدرجة لن يعود إلى إدراكها مرة ثانية في حياته اللاحقة. وهو يعقد علاقات حب متأججة كل التأجج، ولكنه يقطعها على مثل النحو الفجائي الذي بدأها به؛ ويتكيّف في حماسة مع حياة الجماعة، ولكن تستبدّ به في الوقت نفسه حاجة آسرة إلى الوحدة والعزلة؛ ويتأرجح بين طاعة عمياء لقائد اختاره بنفسه وبين تمرد عنيف على كل سلطة كائنة ما كانت. إنه نفعي، مادي، ولكنه مفعم أيضاً بمثالية سامية، ويمارس الزهد، ولكن تباغته أيضاً الحاجة إلى إشباعات غريزية هي من البدائية في منتهاها. وفي بعض الأحيان يظهر في سلوكه فظاظة وعدم محاباة تجاه قريبه، ولكنه يبدي هو نفسه حساسية مفرطة بكل ما يمكن أن يمسّ مشاعره. ويتأرجح مزاجه بين التفاؤل الباسم وبين الكآبة الحالكة السواد، بين حماسة لا تعرف الكلل في العمل وبين كسل خامل وتبلد حسٍّ إزاء كل شيء.

لقد حاول علم النفس الأكاديمي أن يجد لهذه الظاهرات تفسيرين متباينين



غاية التباين. يقول التفسير الأول إن هذه العاصفة التي تجتاح الحياة النفسية تنجم بصورة مباشرة عن سيرورة من طبيعة كيماوية في أرجح الظن، مرتبطة بالنشاط المستجد للغدد الجنسية. ومن ثم فهي لا تعدو أن تكون محض صدى سيكولوجي لبعض السيرورات الفيزيولوجية. لكن النظرية الثانية ترفض فكرة ارتباط من هذا القبيل بين البدني والنفسي. فالانقلابات النفسية المشار إليها ما هي بموجب هذه النظرية إلا علامة على بلوغ النضج النفسي، مثلما تعتبر التغيرات البدنية الطارئة في الفترة نفسها علامة على بلوغ النضج الجنسي البدني. وتزامن الظاهرات النفسية والبدنية لا يثبِت البتة أن هذه علة تلك أو بالعكس. هكذا تعلن هذه النظرية الثانية استقلال النمو النفسي عن السيرورات الغدِّية والغريزية. ويتفق هذان الاتجاهان السيكولوجيان المتعارضان على نقطة وحيدة: وهي أن لظاهرات البلوغ، سواء أكانت بدنية أم نفسية، أهمية بالغة من منظور نمو الفرد، إذ هي بمثابة البداية والأصل للحياة الجنسية وللقدرة على الحب وللشخصية بكاملها.

والعجيب في الأمر أن التحليل النفسي، الذي غالباً ما اتخذ الظاهرات المتناقضة للحياة النفسية منطلقاً لمباحثه، لم يولِ حتى الآن مشكلات البلوغ إلا اهتماماً ضئيلاً. وخلا بعض الاستثناءات[1]، يمكن القول إن المحلِّلين النفسيين

---

١ ـ فرويد: **ثلاثة مباحث في النظرية الجنسية**، الأعمال الكاملة، م٥. إرنست جونز(*): بعض مشكلات المراهقة، مجلة **إيماغو**، م٩، ١٩٢٣، ص ١٤٥ وما يليها. س. برنفلد(**): **حول شكل نمطي من البلوغ لدى الذكور**. المصدر نفسه، ص ١٦٩ وما يليها.

(*) إرنست جونز JONES: محلل نفسي بريطاني (١٨٧٩ ـ ١٩٥٨). اشتهر أول الأمر بالسيرة التي وضعها عن حياة فرويد، ومؤسس **جمعية لندن للتحليل النفسي**. كان له دور عملي بارز في تاريخ حركة التحليل النفسي، وقدّم كل ضروب المساعدة الممكنة لأنصار التحليل النفسي الهاربين من الاضطهاد النازي. وقد ربطته بفرويد صلة صداقة حميمة، وله مساهمات تحليلية نفسية في الأنتروبولوجيا والفن واللغة، من أشهرها دراسته عن **أوديب وهملت**. «م».

(**) سيغفريد برنفلد: مربٍّ ومحلل نفسي نمساوي من أصل يهودي (١٨٩٢ـ ١٩٥٣). كان له في شبابه نشاط في الحركة الصهيونية، وحاول لاحقاً الجمع بين الاشتراكية والتحليل النفسي، وكان رائداً بالتالي للحركة التي ستعرف باسم الماركسية الفرويدية. من مؤلفاته: **الشعب اليهودي وشبيبته، سيزيف أو حدود التربية، علم نفس الطفل**. «م».



أهملوا بالحريّ دراسة هذه المرحلة من الحياة، واختصوها بمكانة ثانوية بالقياس إلى المراحل الأخرى. وسبب هذا الإهمال واضح. فالتحليل النفسي يرى، بالفعل، أن حياة الإنسان الجنسية تبدأ قبل البلوغ بزمن طويل. وبموجب النظريات التحليلية النفسية تتم اندفاعة الجنسية على مرحلتين. فالبداية الأولى تكون في السنة الأولى من الحياة. ففي المرحلة الطفلية المبكرة، لا في مرحلة البلوغ، يتمّ التقدم الفاصل في مسار النمو، إذ يمر الفرد في تلك الفترة تحديداً بأطوار جنسية قبتناسلية مهمة، وتتكون دوافعه الغريزية الجزئية المختلفة وتبدأ بالعمل، ويتحدد سواؤه أو شذوذه، كما تتعين قدرته أو عدم قدرته على الحب. والمفروض من ثم بدراسة هذه المرحلة المبكرة أن تمدَّنا بمعرفة أصل الجنسية وتطورها، على حين لا يطلب علم النفس الأكاديمي هذه المعلومات إلا من دراسة البلوغ. فمن منظور التحليل النفسي لا يعدو البلوغ أن يكون طوراً من أطوار نمو الحياة البشرية. فهو أول تكرار للمرحلة الجنسية الطفلية؛ وفي زمن لاحق يكون التكرار الثاني، وذلك في سن الإياس[٢]. وكل واحدة من هذه المراحل الجنسية هي بمثابة تجديد وإحياء للمرحلة السابقة لها، وكل واحدة منها تضيف شيئاً خاصاً إلى الجنسية البشرية. وبحكم النضوج الجنسي البدني فإن التناسلية هي التي تتبوأ، في زمن البلوغ مكانة الصدارة، فتكتب الغلبة للميول التناسلية على الدوافع الغريزية الجزئية القبتناسلية. وفي سن الإياس، ومع الأفول البدني للوظائف الجنسية، تعرف الدوافع الغريزية التناسلية اندفاعاتها الأخيرة، وتسترد الدوافع الغريزية القبتناسلية حقوقها القديمة.

لقد اهتمت الأدبيات التحليلية النفسية حتى الآن، وفي المقام الأول، بالتشابهات بين هذه المراحل الثلاث من الجنسية الهائجة. وهذه التشابهات تكون ظاهرة بوجه خاص في العلاقات الكمية بين قوى الأنا والدوافع الغريزية. ففي الطفولة الأولى، وفي البلوغ، وفي سن الإياس، يقف «هذا» قوي نسبياً في مواجهة «أنا» ضعيف نسبياً. وبناء عليه نقول إن الهذا يكون في بعض المراحل عاتياً والأنا موهناً. وفضلاً عن ذلك، توجد تشابهات كبيرة من طبيعة كيفية في

٢ ـ من الواضح أن آنا فرويد تحصر كلامها هنا بالمرأة نظراً إلى أن سنّ الإياس، أي سنّ انقطاع الطمث، سيرورة لا تطرأ إلا لدى النساء. «م».



ما يتصل بالعلاقة بين الأنا والهذا في تلك المراحل الثلاث. فالهذا البشري يبقى هو هو إلى حدّ كبير في جميع أطوار الحياة. صحيح أن الدوافع الغريزية قابلة لأن تتحور عندما تصطدم بالأنا وبمتطلبات العالم الخارجي، لكن التغيرات داخل الهذا نفسه تكون طفيفة أو حتى معدومة، خلا ما اتصل منها بالأهداف الغريزية التي تصير تناسلية بعد أن تكون في الأصل قبتناسلية. وبالمثل، إن الرغبات الجنسية، المتهيئة على الدوام لتخطي حاجز الكبت حالما يتعزز الليبيدو، وكذلك توظيفاتها الموضوعانية وتخييلاتها، تبقى بلا تغيير يذكر في مختلف مراحل الطفولة والبلوغ وسن الإياس. والتشابهات الكيفية بين هذه الأطوار الثلاثة من تعزيز الليبيدو يفسرها الثبات النسبي للهذا.

إذاً فالاختلافات الملحوظة بين مختلف المراحل، تلك الاختلافات التي أهملتها بصفة عامة حتى الآن أدبيات التحليل النفسي، إنما مردها إلى العامل الثاني في العلاقات بين الهذا والأنا، أي إلى قابلية الأنا البشري الهائلة للتحوُّر والتحوُّل. فبقدر ما يبقى الهذا هو هو، يقبل الأنا بالقدر نفسه التغيُّرَ. فلندرس على سبيل المثال الأنا في الطفولة الأولى والأنا في البلوغ. فهما يختلفان من حيث الاتساع والمضامين والمعارف والقدرات، ولا تكون روابطهما ولا ضروب حصرهما واحدة. ومن ثم إن الأنا، في صراعه ضد الدوافع الغريزية، يستخدم آليات دفاع مختلفة في المراحل المختلفة. ونحن نعتقد أن دراسة أكثر تقصياً للاختلافات الملحوظة بين الطفولة الأولى وبين البلوغ قمينة بتنويرنا بصدد تكوُّن الأنا، مثلما كانت دراسة التشابهات بين تلك المراحل الثلاث قد زوَّدتنا بالمعلومات عن الحياة الغريزية.

وكما في حالة السيرورات الغريزية، فإن دراسة النمو اللاحق للأنا لا يمكن أن تكون مثمرة إلا بالاستناد إلى الفهم الجيد للنمو الأولي. فقبل أن نتطلع إلى تفسير الاضطرابات التي تصيب الأنا في مرحلة البلوغ، يخلق بنا أن نعرف ما كانه، في الطفولة الأولى، موقف هذا الأنا نفسه. فلدى الطفل الصغير يخضع الصراع بين الأنا والهذا لبعض الشروط الخاصة. ففي تلك الفترة يكون الطفل، الذي تتناهشه الرغبات المميَّزة لكل من الطور الفموي والشرجي والقضيبي، بحاجة ملحة إلى



أقصى حدٍّ إلى الإشباع، وتكون الانفعالات العاطفية والتخييلات المرتبطة بعقدتي أوديب والخصاء بالغة الحيوية. والحال أن الأنا، المكره على مجابهة هذه التظاهرات كلها، يكون في سبيله إلى التكوُّن ليس إلا، ويكون من ثم ضعيفاً وغير مكتمل النمو بعد. على أن الطفل الصغير ليس مخلوقاً منفلت الغرائز، كما أنه لا يستشعر في الظروف العادية الضغط الداخلي لضروب الحصر الغريزي. فهو يجد في العالم الخارجي، أي في التأثيرات التربوية التي تُمارس عليه، سنداً قوياً ضد حياته الغريزية. وهو لا يجد نفسه أبداً مكرهاً على أن يقيس قواه الضعيفة بالحفزات الغريزية الأقوى بكثير والتي لا محالة من أن يستسلم الأنا لها فيما لو ترك وحيداً في مواجهتها. والحق أن محيط الطفل يكاد لا يترك له أية فسحة من الوقت ليدرك رغباته الخاصة وليعي مدى قوته أو ضعفه بالقياس إلى دوافعه الغريزية. وموقف الطفل من الهذا العائد إليه إنما يمليه عليه ببساطة الأشخاص الذين يتولونه بالرعاية، متوسلين إلى ذلك سبيل الترغيب والترهيب، مجزلين له الوعود بالحبّ وموجهين إليه بالتهديدات بالعقاب.

بفضل هذه المؤثرات الخارجية، وفي خلال سنوات قليلة، يكتسب الطفل قدرة كبيرة على ضبط دوافعه الغريزية، ولكن من المتعذر علينا أن نحدد ما كانه، في هذا التطور، دور الأنا من جهة أولى، ودور الضغط المباشر للعناصر الخارجية من الجهة الثانية. وإنما بقدر ما يخضع الأنا، في مجرى هذا الصراع، للتأثيرات الخارجية يوصف الطفل بأنه «عاقل». وبالمقابل، إنه ينعت بأنه «سفيه» عندما ينحاز أناه إلى الهذا، ويتمرد على جميع التقييدات التي تفرضها التربية على الملذات الغريزية. وقد أُطلق اسم البيداغوجيا على العلم الذي جعل هدفه الدراسة الخاصة لتأرجحات الأنا الطفلي هذه بين الهذا والعالم الخارجي. فهذا العلم يبحث عن الوسائل التي من شأنها أن توثّق أكثر فأكثر رابطة التحالف بين التربية والأنا بأن تجعل كفاحهما المشترك ضد قوة الدوافع الغريزية أكثر فأكثر نجعاً وفعالية.

على أنه تدور في الحياة النفسية للطفل الصغير رحى صراع داخلي يقع بعيداً عن متناول التربية. ففي وقت مبكر يعتمد العالم الخارجي ممثلاً عنه في داخل



نفس الطفل، وهذا الممثل هو الخوف الفعلي. ووجود هذا الحصر لا ينهض بذاته دليلاً على أنه قد تكونت في الأنا هيئة أعلى مقاماً، هي الضمير أو الأنا الأعلى، ولكنه يكون بمثابة علامة بشيرة به. فالحصر الواقعي يستبق المعاناة التي يمكن أن يعاني منها الطفل من جراء العقوبات التي قد ينزلها به العالم الخارجي؛ فهو ضرب من كدر تمهيدي يحكم سلوك الأنا، بصرف النظر عن التحقيق الفعلي أو عدمه للعقوبة المتوقعة. وتتناسب شدة الحصر الواقعي من جهة أولى مع مدى ما يتبدى عليه محيط الطفل من خطورة وتهديد؛ ونحن نعلم من جهة ثانية أن الحصر الواقعي يعززه انقلاب السيرورات الغريزية ضد الذات، وغالباً ما يرتبط بتخييلات مولِّدة للحصر ولا تقيم اعتباراً لتغييرات الواقع. ومن هنا تتراخى أكثر فأكثر روابطه بهذا الواقع. ومن المؤكد أن المطالب الغريزية الجامحة هي التي تدخل، في نفس الطفل الصغير، في صراع مع حصر واقعي جارف، وأن أعراض العصاب الطفلي تمثل محاولة لتصفية هذا الصراع. فما الفرع العلمي الذي تعود إليه في هذه الحال دراسة هذه الصراعات الداخلية ووصفها؟ هذا السؤال هو محل نزاع شديد، إذ يدَّعي بعضهم أن هذه الصراعات تدخل في اختصاص علم التربية (البيداغوجيا)، بينما نعتقد نحن المحلِّلين النفسيين أنها تدخل في مجال علم الأعصبة.

يتسم موقف الأنا الطفلي بسمة خاصة أخرى، لا تعود أبداً إلى الظهور في الأطوار اللاحقة من الحياة. ففي كل موقف دفاعي لاحق سيتواجه خصمان، إذ إن الدافع الغريزي سيجد في قبالته أنا اكتملت صلابته بقدر أو بآخر ولن يكون أمامه مندوحة عن التفاهم معه. أما لدى الطفل الصغير، على العكس، فإن الأنا يتولد من الصراع بالذات. وذلك الشطر من الأنا الذي سيتوجب عليه، على مدى الحياة، أن يواجه الدوافع الغريزية إنما يتكون في ذلك الزمن المبكر تحت الضغط المتواقت لكل من المطالب الغريزية للهذا من جهة أولى، وللحصر الواقعي الخارجي المصدر من الجهة الثانية. ويمكن القول إن الأنا «مصنوع على المقاس»[٣]، أي مفصَّل على نحو يستطيع معه أن يقيم توازناً بين القوتين كلتيهما:

٣ ـ تنزع البيداغوجيا العصرية المتطرفة جداً إلى أن تفصِّل العالم الخارجي أيضاً على مقاس «الطفل».



الاندفاعة الغريزية وضغط العالم الخارجي. وفي تقديرنا أن المرحلة الطفلية الأولى تبلغ نهايتها متى ما بلغ هذا الشطر من تكوُّن الأنا مستوى معيناً. فالأنا يكون قد قرر ما المواقع التي سيحتلها في حربه مع الهذا. ويكون قد قرر تناسباً كمياً معيَّناً بين الإشباع الغريزي والعزوف عن هذا الإشباع، والتوازن المتحصِّل له على هذا النحو يتيح له أن يجد الحل لصراعات جزئية مختلفة. وبما أنه يكون اعتاد على تحمل بعض التأجيل في تحقيق رغباته، فإنه يفضل، بين جملة طرائقه الدفاعية، تلك التي تكون ممهورة بخاتم الحصر الواقعي. فلكأن ضرباً من تسوية مُرْضية لكلا الطرفين قد قام بين الأنا والهذا، فصار التعايش بينهما ممكناً.

لا يلبث الموقف، في السنوات القليلة التالية، أن يتعدل. فمرحلة الكمون، المترافقة بتقلص في القوى الغريزية مشروطٍ فيزيولوجياً، تتيح للأنا هدنة في حربه الدفاعية. وعندئذ ينفسح أمامه المجال ليكرس نفسه لمهام أخرى وليزيد معارفه وقدراته، فيصير على هذا النحو أقدر من ذي قبل على مواجهة العالم الخارجي وأقل ضعفاً وخضوعاً. ثم إن هذا العالم نفسه لا يعود يبدو له كلي القدرة كما من قبل. ورويداً رويداً، وطرداً مع اقتدار الأنا على تصفية موقفه الأوديبي، يتعدل موقفه إزاء المواضيع الخارجية. فالطفل لا يعود يتبع مطلق التبعية لوالديه، ويطفق التماهي يحلّ أكثر فأكثر محل الحب الموضوعاني. وكل ما لقَّنه الوالدان والمربون للطفل: رغباتهم، مطالبهم، مثلهم العليا، كل ذلك يتم استدخاله أكثر فأكثر. والعالم الخارجي لا يعود يتبدى في الحياة الداخلية للكائن الغضّ العود على أنه مجرد مولِّد للحصر الواقعي. ويكون الطفل قد أقام في داخل أناه هيئة دائمة تمثِّل مطالب المحيط، وهي ما نسميه الأنا الأعلى. وطرداً مع حدوث هذا التحول، يتغيَّر أيضاً الحصر الطفلي. فالخوف من العالم الخارجي يقلّ ويضؤل، ويخلي مكانه تدريجياً للخوف من القوى الجديدة التي نابت مناب القوى القديمة: الأنا الأعلى أو الضمير والشعور بالذنب. هكذا يجد الأنا، في مرحلة الكمون، حليفاً جديداً له في الكفاح الذي يخوض غماره ضد السيرورات الغريزية. وفي أثناء هذه المرحلة يضطلع الحصر الأخلاقي بالدور الذي كان يضطلع به الحصر الواقعي في الطفولة الأولى، فيقوم هو بتحريك آليات الدفاع ضد الدوافع



الغريزية. وهنا أيضاً لا يكون من اليسير علينا أن نحدد مقدار ما يسهم به كل من الأنا والتأثير القوي للأنا الأعلى في عملية السيطرة هذه على الدوافع الغريزية.

على أن فترة الهدنة التي تتيحها مرحلة الكمون لا تدوم طويلاً. فما إن يتوقف الصراع الناشب بين الخصمين، الأنا والهذا، حتى يطرأ تعديل جوهري، من جراء تدعيم أحد الطرفين، على أسس الاتفاق بالذات. فالسيرورة الفيزيولوجية المتمثلة بالنضوج البدني الجنسي تقترن بإحياء للسيرورات الغريزية يأخذ صورة تدفق واندفاع لليبيدو إلى مسرح الحياة النفسية. فيتبدل من ثم توازن القوى بين الأنا والهذا بعد كل العناء الذي تكلفه قيامه، ويتقوّض، وتدبّ الحياة من جديد في الصراعات الداخلية بين الهيئتين.

في أول الأمر لا يحدث شيء ذو أهمية في جانب الهذا. فالفترة الفاصلة بين الكمون والبلوغ، وهي التي تُعرف بما قبل البلوغ، ما هي إلا مرحلة تمهيدية يتهيأ في أثنائها النضوج الجنسي. ومن وجهة النظر الكيفية لا يطرأ أي تبدل على الحياة الغريزية؛ وإنما وحدها كمية الحفزات الغريزية تتزايد، وهذا حتى في خارج نطاق الجنسية. وبالنظر إلى أن كمية الليبيدو المتاح تكون أكبر، فإن جميع دوافع الهذا الغريزية تُشحن به بغير تمييز. ومن جراء ذلك تتزايد شدة الدوافع العدوانية لتصل إلى حدّ القساوة والفظاظة غير المكبوحة، وتنقلب الشهية نهماً، وتتحول «شقاوة» مرحلة الكمون إلى جنوح الشباب. وتعاود النزعات الفموية والشرجية، التي طال انطمارها، انبجاسها على نحو مباغت. فإذا بعادات النظافة، التي تكلف اكتسابها ما تكلفه من عناء في مرحلة الكمون، تخلي مكانها للتلذذ بالقذارة والفوضى. ومحل الحياء والشفقة تحلّ النزعات الاستعرائية، والفظاظة، والقساوة حيال الحيوانات. وتمسي التشكيلات الارتجاعية، التي كانت تبدو مندمجة أحسن اندماج بالأنا، مهددة من جديد بالزوال. وفي الوقت نفسه تعاود بعض النزعات القديمة المتوارية ظهورها في الشعور. فالرغبات الأوديبية، التي لم يصبها تحريف يذكر، تتحقق في صورة أخاييل وأحلام يقظة؛ وأفكار الخصاء لدى الصبيان، والحسد القضيبي لدى البنات، تغدو من جديد محور اهتمامهم. بيد أن هذه الاندفاعة لا تحتوي إلا نزراً يسيراً من العناصر الجديدة ولا تزيد على أن تُظهر



للنور ما كانت دراسة الجنسية الطفلية المبكرة قد أتاحت لنا استكشافه.

غير أن انبعاث الجنسية الطفلية هذا يكون خاضعاً لشروط مغايرة تماماً للشروط السابقة. فعلى حين أن الأنا في الطفولة الأولى كان ولا يزال غير مكتمل، غير موطد الأركان، عظيم الطواعية والقابلية للتأثر، شديد الخضوع لتأثير الهذا، فإن الأنا في فترة ما قبل البلوغ يكون، على العكس من ذلك، جامداً، راسخ الأسس، وعارفاً تماماً بما يريد. وقد كان في وسع الأنا الطفلي، حينما يتمرد بصورة مباغتة على العالم الخارجي، أن يتحالف مع الهذا بحثاً عن بعض الإشباع الغريزي. أما الأنا المراهق فلا يتأتى له أن يسلك مثل هذا المسلك إلا لقاء صراعات داخلية مع الأنا الأعلى. وعلاقاته التي استقرت مع الهذا من جهة أولى، ومع الأنا الأعلى من الجهة الثانية ـ وذلك ما نسميه إجمالاً بطبع الفرد ـ تجعل الأنا صلباً عادم المرونة. فهذا الأخير لا تعود له غير أمنية واحدة: أن يحافظ على الطبع الذي تكوَّن في إبان مرحلة الكمون، وأن يعيد التوازن السابق بين القوى، وأن يقابل المطالب الغريزية المتزايدة بجهود دفاعية متزايدة هي أيضاً. وفي الصراع الذي يخوض غماره على هذا النحو ليتفادى أي تبديل في وجوده وكيانه، يكون الأنا مدفوعاً أيضاً بالحصر الواقعي وبالحصر الأخلاقي، ولا يتوانى عن أن يستخدم، بلا مفاضلة، جميع الأساليب الدفاعية التي سبق له اللجوء إليها في مرحلتي الطفولة والكمون. فهو يكبت، وينقل وينكر، ويعكس، ويقلب الحفزات الغريزية ضد ذاته، ويستحدث أرهبة وأعراضاً هستيرية، ويكبح أخيراً الحصر بأفكار وأفعال قهرية. وعندما ندرس بالتفصيل الصراع بين الأنا والهذا على الغلبة والسيادة، نرى بوضوح أن جميع التظاهرات الباعثة على القلق في فترة ما قبل البلوغ، أو جميعها تقريباً، تناظرها مراحل مختلفة في هذا الصراع. فتجدد النشاط التخييلي، والاندفاعات نحو الإشباعات الجنسية القبتناسلية، أي الانحرافات، والعدوانية، والجنوح، كل ذلك يمثّل انتصارات جزئية للهذا. أما ظهور الضروب المختلفة من الحصر، وتظاهرات النزعة الزهدية، وتزايد شدة الأعراض العصابية وضروب الكفّ، فذلك كله ينمّ عن تعزيز للدفاع، أي عن انتصارات جزئية للأنا.



عند النضج البدني، في مطلع البلوغ بحق معنى الكلمة، ينضاف إلى التغير الكمي تغير كيفي أيضاً. فحتى الآن كان لتزايد التوظيف الغريزي طابع عام، غير متمايز. ولكن الآن يحدث تغيُّر، فيما يخص بلوغ الذكور على الأقل، إذ تحتل الدوافع الغريزية التناسلية مكانة الصدارة. وفي المجال النفسي ينسحب التوظيف الليبيدوي من الحفزات التي من طبيعة قبتناسلية ليتركز على العواطف والأهداف والتمثلات الموضوعانية التي من طبيعة تناسلية. على هذا النحو تكتسب التناسلية أهمية نفسية متعاظمة، بينما تتراجع النزعات القبتناسلية إلى منزلة ثانوية. ويحمل كل شيء في البداية على الاعتقاد بأن تحسناً قد طرأ. فأولئك الذين يضطلعون بمهمة تربية المراهق، والذين كانوا لاحظوا في قلق وفي تحيُّر التظاهرات الغريزية ذات الطابع القبتناسلي لمرحلة ما قبل البلوغ، يعاينون الآن، في انفراج وتخفف، أن كل تلك التظاهرات المتفجرة لمشاعر القساوة والعدوانية والانحراف الجنسي قد تلاشت كما يتلاشى الكابوس. والذكورة التناسلية التي تحلّ محلها تلقى استقبالاً أكثر تسامحاً وترحيباً، حتى حينما تسعى إلى تخطي حدود ما هو مباح اجتماعياً. غير أن هذا الشفاء الفيزيولوجي التلقائي من القبتناسلية، الذي يأتي نتيجة لنمو البلوغ، هو إلى حدّ كبير خادع. ومن غير الممكن أن يعدّ بمثابة تعويض مفيد إلا في الحالات التي كانت الغلبة فيها لتثبيتات قبتناسلية سافرة. ومن أمثلة ذلك، الصبي الذي كان اتجاهه إلى ذلك الحين سلبياً ومؤنثاً، فإذ به يتبنى على نحو مباغت سلوكاً إيجابياً ومذكراً حالما يتركز توظيفه الليبيدوي على الأعضاء التناسلية. على أنه ليس من المباح لنا في مثل هذه الحال أن نستنتج أن خوف الخصاء والصراعات التي تأدت بالغلام إلى الأخذ بالاتجاه المؤنث قد وجدت حلاً لها أو زالت. فكل ما في الأمر أنها احتجبت وراء ذلك الاضطرام المؤقت لتوظيف الطاقة الجنسية. ومتى ما عاد ضغط الاندفاعة الغريزية الكبرى لمرحلة البلوغ إلى مستواه العادي في الحياة الراشدة، عادت إلى الظهور أيضاً في أرجح الاحتمال تلك المخاوف وتلك الصراعات على ما كانت عليه من قبل، وأربكت من جديد تطور الذكورة. وأغلب الظن أن ذلك يصدق أيضاً على حالة التثبيتات الفموية والشرجية التي كانت قد فقدت، مع أزمة البلوغ، وبصورة



مؤقتة، قدراً من أهميتها؛ فهي تظل محتفظة في الواقع بقوتها، ولا تلبث القوة الجاذبة المُمْرِضة لهذه التشكيلات القبتناسلية أن تمارس تأثيرها من جديد في طور لاحق من العمر وبشدة تضاهي شدتها السابقة. ومن نافل القول أننا لا نلحظ في البلوغ أي أثر تعويضي عندما تكون الاهتمامات القضيبية هي التي انتزعت الغلبة في مرحلتي الطفولة وما قبل البلوغ على الاهتمامات الفموية والشرجية؛ وتلك هي الحال، مثلاً، عند الصبيان من أصحاب الميل إلى الاستعراء. ففي مثل هذه الحال لا تساعد الاندفاعة التناسلية للبلوغ على التخفف من الانحراف، بل تنزع على العكس إلى تيسير تقدمه. وعلى هذا، لا يحدث أي برء تلقائي من الانحراف الجنسي الطفلي، وإنما استفحال يبعث على أشدِّ القلق لجميع التظاهرات المَرَضية. فالنزعات القضيبية تتزايد شدة إلى درجة تقدِّم معها صورة سريرية لذكورة تناسلية مفرطة التضخم يتعذر التحكم بها.

غير أن هذا التقييم للطابع السويّ أو غير السويّ للأهداف الغريزية الخاصة يتوقف بتمامه على القيمة التي يعزوها إليه الراشدون ولا يمتّ بصلة على الإطلاق، أو لا يمتّ إلا بصلة واهية، إلى أنا المراهق نفسه. فالمساجلة الداخلية تستمر دونما كبيرِ اعتبارٍ لذلك التقييم. وموقف أنا المراهق من الهذا عنده يتعيَّن قبل كل شيء باعتبارات من طبيعة كمية أكثر منها كيفية. ولا يكون بيت القصيد إشباع رغبة غريزية بعينها ولا الحرمان منها، وإنما موضوع الصراع هو بنية الفرد النفسية في الطفولة وفي مرحلة ما قبل البلوغ، جملة وتفصيلاً. ومن الممكن أن يكون لهذا الصراع مآلان أقصيان: فإما أن الهذا تقوى سطوته فيسحق الأنا، وفي هذه الحال يتغيَّر طبع المراهق بكليته وتصاحب الدخول إلى الحياة الراشدة عاصفة مسعورة من الإشباعات الغريزية، وإما أن تكون الغلبة للأنا، وفي هذه الحال يتثبت بصفة نهائية الطبع السابق للمراهق، ذلك الطبع الذي اكتسبه في مرحلة الكمون، وتبقى دوافع الهذا الغريزية لدى الفرد المعني محصورة ضمن الحدود الضيقة المرسومة للحياة الغريزية عند الطفل. ولا يعود الليبيدو المتعاظم يجد من متصرَّف له، ويضطر المراهق، كيما يكبحه، إلى اللجوء بلا انقطاع إلى التوظيفات المضادة، وإلى الآليات الدفاعية، وإلى الأعراض. وهذا كله ليس من



شأنه أن يحدّ من اندفاع الحياة الغريزية ويقلّص نطاقها فحسب، بل إن تصلُّب الأنا المنتصر وتجمُّده يسبّبان للفرد أذى دائماً. فهيئات الأنا، التي أفلحت في مقاومة اندفاعات البلوغ، تبقى بصفة عامة على مدى الحياة جامدة، ممتنعة على جميع التعديلات والتحويرات التي قد يتطلبها واقع متغيِّر.

ما العامل الذي يتوقف عليه إذاً انتهاء الصراع إلى هذا المآل الأقصى أو ذاك؟ وإلامَ نعزو الحلول السعيدة من قبيل التفاهم بين مختلف الهيئات، مثلاً؟ وما العوامل المحدِّدة لجميع تلك المراحل الوسيطة المتقلبة؟ قد يبدو من الطبيعي أن نضع التبعة في ذلك كله على عامل كمّي، وأن نردّه إلى تنوع في القوة المطلقة للدوافع الغريزية؛ لكن المشاهدة التحليلية لظاهرات البلوغ تناقض هذا الفرض المفرط في تبسيطه. فمن الخطأ الواضح أن ندَّعي أن زيادة في قوة الدوافع الغريزية، مردُّها إلى أسباب فيزيولوجية، تجعل الفرد لا محالة خاضعاً بدرجة أكبر لتلك الدوافع الغريزية، أو أن ندَّعي، من جهة أخرى، أن كسوفاً في قوة الدوافع الغريزية يدفع إلى مقدمة المسرح بتلك الظاهرات النفسية التي يضطلع فيها الأنا والأنا الأعلى بالدور الرئيسي. وكما بيَّنت لنا دراسة الأعراض العصابية وحالات ما قبل الطمث، فإن المطالب الغريزية كلما اشتدّ إلحاحها تحدو بالأنا إلى مضاعفة جهوده الدفاعية. وعلى العكس من ذلك، إن كل تناقض في الحاجات الغريزية يقلِّص الخطر الذي تستتبعه، ويخفِّف بالتالي من حصر الأنا الواقعي وحصره الأخلاقي وحصره الغريزي. وعلى هذا، وفيما عدا الحالات التي يجتاح الهذا فيها الأنا اجتياحاً تاماً، فإن العلاقات المفترضة تكون معكوسة في الواقع. فكل تعزيز للمطالب الغريزية يزيد من مقاومة الأنا للدافع الغريزي، ويزيد من شدة الأعراض وضروب الكفّ، إلخ، القائمة على أساس هذه المقاومة. وعلى العكس من ذلك، إن التناقص في إلحاح المطالب الغريزية يجعل الأنا أكثر تسامحاً وأكثر استعداداً للسماح ببعض الإشباعات. وهذا كله يدلنا أن القوة المطلقة للدوافع الغريزية في وقت البلوغ، تلك القوة التي يتعذر أصلاً قياسها وتقييمها، لا يمكن أن تمدَّنا بأي تشخيص استباقي لمآل البلوغ. فالعوامل التي تحدِّد هذا المآل نسبية: أولاً، قوة دوافع الهذا الغريزية المشروطة بالسيرورة الفيزيولوجية للبلوغ؛ ثانياً،



تسامح الأنا أو عدم تسامحه حيال الدوافع الغريزية، وهو ما يتوقف على الطبع الذي يكون قد تكوَّن في مرحلة الكمون؛ ثالثاً وأخيراً، العامل الكيفي الذي يتّ في نتيجة الصراع الكمي، أي طبيعة وفعالية الآليات الدفاعية المتاحة للأنا، تلك الآليات التي تتنوع تبعاً لجبلّة الفرد، وتبعاً لاستعداداته للهستيريا أو للعصاب الوسواسي، وتبعاً أيضاً لمسار نموه ولنمطه.




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثاني عشر

الحصر الغريزي عند البلوغ

لقد عزونا على الدوام، نحن المحلِّلين النفسيين، إلى مراحل الحياة التي تحدث فيها اندفاعات الليبيدو أهمية قصوى في ما يتصل بالدراسة التحليلية للهذا. فالرغبات والتخييلات والسيرورات الغريزية التي لا تستلفت النظر في مراحل أخرى من الحياة، أو تبقى لاشعورية، تنبجس آنئذ في الشعور من جراء تزايد توظيفها، فتتخطى، حيثما توجَّب ذلك، العوائق التي ينصبها في طريقها الكبت، وتغدو متاحة للملاحظة وهي تشقّ طريقها إلى النور.

غير أن مراحل اندفاعات الليبيدو هذه لا تقل أهمية على الإطلاق في ما يتصل بدراسة الأنا أيضاً. وكما كان تسنى لنا أن نرى، فإن تزايد شدة المطالب الغريزية في تلك المراحل يكون من نتيجته إرغام الفرد على مضاعفة جهوده للسيطرة على دوافعه الغريزية. فبعض ميول الأنا ونوازعه العامة، التي لا تكاد تكون متاحة للملاحظة في مراحل الهدوء الغريزي، تغدو آنئذ ألفت للنظر، كما أن آليات الأنا، التي تكون بارزة للعيان أصلاً في مرحلتي الكمون والحياة الراشدة، تتزايد أحياناً شدتها في زمن البلوغ إلى حدٍّ تحدِث معها تشويهاً مرَضياً في الطبع. وثمة تدبيران، من جملة التدابير التي يتخذها الأنا في مواجهة الحياة الغريزية، يمكن أن يسترعيا بوجه خاص انتباه الملاحظ بحكم القوة الجديدة التي يكتسبانها من جراء اشتدادهما في زمن البلوغ. ومن شأن هذين التدبيرين أن يعينانا أيضاً على فهم بعض خصائص مرحلة النضوج الجنسي، وأقصد بهما النزعة الزهدية والنزعة العقلانية لدى المراهقين.

النزعة الزهدية في البلوغ

كثيراً ما يستشعر المراهق كراهية عامة تجاه لدوافع الغريزية، وهذا في الوقت



نفسه الذي يكون فيه منفتحاً أكثر الانفتاح للشطط الغريزي، ولطفحات الهذا وتفجراته، وكذلك لظاهرات أخرى مسايرة على نحو ظاهر للدوافع الغريزية. وهذا الموقف العدائي يتخطى بكثير في شدَّته كل ما اعتدنا أن نلحظه من كبت أو ما يشابهه في الظروف العادية أو في الأُعصبة المتفاوتة في درجة خطورتها. إن هذا العداء لا يشبه، سواء أفي تظاهراته أم في اتساع نطاقه، الأعراض العصابية السافرة بقدر ما يشبه النزعة الزهدية لدى بعض المتزمتين من المتدينين. ففي الأعصبة نلاحظ أن التنكر لدافع من الدوافع الغريزية عن طريق الكبت يبقى على الدوام مرتبطاً بطبيعة هذا الدافع أو بنوعيته. ومن ذلك أن الهستيري يكبت الدوافع الغريزية التناسلية المرتبطة بالرغبات الموضوعانية من النمط الأوديبي، ولكنه يبدي بالمقابل بعض التسامح إزاء رغبات غريزية أخرى، كالحفزات العدوانية أو الشرجية مثلاً. كما أن العصابي الوسواسي يكبت الرغبات السادية ـ الشرجية التي تتمحور حولها، من جراء النكوص، حياته الجنسية، ولكنه يغضّ النظر، مثلاً، عن الإشباعات الفموية ولا يبدي أي ارتياب خاص إزاء بعض الرغبات الاستعرائية عندما لا تكون مرتبطة ارتباطاً مباشراً ببؤرة عصابه. والميول والنزعات الفموية هي التي تُكبت أيضاً، وبوجه خاص لدى السوداوي. بينما تنتظر المصير نفسه لدى الرهابي الحفزات المرتبطة بعقدة الخصاء. ولكن التنكر للدوافع الغريزية لا يتمّ في أية حالة من هذه الحالات خبط عشواء، بل من الممكن دوماً، في أثناء تحليلنا لهذه الحالات، أن نكتشف علاقة محددة بين طبيعة الدافع الغريزي المكبوت وبين حوافز المريض إلى طرده خارج نطاق الشعور.

لكن التنكر للدوافع الغريزية يطالعنا بصورة مغايرة تماماً عندما نتخذه موضوعاً لملاحظتنا لدى المراهقين. والحق أن نقطة انطلاق هذا الانتباذ تكمن هي الأخرى في المناطق المضروب عليها حظر شديد من الحياة الغريزية، وعلى سبيل المثال في الأخاييل المحرمية لمرحلة ما قبل البلوغ أو في تجدد الممارسات الاستمنائية التي تفيد في تفريغ هذه الرغبات. لكن السيرورة تأخذ ابتداء من هذه النقطة بالتكاثر والامتداد لتشمل الحياة كلها بغير ما تمييز تقريباً. وكما سبق لنا التنويه آنفاً، لا يهتم المراهق بإشباع رغبة خاصة بعينها أو بانتباذها بقدر ما يشغله الإشباع أو



الانتباذ بحدّ ذاته. فالمراهقون الذين يجتازون هذا الطور من النزعة الزهدية لا يخشون فيما يبدو نوع الدافع الغريزي بقدر ما يخشون كمَّه. إنهم يرتابون بصفة عامة بكل ضرب من ضروب المتعة، ويتراءى لهم أنهم واجدون الملجأ والملاذ الأمين بمجرد مجابهتهم تزايد الرغبة بحظر متزايد هو الآخر. فكلما قال الدافع الغريزي: «أريد»، أجابه الأنا: «ليس ذلك من حقك»، مثله في ذلك مثل الوالدين الصارمين حينما يُخضعان الطفل الصغير للدروس الأولى في التربية. وهذا الخوف الذي يستشعره المراهق إزاء الدافع الغريزي ذو طابع قابل على نحو خطِر للانتشار، ومن الممكن أن يمتدّ، بدءاً من الرغبات الغريزية بالمعنى الدقيق للكلمة، ليشمل حتى الحاجات البدنية العادية للغاية. ولا بدّ أن كل واحد منا عرف مراهقين يعزفون بلا تردد عن كل حاجة ذات صبغة جنسية، ويتحاشون عشرة من هم في سنهم من الفتيان، ويرفضون كل تسلية وترويح، ويشيحون، مثلهم مثل الطهرانيين، عن كل ما له صلة بالمسرح والموسيقى والرقص. وإلى هذا الحظر ينضاف أيضاً بطبيعة الحال ازدراء الأناقة والتبرج، بالنظر إلى ما يشوبهما من طابع جنسي. ولكن لا يلبث أن ينتابنا التحير والقلق عندما نلاحظ امتداد الرفض إلى بعض الموضوعات البريئة أو الضرورية، كما عندما يتأبى المراهق مثلاً عن اللجوء إلى الوسائل الشائعة لاتقاء البرد، أو عندما يميت جسده بشتى الطرق، ويعرِّض صحته للخطر، ويحرم نفسه لا من بعض الملذات الفموية فحسب، بل يقلص أيضاً إلى الحدّ الأدنى «وعن مبدأ» قوته اليومي، ويكرِه نفسه على الاستيقاظ المبكر برغم حاجته إلى الاستغراق في النوم وإطالته، ويتحاشى الضحك أو حتى الابتسام، وفي الحالات القصوى لا يقضي حاجته إلى التبول والتغوط إلا بعد أن تلحّ عليه إلحاحاً لا يطاق، محتجاً بأنه لا يجوز للمرء أن يلبي حالاً كل ما يعرض له من حاجات بدنه.

على أن هذا الضرب من رفض الدوافع الغريزية يختلف من ناحية أخرى بعد عن الكبت العادي. فعندما ندرس الأعصبة نُلاحظ في العادة أنه حيثما وقع تحت الكبت إشباع غريزي ما ناب منابه إشباع بديل. وعلى هذا النحو يلجأ الهستيري إلى التبدين، أي تحويل التنبيه الجنسي إلى أجزاء أخرى من البدن أو تصريفه من



خلال سيرورات بدنية أخرى مصبوغة بصبغة جنسية. ويصطنع العصابي الوسواسي لنفسه إشباعاً بديلاً من طراز نكوصي، كما يستمد الرهابي من مرضه ربحاً ولو ثانوياً. وفضلاً عن ذلك تظهر، عوضاً عن المتع المحظورة، إشباعات مُزاحة وتشكيلات ارتجاعية. ونحن نعرف أن الأعراض العصابية الحقة، من قبيل النوبات الهستيرية والعرّات والأفعال الاستحواذية والاجترارات الذهنية القهرية، إلخ، تمثّل تسويات أو حلولاً توفيقية تتحقق فيها مطالب الهذا الغريزية بصورة لا تقل مضاءً عن تنفيذ أوامر الأنا والأنا الأعلى. لكن تنكر المراهق لدوافعه الغريزية لا يفسح مجالاً لمثل هذه الإشباعات البديلة، بل يتمّ، فيما يبدو وفق آلية مختلفة. فبدلاً من التسويات والحلول التوفيقية، المناظرة للأعراض العصابية، وبدلاً من الظاهرات المعتادة من قبيل النقل والنكوص والارتداد ضد الذات، يحدث بصورة شبه مطردة، وفي وقت بعينه، تحوُّل مفاجئ ينقلب معه زهد المراهق إلى طفح غريزي، فإذا بكل ما كان محظوراً يغدو على حين غرة مباحاً، ولا يعود المراهق يولي أي اعتبار للتقييدات التي يفرضها العالم الخارجي. ومهما بدا هذا الشطط مستهجناً في نظر محيط المراهق، بسبب طابعه اللااجتماعي، فإنه يظل يمثّل، عندما ننظر فيه من وجهة نظر التحليل النفسي، ضرباً من شفاء تلقائي، مؤقت، من حالة الزهد. وعندما لا يحدث مثل هذا الشفاء، وعندما يكون الأنا، خلافاً للمألوف، قوياً بما فيه الكفاية ليمضي إلى النهاية، بدون أي حيدان، في انتباذ الدوافع الغريزية، تتمخض هذه السيرورة في جملتها عن شلل للأنشطة الحيوية، عن ضرب من غيبوبة تخشبية[1] لا يعود في الإمكان اعتبارها ظاهرة عادية من ظاهرات البلوغ، بل ينبغي أن نرى فيها إصابة ذهانية.

لكن أيحلّ لنا حقاً أن نقيم تمييزاً بين العزوف عن الدوافع الغريزية كما يُلحظ في طور اندفاعة البلوغ وبين ظاهرة الكبت المألوفة للدوافع الغريزية؟ ثمة مشاهدتان قد تأدتا بنا إلى إجراء هذه التفرقة النظرية. ففي مستهل السيرورة يستشعر المراهق إزاء كمّ الدوافع الغريزية حصراً أشدَّ من ذاك الذي يستشعره إزاء نوع المطلب الغريزي، وتنتهي السيرورة لا بإشباعات بديلة أو بتسويات وحلول

١ - كتاتونيا CATATONIE.



توفيقية، وإنما بتزامن أو بتعاقب فجائيين، وبتعبير أصح، بتناوب بين الشطط والعزوف الغريزيين. ونحن نعرف من جهة أخرى أن التوظيف الكمي للدافع الغريزي المطلوب كبته يضطلع، حتى في الكبت العصابي الشائع، بدور كبير، وأنه من المألوف أن نلحظ، حتى في الصعاب الوسواسي، تناوباً بين التحظير والإباحة. ومهما يكن من أمر، فإن الانطباع الذي يساورنا هو أن زهد المراهق يمثل سيرورة أكثر بدائية، وإنما أقل تعقيداً، من الكبت بحصر المعنى؛ وربما كنا نواجه هنا حالة خاصة أو مرحلة تمهيدية بالأحرى من الكبت.

لقد أباحت لنا الدراسة التحليلية النفسية منذ وقت طويل أن نفترض أنه يوجد لدى الإنسان، حتى قبل أن يكتسب أية تجربة، وحتى قبل أن يتسنى له القيام باختيار، ميل إلى انتباذ بعض الدوافع الغريزية المحددة، وبالأخص الدوافع الغريزية الجنسية. والأمر فيما يبدو أمر ميراث سلالي، ضرب من رسابة متخلفة عن أجيال عدة، لا يخلقها الفرد خلقاً، بل يقتصر على مواصلتها. وإنما على موقف الإنسان الموسوم بميسم الثنائية هذا في مواجهة الحياة الجنسية - نفور جِبلّي وشهوة متأججة في آن معاً - طبق بلولر[٢] مفهومه عن الازدواجية العاطفية.

في الفترات الهادئة من الحياة لا يعدو العداء الأولي من جانب الأنا حيال الدوافع الغريزية، أو خوفه من قوتها كما نقول، أن يكون أكثر من محض مفهوم نظري. وإننا لنفترض أن هذا العداء قائم في أساس كل حصر غريزي. ولكنه لا يكون متاحاً للملاحظة بالنظر إلى احتجابه خلف استجابات أكثر بروزاً واستلفاتاً للنظر منه، وأعني بها استجابات الحصر الواقعي والحصر الأخلاقي، تلك التي تتولد من بعض الصدمات الرضيّة التي يتعرض لها الفرد.

وأرجح الظن أن التزايد الكمي في ضغط الدوافع الغريزية في زمن البلوغ وبعض الاندفاعات الغريزية في مراحل أخرى من الحياة هي التي تزيد في شدة ذلك العداء الأولي من جانب الأنا وتجعل منه آلية دفاعية نوعية وفعالة. وفي هذه

---

٢ - يوجين بلولر: طبيب نفسي سويسري (١٨٥٧ - ١٩٣٩). عمل في عيادة بور غوزلي وأدخل إلى القاموس الطبي النفسي مصطلحي الفصام والتوحد. التقى فرويد عام ١٩٠٤ وأسهم في إنشاء **الجمعية التحليلية النفسية** الدولية عام ١٩١٠. «م».



الحال لا يعود يجوز لنا أن نعتبر الظاهرات التي نلاحظها في زهد البلوغ سلسلة من سيرورات كبتية مشروطة نوعياً، بل ينبغي أن نرى فيها تعبيراً عن عداء فطري، لامتمايز، أولي وبدائي، بين الأنا والدوافع الغريزية.

النزعة العقلانية في البلوغ

هكذا يتضح لنا أن التوجهات العامة للأنا قابلة لأن تتحول، في زمن اندفاع الليبيدو، إلى طرائق دفاعية بملء معنى الكلمة. وإذا صحّ استنتاجنا هذا، كان له أن يفسّر أيضاً تحوّرات وتغيرّات أخرى تعتري الأنا وقت البلوغ.

إننا نتبين أن هذه التحورات والتغيرات تطال في المقام الأول الحياة الغريزية والعاطفية. ونعلم أيضاً أن الأنا يتحول ويتغير ثانوياً كلما جاهد للسيطرة على الدوافع الغريزية والانفعالات العاطفية. لكن من الواضح أن حقل التغيرات يكون أوسع بكثير بعد في زمن البلوغ. فالمراهق، إذ يخضع لاندفاعة البلوغ، يغدو أكثر انقياداً للدوافع الغريزية، وهذا أمر مفهوم ولا يحتاج إلى تفسير. كما أن نزعته الأخلاقية ونزعته الزهدية تتزايدان بدورهما، من جراء الصراع الذي يحتدم بين الأنا والهذا. ولكن المراهق يمسي أيضاً أكثر ذكاء، وتتعاظم حاجاته واهتماماته العقلية. وللوهلة الأولى لا نستطيع أن نفهم كيف يمكن أن يرتبط هذا التقدم العقلي بالنمو المتعاظم للدوافع الغريزية وبتعزيز الأنا وباقتداره على مقاومة هجمات هذه الدوافع.

قد نميل بصفة عامة إلى الافتراض بأن عواصف الدوافع الغريزية والعواطف متناسبة عكساً مع النشاط العقلي للفرد. أفليس من شأن حالة الحب العادية والبسيطة أن تحدّ من نطاق النشاط العقلي للإنسان؟ أفلا تتضاءل صلابة ملكة العقل والفهم عنده؟ ثم ألا يجنح الإنسان، كلما صبا إلى تحقيق رغباته الغريزية، إلى الامتناع عن تمحيصها على ضوء العقل، وإلى الإمساك عن التحقق منطقياً من سلامة الأسس التي تنهض عليها؟

للوهلة الأولى قد يبدو أن الوضع مختلف تماماً بالنسبة إلى المراهق. فثمة فئة من الشبان لا تكون قفزتهم إلى الأمام في المضمار العقلي أقل استلفاتاً للنظر



وإثارة للدهشة من طفراتهم في ميادين أخرى. وغالباً ما نلتقي فتياناً يتركز اهتمامهم بكامله، في أثناء مرحلة الكمون، على أشياء ذات وجود فعلي وموضوعي. فهذا لا يطالع سوى قصص الاكتشافات والمغامرات أو المؤلفات التي تبحث في الأعداد والنسب، أو تلك التي تعنى بوصف الحيوانات والأشياء الغريبة، وذاك لا تثير اهتمامه سوى المحركات والآلات، من أبسطها إلى أكثرها تعقيداً. والسمة المشتركة بين هذين النمطين من الشبان هي أن إيثارهم يذهب عموماً إلى العيني المحسوس لا إلى الخيالي؛ فهم يشيحون عن الحكايات الخرافية وقصص الجن التي طالما أمتعتهم في طفولتهم، ويتوجهون نحو الأشياء التي لها وجود فعلي وموضوعي. هذا الميل إلى العيني والملموس، الذي تبدأ تباشيره في مرحلة الكمون، يمكن في زمن لاحق، وتحديداً في فترة ما قبل البلوغ، أن يخلي مكانه لانجذاب متزايد نحو التجريدات. والمراهقون الذين يتّسمون بـ «طول فترة البلوغ» عندهم على حدّ ما وصفهم برنفلد هم بوجه خاص الذين تعتريهم رغبة لا ترتوي في التفكير بالأمور المجردة وفي اتخاذها موضوعاً لمناقشاتهم ولاجتراراتهم الذهنية. وما أكثر صلات الصداقة التي تنعقد أواصرها بين الفتيان وتدوم على أساس رغبتهم المتبادلة في التأمل في تلك الموضوعات وفي مناقشتها معاً. والقضايا التي تشغل هؤلاء الفتيان والمشكلات التي يبحثون لها عن حل وسيعة للغاية، وهي تتعلق عموماً بعلاقات الحب الحر أو الزواج وتأسيس الأسرة، أو بالاستقلال بالنفس واختيار المهنة، أو التسفار والحياة المستقرة. إنهم يتناقشون في مسائل فلسفية ذات أهمية عامة من قبيل الدين والفكر الإلحادي، أو في اختلاف الأنظمة السياسية والثورة أو الخضوع للسلطة، وكذلك في شؤون الصداقة بمختلف أشكالها وصورها. وعندما يتفق لنا في التحليل أن نستمع إلى وصف أمين للمناقشات والسجالات التي تدور بين هؤلاء الشبان، أو عندما نقرأ، على نحو ما يفعله الكثيرون من دارسي هذه المرحلة من العمر، يومياتهم ومذكراتهم، فإننا لا ندهش لسعة تفكيرهم واستقلاليته فحسب، بل كذلك لدرجة تعاطفهم الإنساني وتفهمهم وتفوقهم الظاهر، وأحياناً للحكمة التي يعالجون بها المشكلات الأكثر عسراً.



لكن رأينا لا يعتم أن يتبدل حينما نتحول عن دراسة العمليات العقلية لدى المراهق إلى تفحص كيفية التحامها بحياته بالذات. فعندئذ نكتشف، على دهش منا، أن كل ذلك النشاط العقلي الرفيع لا يترك من أثر في سلوك المراهق الفعلي. فتعاطفه المتفهم مع الغير لا يمنعه من أن يعامل الناس المقربين منه بفجاجة وغلظة وعدم اعتبار. وتصوره السامي للحب وللواجبات التي تقع على عاتق العاشقين لا يخفف من خيانته ومن ضروب القسوة التي يقترفها في تقلباته العشقية. وبالرغم من اهتمامه بالمسائل الاجتماعية ـ وهو يفوق في كثير من الأحيان كل اهتمام مماثل قد يبديه مستقبلاً ـ فإنه لا يدلّل على تكيُّف مع الحياة المجتمعية. وتنوع اهتماماته لا يمنعه من تركيز انتباهه كله على نقطة يتيمة: انشغاله بشخصيته الخاصة.

والحق أننا عندما ندرس، في أثناء التحليل، كل تلك الأنشطة العقلية ننتهي إلى أن نتبيَّن أننا نواجه هنا شيئاً مختلفاً كل الاختلاف عن العقلانية بحصر معنى الكلمة. ومن ذلك أن المراهق حينما يتأمل في مختلف مواقف الحب أو عندما يمعن النظر في اختيار مهنة دون سواها، نراه لا يسعى البتة إلى أن يستخلص من تأملاته وتفكراته خطاً موجِّهاً لأفعاله على نحو ما يفعل الراشد أو على نحو ما يفعل الغلام حين يدرس، وهو في أوج مرحلة الكمون، محركاً بغية فكه وإعادة تركيبه بعد ذلك من جديد. فعقلانية المراهق لا تمدّه، فيما يبدو، إلا بمادة لأحلام يقظته. وحتى تخييلاته الطموحة لا تكون برسم الترجمة إلى الواقع. فحينما يحلم المراهق بأنه صار فاتحاً عظيماً، فإن ذلك لا يلزمه بأن يقدم الدليل على شجاعته وجلَده في الحياة الواقعية؛ فالتأمل والاجترار الذهني والمناقشات تكفيه وترضيه على ما هو بادٍ للعيان، وسلوكه، المتعيِّن بعوامل أخرى، لا يتأثر بالضرورة بتلك التمارين العقلية.

شيء آخر يسترعي انتباهنا حينما ندرس لدى المراهق العمليات العقلية. فالملاحظة المتأنية تكشف لنا عن أن الموضوعات التي تشغل اهتمام الفتى هي في المقام الأول تلك التي كانت أشعلت فتيل الصراع فيما سلف بين هيئاته النفسية. فهذه الموضوعات تدور، مرة أخرى، إما حول دمج العناصر الغريزية في جملة



الحياة، وإما حول ممارسة الجنس أو العزوف عنه، وإما حول الحرية وحدودها، والتمرد على السلطة أو الإذعان لها. وقد تسنى لنا أن نرى أن الزهد، بطوق التحريم الذي يضربه حول الدوافع الغريزية، لا يحقق للمراهق كل ما كان يتأمله منه؛ وبما أن الخطر يترصده في كل خطوة يخطوها، فحتم عليه أن يتدبر لنفسه الوسائل للظهور على هذا الخطر. وهنا يبدو أن الاجترار الذهني بصدد الصراع الغريزي، أي العقلنة[٣]، يزوِّده بوسيلة ملائمة للنجاح في ذلك. ففي مثل هذه الحال، وبدلاً من الهرب من الدوافع الغريزية، كما في الزهد، يوجِّه المراهق إليها اهتمامه كله، ولكن على نحو مجرد وعقلي محض؛ وإذ يسلك هذا المسلك لا يسعى البتة إلى حلّ المشكلات أو أداء المهام التي يفرضها عليه الواقع. بل إن نشاطه العقلي يخفي بالأحرى انشغالاً جارفاً بسيروراته الغريزية الخاصة وترجمة لما يستشعره إلى محض أفكار مجردة. وهكذا، إن التصور الذي يصطنعه لنفسه عن العالم، وعلى سبيل المثال رغبته في أن تشتعل ثورة في العالم الخارجي، يستجيب لتحسسه بالمطالب الجديدة للهذا عنده، تلك المطالب التي تهدد بأن تقلب حياته كلها رأساً على عقب. والمثل العليا للصبي المراهق في الصداقة والإخلاص الأبدي لا تزيد على أن تكون انعكاساً لاهتمامات أناه الذي يشعر بالطابع العابر والسريع الزوال لعلاقاته الموضوعانية الجديدة الصاخبة[٤]. وقد تتحول أحياناً حاجة المراهق إلى الإرشاد والحماية في صراعه الميئوس منه في غالب من الأحيان ضد دوافعه الغريزية الخاصة إلى مماحكات أربية يبتغي بها أن يثبت عدم استقلال الإنسان في قراراته السياسية. وهكذا نجد أنفسنا أمام ترجمة للسيرورات الغريزية إلى لغة العقل. ولكن إذا كان الانتباه يتركز على الدوافع

---

٣ ـ العقلنة RATIONALISATION : التبرير أو التفسير الذي يكون له ظاهر من العقلانية بدون أن يكون عقلانياً البتة. «م».

٤ ـ لفتت مارغيت دوبوفيتز[*]، من بودابست، انتباهي إلى أن تأملات المراهق وتفكراته بصدد الحياة والموت إنما تعكس العمل التدميري الذي يتمّ في داخل ذاته.

(*) مارغيت دوبوفيتز: محللة نفسية مجرية مختصة بتحليل الأطفال. تولى تحليلها لأول مرة ساندور فيرنزي، ومن بعده فرويد نفسه. تولت إدارة عيادة تحليلية نفسية في بودابست، وتعاونت مع آنا فرويد في عيادتها الفييناوية. «م».



الغريزية، فإنما ذلك لأن المراهق يحاول أن ينتقل بها إلى مستوى مغاير بغية كبحها والسيطرة عليها.

لنستذكر أن عملية ربط الانفعالات العاطفية والسيرورات الغريزية بالتمثلات اللفظية تُعتبر، من منظور الميتاسيكولوجيا(٥) التحليلية النفسية، أول وأهم خطوة يخطوها الفرد، في مسار نموه، ليتوصل إلى السيطرة على دوافعه الغريزية. ويُعرَّف التفكير، من هذا المنظور، بأنه «عملية اختبارية تُستخدم فيها أقلّ الكميات الممكنة من الدوافع الغريزية». وهذه العقلنة للحياة الغريزية، هذه المحاولة للسيطرة على الدوافع الغريزية عن طريق ربطها بأفكار تمكن مداورتها شعورياً، تمثِّل واحدة من أعم القدرات المكتسبة من قبل الأنا البشري ومن أقدمها وأكثرها لزوماً. ونحن لا نعتبرها من ثم نشاطاً للأنا، بل واحداً من عناصره المكوِّنة التي لا غنى له عنها.

مرة أخرى يساورنا انطباع بأن الظاهرات التي تؤلف في جملتها ما أسميناه بـ«العقلنة في زمن البلوغ» لا تمثِّل إلا مغالاة في التوجه العام للأنا في أعقاب الاندفاعة الليبيدوية المباغتة. فالتعزيز الكمي لليبيدو هو ببساطة ما يشدّ انتباه الملاحظ إلى وظيفة من وظائف الأنا، وظيفة تؤدَّى بصورة طبيعية تماماً وفي غير ضجيج أو جلبة في أوقات أخرى. وإذا صحّ ذلك، كان معناه أن اشتداد ميل المراهق إلى العقلنة ـ وربما أيضاً ذلك الاستبصار المتزايد بالسيرورات النفسية الداخلية الذي تتميز به بداية كل اندفاعة ذهانية ـ لا يؤلف إلا جزءاً من جهود الأنا المعتادة للسيطرة على الدوافع الغريزية عن طريق الفكر.

ربما جاز لنا الآن أن نتكلم عن كشف ثانوي بسيط توحي إلينا به تأملاتنا هذه. فإذا صحّ أن كل تعزيز للتوظيف الليبيدوي يتأدى لا محالة في كل مرة إلى مضاعفة الجهود التي يبذلها الأنا ليسيطر عقلياً على السيرورة الغريزية، كان ذلك معناه أن الأخطار الغريزية تجعل الناس أذكياء. ففي فترات الهدوء الغريزي، أي عندما لا يكون الفرد مهدداً بأي خطر، يكون هذا الفرد في حِلٍّ من أن يسمح لنفسه بدرجة معيَّنة من البلاهة. ومن هذا المنظور يضطلع الحصر الغريزي بالدور

٥ ـ يعرِّف فرويد وجهة النظر الميتاسيكولوجية في التحليل النفسي في كتابه **ما بعد علم النفس** بأنها تلك التي تصف السيرورة النفسية في علاقاتها الدينامية والطبوغرافية والاقتصادية.«م».



عينه الذي يضطلع به الحصر الواقعي. فضروب الحرمان والأخطار الفعلية تشحذ الإنسان، وتدفع به إلى إنجازات عقلية ومحاولات فذة لتدبر مخرج لنفسه، بينما يجنح به الأمان المستتب والوفرة إلى التراخي والتباله. وعلى هذا لا تكون مجابهة السيروورات الغريزية بسيروورات عقلية إلا شكلاً من أشكال التيقظ في مواجهة واقع محفوف بالأخطار، وهو تيقظ يدرك الأنا البشري ضرورته.

لقد كنا نفسّر حتى الآن كسوف ذكاء الطفل هذا في مستهل مرحلة الكمون بكيفية مغايرة تماماً. فالإنجازات العقلية الباهرة للصبي الصغير ترتبط بوثيق العرى بفضوله الجنسي. فإذا ما ضُرب الحظر في وقت لاحق على كل تقصٍّ من هذا القبيل، انتشر الحظر والتقييد كبقعة الزيت وامتدا إلى مضامير أخرى من الفكر. فلا غرو والحال هذه أن تعاود ملكات الفرد العقلية ظهورها في فترة ما قبل البلوغ، عندما ينهار حاجز الكبت الجنسي الطفلي تحت ضغط الاندفاعة الجنسية الجديدة.

إلى هذا التفسير المألوف نستطيع أن نضيف ما يلي: إذا كان الطفل في مرحلة الكمون لا يفكر تفكيراً مجرداً، فقد لا يكون السبب عدم اجترائه على ذلك، وإنما لكون ذلك لا طائل فيه. فالطفل يكون عرضة، في طفولته المبكرة وعند البلوغ، لأخطار غريزية كبيرة يعينه «الذكاء»، إلى حدٍّ ما على الأقل، على تفاديها. ومن جهة أخرى، وفي مرحلتي الكمون والحياة الراشدة، يستطيع الأنا، وقد اشتدّ ساعده نسبياً، أن يتراخى قليلاً في جهوده للسيطرة على الدوافع الغريزية بدون أن يتأذى الفرد من جراء ذلك. ولا يغرب عنا في الوقت نفسه أن الأنشطة العقلية مهما تكن باهرة ولافتة للنظر، عند البلوغ على الأخص، تظل إلى حدٍّ بعيد عقيمة. ويكاد يكون في مستطاعنا أن نقول الشيء عينه عن الإنجازات العقلية الفذة والمثيرة للإعجاب في الطفولة الأولى. وحسبنا أن نتذكر أن استقصاءات الطفل الجنسية، التي يعدّها التحليل النفسي أبلغ تعبير عن النشاط العقلي لدى الكائن الصغير، لا تتأدى به أبداً أو نادراً ما تتأدى به إلى كشف حقائق الحياة الجنسية عند الراشدين. فالطفل لا يستخلص من أبحاثه بصدد الجنسية رؤية صحيحة للوقائع، بل فقط نظريات جنسية طفلية بعيدة بعداً يكثر أو



يقلّ عن الواقع الفعلي. واستنتاجاته إنما تعكس السيرورات الغريزية التي تدور في داخل ذاته.

أما العمل العقلي الذي ينجزه الأنا في مرحلة الكمون وفي الحياة الراشدة فهو أمتن بما لا يقاس، وأثبت أسساً، وعلى الأخص أوثق ارتباطاً بكثير بالأفعال.

الحب الموضوعاني والتماهي عند البلوغ

لننظر الآن كيف يمكن للنزعة الزهدية وللنزعة إلى العقلنة في البلوغ أن تلتئما ضمن عرضنا هذا لمسارب السيرورات الدفاعية المتعيِّنة بالحصر وبالخطر. وإننا لنلاحظ حالاً أن الأسلوبين المشار إليهما يدخلان في باب الطراز الثالث من الدفاع. فالخطر الذي يتهدد الأنا هو خطر انطماره تحت مدّ الدوافع الغريزية، وما يخشاه الأنا في المقام الأول هو كمّ هذه الدوافع. ويكون نشوء هذا الخوف لدى الفرد في مرحلة مبكرة من مسار نموه. فهو يتمخض ساعة يشرع الأنا بالانسلاخ تدريجياً على الهذا اللاامتمايز. والتدابير الدفاعية التي يمليها على الأنا خوفه من قوة الدوافع الغريزية إنما الهدف منها تثبيت انفصال الأنا عن الهذا وتأمين التنظيم الجديد للأنا. فالنزعة الزهدية تأخذ على عاتقها أن تكبح الهذا متوسلة إلى ذلك سبيل الحظر لا غير. أما العقلنة فمهمتها أن تربط ربطاً وثيقاً السيرورات الغريزية بمضامين فكرية كيما تجعل هذه السيرورات متاحة للشعور، وبالتالي قابلة للتحكم بها.

على أن الفرد، ساعة يحدث ذلك الطفح الليبيدوي المفاجئ، يرتدّ نحو الطور البدائي من الحصر إزاء قوة الدوافع الغريزية، مما ينعكس أثره لا محالة على السيرورات الغريزية الأخرى وعلى أنشطة الأنا. وسأحاول في الصفحات التي ستلي أن أدرس ظاهرتين رئيسيتين بين جملة الظاهرات التي يتفتق عنها البلوغ، وسأبذل جهدي للكشف عن الصلة التي تربطها بنكوص الأنا ذاك.

إن أكثر الظواهر استلفاتاً للنظر في حياة كل مراهق هي تلك التي تتصل بعلاقاته الموضوعانية. فهنا تحديداً يكون الصراع بين ميلين متضادين على أوضح ما يكون. فالكبت، الذي يحركه النفور العام من الدوافع الغريزية، يطال أول ما



يطال في العادة، كما رأينا، التخييلات المحرمية لفترة ما قبل البلوغ، وارتياب الأنا وزهده يستهدفان، في المقام الأول، علاقات المحبة والحنو التي انعقدت من قبل لدى الطفل. وعندئذ يسعى المراهق إلى عزل نفسه والانفراد بها، وينتهي به الأمر إلى أن يحيا بين ظهراني أسرته وكأنه غريب. ومن جهة أخرى، إن النفور الذي توحي به إليه دوافعه الغريزية لا يمتدّ إلى علاقاته الموضوعانية وحدها، بل كذلك إلى علاقاته بأناه الأعلى. فبقدر ما يبقى الأنا الأعلى في ذلك الطور من العمر مشحوناً بعد بالليبيدو المنبثق عن العلاقة بالوالدين، يُعامَل هو نفسه وكأنه موضوع محرمي، الريبة إزاءه واجبة، فيقع من ثم ضحية الزهد. وهكذا ينسلخ الأنا عن الأنا الأعلى أيضاً. هذا الكبت الجزئي للأنا الأعلى، وهذا الانسلاخ عن بعض مضامين الأنا الأعلى، يتأديان بالمراهق إلى التخبط في أشد متاعب ذلك الطور من العمر إرهاقاً له. فتصدّع العلاقات بين الأنا والأنا الأعلى يفضي إلى تعاظم الخطر الغريزي. فينزع المراهق إلى أن يصير لااجتماعياً. وبالفعل، وقبل حدوث هذا الانقلاب، كانت الهواجس الأخلاقية ومشاعر الإثم، المنبجسة عن العلاقات بين الأنا والأنا الأعلى، هي آمن حليف للأنا في كفاحه ضد الدوافع الغريزية. والحق أنه كثيراً ما تُلحظ، في بدايات البلوغ، محاولة مكشوفة ولكن عابرة لمضاعفة توظيف جميع مضامين الأنا الأعلى، وأغلب الظن أن هذه العملية هي التي تفسّر «مثالية» المراهق المزعومة. فما الذي سيحدث عندئذ؟ إن الزهد، الذي حرَّكه خطر غريزي مستفحل، يصدِّع العلاقات بين الأنا والأنا الأعلى، معطلاً على هذا النحو فعالية الإجراءات الدفاعية التي أملاها الخوف من الأنا الأعلى، وينجم عن ذلك أن الأنا يتقهقر، بمزيد من العنف بعد، إلى طور الحصر الغريزي الصرف، فلا يعود في مستطاعه أن يستخدم سوى الآليات الحمائية البدائية المميِّزة لهذا الطور.

على أن اللجوء إلى العزلة والتنائي عن المواضيع المحبوبة ليسا الميلين الوحيدين اللذين يعلنان عن نفسهما في علاقات المراهقين الموضوعانية. فكثرة من التعلقات الجديدة تأتي لتنوب مناب التثبيتات العاطفية الطفلية المكبوتة. فأحياناً يعقد المراهق علاقة صداقة مشبوبة أو حتى حب كبير مع فتيان في مثل سنه، وفي بعض



الأحيان مع شخص يكبره سناً، فيتخذه قائداً له وقدوة، ويكون من الواضح في هذه الحال أنه بديل عن المواضيع الأبوية المهجورة. ومشاعر الحب هذه مشبوبة ومانعة لسواها، لكنها قصيرة الأجل أيضاً. فالموضوع الذي وقع عليه الاختيار يُهجر ويُستبدل سريعاً بغيره بدون أن يقيم المراهق أي اعتبار للحزن الذي قد يتسبب فيه على هذا النحو. فهو ينسى الأشخاص الذين كان يحبهم ويكون نسيانه لهم سريعاً وتاماً؛ ولا يستمر لديه، في أدق تفاصيله، سوى شكل علاقات الحب الماضية، وهذا الشكل يتكرر في العلاقات الجديدة بأمانة صارمة، بل قهرية إن جاز القول.

فإلى جانب عدم الوفاء السافر هذا للمواضيع المحبوبة نلحظ في علاقات المراهق الموضوعانية خاصية غريبة أخرى. فالمراهق لا يصبو إلى امتلاك الشخص المحبوب، بالمعنى الجسدي المألوف لكلمة امتلاك، بقدر ما يرمي إلى مماثلة نفسه به إلى أقصى حدٍّ ممكن.

تبيِّن لنا التجربة اليومية مدى تقلب المراهق. فطريقته في الكتابة والكلام، وتسريحة شعره، وأسلوبه في اللباس وعاداته على مختلف ضروبها، تكون آنئذ أكثر مما في أي طور آخر من أطوار الحياة قابلة للتكيف مع الظروف. وكثيراً ما تكون نظرة واحدة نلقيها على المراهق كافية لنتعرف من هو الصديق الذي يكبره سناً والذي يكنّ له الإعجاب في حينه. لكن قابليته للتقلب يمكن أن تذهب إلى أبعد من ذلك بعد: فهو يكيّف في بعض الأحيان مع آراء الشخص الذي يحبه في حينه تصوره للعالم وأفكاره الدينية والسياسية؛ وعلى الرغم من كثرة تقلباته هذه فإنه يكون في كل مرة مقتنعاً اقتناعاً راسخاً ومشبوباً بصحة الأفكار التي تبنّاها بكل تلك الحماسة. وهو يشبه، من هذا المنظور، ذلك الطراز من المرضى الذي وصفته هيلينا دويتش في دراسة سريرية لها حول سيكولوجيا الراشدين المعصوبين الذين هم قاب قوسين من الذهان. فهي تدرج هؤلاء المرضى في عداد الفئة التي تسميها «طراز كأن» (ALS OB TYPUS)[٦]. وبالفعل، إن المراهق

٦ ـ هيلينا دويتش: **حول طراز خاص من العاطفية الكاذبة «كأن»**، في **المجلة الدولية للتحليل النفسي**، م ٢٠، ١٩٣٤، ص ٣٢٣ وما يليها.



كلما عقد صلة موضوعانية جديدة يسلك و«كأنه» يحيا حياته الخاصة، وكأنه يعبِّر عن مشاعره الخاصة وآرائه الخاصة ووجهات نظره الخاصة.

لقد أتاح لي تحليل فتاة مراهقة أن أعاين في جلاء الآلية التي ترتكز إليها سيرورات التبدل والتقلب تلك. فخلال عام واحد حدثت لديها جميع التبدلات المشار إليها. فقد انتقلت بعاطفتها من بعض البنات إلى بعض الصبيان، ومن الصبيان إلى نساء أكبر سناً منها. وما كانت في كل مرة تبدي لامبالاة تامة بالموضوع الذي هجرته فحسب، بل كانت تستشعر إزاءه أيضاً نفوراً متأججاً يقارب أن يكون احتقاراً. وكان كل لقاء لها به، أبالمصادفة كان أم محتوماً، يبدو لها لا يطاق. وبعد تحليل مطوَّل اتضح لنا في نهاية المطاف أن المشاعر التي كانت تفصح عنها على هذا النحو ليست هي على الإطلاق مشاعرها إزاء أصدقائها القدامى. ففي كل مرة كانت تغيِّر فيها موضوع افتتانها، كانت تشعر أنها ملزمة بأن توفِّق سلوكها مع اتجاه صديقها الجديد، وبأن تتبنى وجهات نظره وجميع آرائه في كل ما يتصل بحياتها الخارجية أو حياتها الداخلية. وهكذا كانت تحيا عواطف معبوديها الجدد لا عواطفها هي. ولم يكن كرهها حيال الأشخاص الذين كانوا محبوبين عندها من قبل هو كرهها حقاً؛ فعن طريق ضرب من التعاطف الغيريّ كانت تشاطر أحدث أصدقائها مشاعره، وإذ تبدي عن غيرتها المتخيَّلة كانت تعبِّر عن الشعور الذي كانت تتصور أنه لا بدّ مساور صديقها هو حيال المواضيع التي حظيت بحبّها يوماً. وعلى هذا لم يكن الاحتقار الذي توحي به إليها هذه المواضيع احتقارها هي، وإنما احتقار صديقها الجديد إزاء كل منافس ممكن.

إن الظاهرات النفسية في هذا الطور من مرحلة البلوغ وظاهرات أخرى مماثلة يمكن وصفها بسهولة: فتلك التعلقات العاطفيةالمشبوبة والسريعة الزوال ليست على الإطلاق بعلاقات موضوعانية بالمعنى الذي يعطيه الراشدون لهذه الكلمة، وإنما هي فقط تماهيات من النوع الأكثر بدائية، تماهيات مشابهة لتلك التي نستطيع كشفها في المرحلة الأولى من نمو الطفل الصغير، قبل أن يتظاهر لديه أي حب موضوعاني. وعلى كل، إن التقلب الذي يميِّز البلوغ لا ينمّ لدى المراهق عن



تغيُّر في الحب أو في الاقتناع بقدر ما ينمّ عن فقدان للشخصية من جراء تماهٍ جديد.

ربما كان تحليلنا لفتاة أخرى في الخامسة عشرة من العمر يتيح لنا أن نقطع شوطاً آخر على طريق تفهم الدور الذي يضطلع به هذا الميل إلى التماهي. كانت هذه المريضة جميلة وجذابة إلى حدٍّ كبير، وكان لها معجبون ومغرمون كثُر في الوسط الاجتماعي الذي تعيش بين ظهرانيه، ولكن ما كان ذلك يمنعها من أن تغار من أختها الصغيرة غيرةً مسعورة. وعند البلوغ فقدت فتاتنا اهتمامها بكل ما كان يعني لها شيئاً في السابق، وأمسى دأبها الوحيد مذّاك فصاعداً أن تكسب إعجاب أصدقائها وحبّهم، أفتياناً كانوا أم رجالاً. وقد تولعت بقوة وعنف، وعن بعد، بفتى يكبرها سناً بقليل، كانت تلتقيه أحياناً في حفلات وسهرات راقصة. وقد خطّت إليّ يومئذ رسالة تروي لي فيها شكوكها وهواجسها بصدد هذا الحب. كتبت تقول: «أسدي إليَّ نصيحة من فضلك: كيف لي أن أتصرف عندما ألتقيه؟ أينبغي أن أكون رصينة أم مرحة؟ أتراه يحبني ذكية أم بلهاء؟ أيحسن بي أن أكلِّمه كل الوقت عن نفسه أم عن نفسي أيضاً قليلاً؟...». وفي الجلسة التالية أجبت شفهياً عن أسئلتها هذه. قلت لها: إنه ليس من الضروري أن ترسم لنفسها سلفاً الخطط. أفليس في مستطاعها، متى حان الوقت، أن تتصرف وفق ما تكون عليه من حالة نفسية ومشاعر؟ أكدت لي أن لا، وأن ذلك مستحيل، وألقت عليّ محاضرة طويلة لتشرح لي ضرورة تكيُّف المرء مع ما يفضِّله الناس ومع ما يتوقعونه منك. فعلى هذا النحو وحده يمكن لك أن تفوزي، بكل تأكيد، بحبهم. ثم أنى لها أن تطيق الحياة بدون حب ذلك الفتى؟

بعد ذلك للحال روت لي المريضة أخيولة تصورت فيها نهاية العالم. تساءلت: «ماذا سيحدث فيما لو قضى الناس جميعاً نحبهم؟». وراحت تستعرض أصدقاءها وأهلها واحداً تلو الآخر، إلى أن تصورت نفسها في خاتمة المطاف وقد أمست وحيدة فوق سطح الأرض. كان صوتها ونبرتها والكيفية التي تصف بها جميع تفاصيل الكارثة يدلّ أن أخيولتها هذه لم تكن إلا تحقيقاً لرغبة. فقد كان ما تستشعره، وهي تقصّ أخيولتها ، متعة لا حصَراً.



عند هذه النقطة ذكّرتها برغبتها الحارة في أن تكون محبوبة. كان مجرد تفكيرها في احتمال ألا تقع من نفس صديق من أصدقائها موقع الاستحسان، أو في احتمال أن تفقد حبه، كافياً في الأيام السابقة ليغرقها في حالة من اليأس والقنوط. فلو بقيت بمفردها على الأرض، فمن سيحبّها؟ ردّت في هدوء تذكرتي لها بهواجسها في الأمس، وقالت لي، وهي تتنفس الصعداء وكأنها انعتقت من كل حصر: «حسناً، في هذه الحالة سأحبّ نفسي».

هذه الملاحظة التحليلية المقتضبة عن حالة مفردة تقدِّم تمثيلاً جيداً، فيما يلوح لي، على بعض العلاقات الموضوعانية في زمن البلوغ. فقطع أواصر الصلات الموضوعانية القديمة، والنفور من الدوافع الغريزية، والنزوع إلى الزهد، كل ذلك يكون من شأنه سلخ الليبيدو عن العالم الخارجي. فالمراهق مهدَّد بخطر ارتداد الليبيدو إلى ذاته وتركُّزه عليه، وبخطر النكوص في حياته الليبيدوية من الحب الموضوعاني إلى النرجسية، مثلما نكص من قبل في أناه. وهو لا يفلت من هذا الخطر إلا بما يبذله من جهود مستميتة ليتعلق بمواضيع خارجية، حتى وإن كان لا يستطيع الوصول إليها إلا عن طريق النرجسية، أي من خلال سلسلة من التماهيات. هكذا تمثل علاقات المراهق الموضوعانية المشبوبة محاولات للشفاء، مشْبِهة في ذلك، مرة أخرى، الحالات الابتدائية للاندفاعات الذهانية.

لقد قارنت تكراراً في الصفحات السابقة بين الخصائص اللافتة للنظر لمرحلة البلوغ وبين التظاهرات الباتولوجية الخطيرة، بحيث أراني مضطرة ـ بدون أن أزعم أن دراستي كانت كاملة ـ إلى أن أضيف كلمة أخرى بعد بصدد الطابع السوي أو اللاسوي للسيرورات التي تحدث في ذلك الطور من العمر.

إن ملاحظتنا للدور الذي تضطلع به التغيرات الكمية في التوظيف الليبيدوي هي التي أتاحت لنا أن نقيم موازاة بين البلوغ والحالات الابتدائية للنوبات الذهانية. ففي الحالتين كلتيهما يتأدى تزايد التوظيف الليبيدوي، من جهة أولى، إلى زيادة في الخطر الغريزي، ومن الجهة الثانية، إلى زيادة في شدة جميع الجهود التي يبذلها الأنا للدفاع عن نفسه. ولقد اتضح دوماً للتحليل النفسي أن أي



مرحلة من مراحل الحياة يتزايد فيها الليبيدو يمكن أن تغدو، من جراء السيرورات الكمية، نقطة انطلاق للأعصبة أو للأذهنة.

ثانياً، إن البلوغ يمكن أن يشابه أيضاً الاندفاعات الذهانية من جراء تبني بعض المسالك الدفاعية البدائية التي نعزوها إلى الحصر الذي يستشعره الأنا حيال قوة الدوافع الغريزية، وهو حصر أقدم عهداً من الحصر الواقعي أو الأخلاقي.

إن الانطباع الذي يمكن أن تولّده فينا سيرورة البلوغ، والطابع السوي أو اللاسوي الذي نعزوه إليها، يتوقفان في أغلب الظن على غلبة إحدى الخصائص التي تكلمت عنها، أو أحياناً غلبة عدة خصائص معاً في اللوحة السريرية. فالمراهق الزاهد يبدو لنا سوياً ما دام عقله يعمل في حرية، وما دام يحتفظ بعدد كافٍ من العلاقات الموضوعانية. وهذا يصدق أيضاً على الفتى الذي يجنح إلى العقلنة، وكذلك على الفتى الذي ينتقل من صداقة مشبوبة إلى أخرى. لكن عندما تستفحل النزعة الزهدية الغريزية، وعندما تهدد العقلنة بخنق جميع الأنشطة العقلية الأخرى، وعندما لا تقوم العلاقات مع العالم الخارجي إلا على أساس التماهيات المتقلبة، فإنه يكون من العسير على المربّي أو المحلّل النفسي أن يقرر، استناداً إلى الملاحظة، ما الجوانب من سلوك المراهق التي تدخل ضمن نطاق النمو السوي وما الجوانب التي تكون بحدّ ذاتها باتولوجية.



خاتمة

حاولت، في الفصول السابقة، وبالاستناد إلى بعض الأمثلة السريرية، تصنيف مختلف الآليات الدفاعية المتعيّنة بمواقف الحصر النوعية. وربما كان في إمكاننا، طرداً مع تحسن معرفتنا بنشاط الأنا اللاشعوري، أن نجري تصنيفاً أكثر دقة. فالعلاقة التاريخية بين بعض الخبرات المعاشة والنمطية التي تطرأ في أثناء نمو الفرد وبين تحريك أنظمة بعينها من أنظمة الدفاع لا يزال يحوطها الإبهام إلى حدّ بعيد. بيد أن الأمثلة التي سقتها هنا تتيح لنا مع ذلك أن نفترض أن الأنا يحرك آلية الإنكار في المواقف ذات الصلة بأفكار الخصاء وفقدان المواضيع المحبوبة. ومن ناحية أخرى، يبدو أن التنازل الغيريّ عن الحفزات الغريزية هو الوسيلة المفضلة، في بعض الشروط المحددة، للتغلب على الإذلالات النرجسية.

إن المعارف التي باتت متوفرة لنا اليوم تتيح لنا أن نقيم بدرجة أكبر من اليقين مقاربات بين أنشطة الأنا الدفاعية في مواجهة الأخطار التي تتهدده سواء من الداخل أو من الخارج. **فالكبت** يفيد في تنحية مشتقات الهذا، مثلما يفيد **الإنكار** في استبعاد التنبيهات الخارجية. **والتشكيل الارتجاعي** يصون الأنا من معاودة انبجاس ما كان كُبت من الداخل، بينما تحول **الأخاييل التي يُقلب فيها الموقف الواقعي إلى ضده** دون انهيار الإنكار تحت ضغط المحيط الخارجي. ويناظر **كفّ** الحفزة الغريزية **انكماشَ** الأنا بغية تحاشي الكدر الناجم عن العالم الخارجي. وتفعل **عقلنة** السيرورات الغريزية فعلها كوسيلة حماية ضد خطر داخلي وتكافئ **تيقُّظاً** دائماً من جانب الأنا في مواجهة الأخطار الخارجية. وجميع الآليات الدفاعية الأخرى ـ من نظير القلب إلى الضد أو الارتداد ضد الذات ـ التي تستتبع تعديلاً في السيرورات الغريزية ذاتها لها ما يناظرها في المحاولات التي يبذلها الأنا ليتقي الخطر الخارجي بتدخله الإيجابي والفعال لتغيير



الظروف المحيطة. بيد أنه لا يسعني أن أفيض هنا أكثر من ذلك في الكلام عن هذه الجوانب من أنشطة الأنا.

إننا نتساءل، حال مقارنتنا بين مختلف هذه السيرورات، عن الأسباب التي يمكن أن تحدو بالأنا إلى أن يختار هذا الشكل من أشكال الدفاع بدلاً من ذاك. فهل يتقولب الكفاح ضد العالم الخارجي بقالب الكفاح ضد الدوافع الغريزية، أم أن الإجراءات الدفاعية المتخذة في الصراع ضد الدوافع الغريزية تتشكل، على العكس، بشكل الإجراءات المتخذة في الصراع الخارجي؟ إن البتّ القاطع بين هذين الفرضين المخيَّر بينهما أمر مستحيل. فالأنا الطفلي يرزح تحت وطأة هجمة التنبيهات الغريزية والتنبيهات الخارجية في آن معاً. وكيما يتاح له الاستمرار في الوجود، يتحتم عليه أن يحارب على الجبهتين في وقت واحد. وكل شيء يحملنا على الاعتقاد بأن الأنا، في كفاحه هذا ضد التنبيهات والمثيرات المتباينة، يكيّف تدابيره الدفاعية مع الأخطار التي تتهدده من الداخل ومن الخارج.

إن مقارنة هذه السيرورة بسيرورة أخرى مشابهة لها، ونعني بها التحريف في الحلم، هي التي تتيح لنا أن نتبيّن على خير وجه ممكن إلى أي حدّ يخضع الأنا، في دفاعه عن نفسه ضد الدوافع الغريزية، لقوانينه الخاصة وإلى أي حدّ يتأثر في ذلك بطبيعة الدوافع الغريزية نفسها. فترجمة أفكار الحلم الكامنة إلى مضمون الحلم الظاهر تتوقف على الرقابة التي تنوب في أثناء النوم مناب الأنا. بيد أن عمل الحلم ذاته ليس من فعل الأنا. فالتكثيف والنقل وطرائق التعبير والتمثيل الغريبة المتنوعة في الحلم هي من اختصاص الهذا، وهي تفيد بوجه خاص في تحقيق التحريف. وبالمثل، إن آليات الدفاع لا تعود بكليّتها إلى الأنا. فخصائص الدوافع الغريزية يجري استخدامها بقدر ما تتعدل السيرورات الغريزية ذاتها. ومن قبيل ذلك أن الأنا، إذ يحاول أن ينقل الهدف الغريزي من مضمار الجنسية الخالصة إلى مضمار يعتبره المجتمع أرفع وأسمى، يشغّل آلية **الإسماء**، وهذا بفضل حركية السيرورات الغريزية. وتـأميناً للكبت عن طريق التشكيلات الارتجاعية يستغل الأنا قابلية الدوافع الغريزية **للانقلاب إلى الضد**. وفي مقدورنا الافتراض أن النظام



الدفاعي لا يصمد للهجمات إلا إذا كان أساسه مزدوجاً: الأنا من جهة، والسيرورة الغريزية نفسها من الجهة الأخرى.

وعلى الرغم من أن الأنا لا يملك حرية مطلقة في اختيار الآليات الدفاعية، فإن أهمية الدور الذي يضطلع به تدهشنا عندما ندرس هذه الآليات. فوجود الأعراض العصابية ذاته يثبت أن الأنا قد غُلب على أمره. وكل رجوع للدوافع الغريزية المكبوتة، وكل تكوين لاحق للتسوية من ثم، يشهدان على إخفاق الإجراء الدفاعي، وبالتالي على اندحار الأنا. وبالمقابل، يكون الظفر للأنا عندما تثبت تدابيره الدفاعية نجعها وفعاليتها، أي عندما يتمكن، بوساطة هذه التدابير، من الحدّ من تمخُّض الحصر والكدر، ومن تأمين قدر معيَّن من الاستمتاع الغريزي، حتى في الظروف الصعبة، عن طريق تحوير الدوافع الغريزية. وعلى هذا النحو تقوم، بقدر المستطاع، علاقات متناغمة بين الهذا والأنا الأعلى وقوى العالم الخارجي.